□ عُلُوّ الهِمَّة في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنْكَر □

« إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القُطب الأعظم في الدين ، وهو المُهِمّ الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه وأُهمل عمله ، لتعطَّلتِ النبوة واضمحلَّتِ الدِّيانة ، وعمَّتِ الفَتْرة وفَشَتِ الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتَّسع الخَرْق ، وخربت البلاد وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلَّا يوم التَّناد ، وقد كان الذي خِفْنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القُطب عَمَلُه وعِلمُه ، وانْمَحَقَ بالكليّة حقيقتُه ورَسْمُه ، فاستولت على القلوب مُداهنةُ الخلْق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتِّباع الهوى والشهواتِ استرسالَ البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومةُ لائِم ، فمن سعي في تلافي هذه الفترة وسَدِّ هذه الثُّلْمَة ؛ إمَّا متكفِّلًا بعملها ، أو متقلِّدًا لتنفيذها ، مجدِّدًا لهذه السُّنَّة الدَّاثِرة ، ناهِضًا بأعبائها ، ومتشمِّرًا في إحيائها - كان مُستأثرًا من بين الخلق بإحياء سُنَّةٍ أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدًّا بقُربةٍ تتضاءل درجات القُرب دون ذروتها »[1] .

قال تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون** ﴾ [آل عمران : ١١٠].

أُمَّةٌ تُخرج إخراجًا من الغيب من وراء الستار السرمدي ، الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله ، تخرج إلى الوجود ، أمة ذات دور خاص ، لها مقام خاص ، ولها حساب خاص .

---

(١) الإحياء ٢/٣٣٣ .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ .

وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة ، لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أُخرجتْ لتكون طليعةً ، ولتكون لها القيادة ، بما أنها هي خير أمة ينبغي دائمًا أن تُعطي هذه الأُمم مما لديها ، وأن يكون لديها دائمًا ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح ، والتَّصوُّر الصحيح ، والنظام الصحيح ، والخُلق الصحيح ، والمعرفة الصحيحة ، والعلم الصحيح .. هذا واجبها الذي يحتِّمه عليها مكانُها ، وتحتِّمه عليها غايةُ وجودها . واجبها أن تكون في الطليعة دائمًا ، وفي مركز القيادة دائمًا . ولهذا المركز تَبعاته .

وفي أول مقتضيات هذا المكان ، أن تقوم على صيانة الحياة من الشَّرِّ والفساد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحريض على الخير ، وصيانة المجتمع من عوامل الفساد ، بكل ما وراء هذه التكاليف من متاعب ، ومواجهة طواغيت الشَّرِّ في عنفوانهم وجبروتهم .

الدُّعاةُ إلى الخير الآمرون بالمعروف النّاهـون عن المنكر يُواجهون الشَّرَّ في عنفوانه ، ويواجهون طاغوت الشهوة في عَرَامتها وشِدَّتها ، ويواجهون هبوط الأرواح ، وكَلَلَ العزائم ، وثقلة المطامع ، وزادُهم هو الإيمان بالله ، وسَنَدُهم هو الله ، وكلّ زاد سوى زاد الإيمان يَنْفَد ، وكل عدّةٍ سوى عدة الإيمان تُفَلّ ، وكل سَنَدٍ غير سند الله ينهار .

إن الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر عبودية ودينونة لله في أبْهَى صُوَرِها .

إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكُن لله وحده ، تكُن لغير الله .. والعبودية لله وحده تُطلق الناس أحرارًا كرامًا شرفاء أعلياء .. والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الإنسان وكرامته وحريته وفضله .

إن الله سبحانه وَصَفَ الأُمة المسلمة بأن الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر صفتها ؛ ليدُلَّها على أنها لا تُوجد وجودًا حقيقيًا إلا أنْ تتوافر فيها هذه السمة الأساسية ، التي تُعرف بها في المجتمع الإنساني ، وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ بيّن أنهم كانوا به خير أُمَّةٍ أُخرجت للناس .

وقال تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾. [آل عمران : ١٠٤] .

وبيَّن الملك عز وجل أن الفَلَاح مَنُوطٌ بالقائمين به المباشرين ، وإنْ تقاعَدَ عنه الخلْق أجمعون ، عمَّ الحَرَج كافَّةَ القادرين عليه لا محالة .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صيانةٌ للأمة من أن يعبث بها كلُّ ذي هوًى ، وكلّ ذي شهوةٍ ، وكلّ ذي مصلحة ، يقول برأْيِهِ وتصوُّرِهِ ، زاعِمًا أن هذا هو الخير والمعروف والصواب .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليفٌ ليس بالهيِّن ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم ، وفيهم الجبار الغاشم ، وفيهم الحاكم المتسلِّط ، وفيهم الهابط الذي يكره الصعود ، وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد ، وفيهم المنحلّ الذي يكره الجِدّ ، وفيهم الظالم الذي يكره العدل ، وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة ، وفيهم وفيهم ، ممن ينكرون المعروف ويعرفون المنكر ، ولا تُفلح الأمة ، ولا تُفلح البشرية ، إلَّا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفًا ، والمنكر منكرًا .

والمعروف الأكبر هو الاعتراف بسلطان الله ومنهجه للحياة ، والعبودية له وحده .

والمنكر الأكبر هو الشرك ، ورفْض أُلوهيَّة الله ، ورفض شريعته للحياة .

حينئذٍ تتحوَّل الحياة إلى مستنقعٍ آسن : حُكْم بغير شرع الله ، اقتصاد يقوم على الرِّبا ، مجتمع قانونه لا يعتبر الزنا جريمةً إلَّا في حالة الإكراه ، ولا يُعاقب حتى في حالة الإكراه بشريعة الله ، وخمور يُباح تداولُها ، ولا يُعاقب شاربُها إلَّا على حالة السُّكر البيِّن في الطريق العام ، وحتى هذه لا يعاقب فيها بحدِّ الله ، وشذوذ .... وسبّ لدين الله .

عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض : الله الله »(١).

قال ابن كثير في أحد قولَيْه : معناه أن أحدًا لا يُنكر منكرًا ، ولا يزجُر أحدًا إذا رآه قد تعاطى منكرًا ، وعبّر عن ذلك بقوله : « حتى لا يقال : الله ، الله » .

وفي حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطتَهُ من أهل الأرض ، فيبقى فيها عَجَاجَة لا يعرفون معروفًا ، ولا يُنكرون منكرًا »(٢).

وكما جاء في حديثْ البخاري ، لَمَّا قيل للنبي ﷺ : أنهلِك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم ، إذا كثُر الخَبَثُ » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنها ستأتي على الناس سنون خدَّاعة ، يُصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذَّب فيها الصادق ، ويُؤتَمَن فيها الخائن ، ويُخَوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها ......

---

(١) رواه مسلم .

(٢) إسناده صحيح . رواه أحمد في مسنده (١١/١٨١ - ١٨٢) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .
شريطته : أي أهل الخير والدين ، والأشراط من الأضداد يقع على الأشراف والأراذل والعجاجة والعجاج : الأراذل ، ومن لا خير فيهم .

الرُّوَيْبِضَة »[١] . قيل : وما الرويبضة ؟ قال : « السَّفيه يتكلَّم في أمر العامَّة »[٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « من أشراط الساعة ... أن يعلو التُّحوتُ الوعول » أكذلك يا عبد الله بن مسعود سمعتَهُ من حِبِّي ؟ قال : نعم ورب الكعبة . قلنا : وما التُّحوت ؟ قال : « فسول الرجال ، وأهل البيوت الغامضة ، يُرفعون فوق صالحيهم ، والوُعُول أهل البيوت الصالحة »[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يُكفروه والله عليم بالمتقين** ﴾ [آل عمران : ١١٣ - ١١٥] .

« صورة وضيئة تُرفع أمام الراغبين في هذه الشهادة ، وفي هذا الوعد ، ليحقّقها في ذات نفسه كلُّ من يشتاق إلى نورها الوضيء في أفقها المنير »[٤] .

لم يشهد الله لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر ، حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقال تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون**

---

(١) الرُّوَيْبِضَة : تصغير الرَّابِضة ، وهو العاجز الذي رَبَضَ عن معالي الأمور ، وقعد عن طلبها ، والتّافه الخسيس الحقير .

(٢) إسناده جيد . رواه أحمد في مسنده ، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٥/٣٧ - ٣٨) : إسناده حسن ومتنه صحيح . وقال ابن كثير في « النهاية في الفتن والملاحم » : هذا إسناد جيد ، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

(٣) ذكره ابن حجر في الفتح (١٣/١٥) من رواية الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة ، وقال الهيثمي : حديث أبي هريرة وحده في الصحيح بعضه ، ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث وهو ثقة .

(٤) الظلال ١/٤٥٠ .

بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويُؤْتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ . [التوبة : ٧١] .

هذا نعت المؤمنين . والذي هَجَر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، خارِجٌ من هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية .

والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها ، إنما تكوْن في هذه الأرض ، رحمة الله في اطمئنان القلب ، وفي الاتِّصال بالله ، وفي الحماية من الفتن ، وصلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها .

والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر صفوة مختارة،باعوا نفوسهم لله .

﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون وعدًا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشِّر المؤمنين ﴾** [التوبة : ١١١ - ١١٢] .

بيعة رهيبة وأجر عظيم ، وصفات جليلة تتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة ، وحفظ لحدود الله يردُّ عنها العادِين والمُضيِّعين ، ويصونها من التَّهجُّم والانتهاك .

وقال تعالى : ﴿ **واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يَعْدُون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعًا ويوم لا يَسْبِتُون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يَفْسُقُون. وإذ قالت أُمَّةٌ منهم لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو مُعذِّبهم عذابًا شديدًا قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلَّهم يتقون. فلمَّا نسوا ما ذُكِّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون ﴾** [الأعراف : ١٦٣ - ١٦٥] .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب يُؤدَّى لله ؛ لنبلغ إلى الله عُذرنا ، ويعلم أن قدْ أدَّيْنا واجبنا ، ثم لعلَّ النُّصح يُؤثِّر في تلك القلوب العاصية ، فيثير فيها وجدان التقوى .

ولَمَّا لم يُجْدِ النصح ، ولم تنفع العظة ، وسَدِرَ السَّادِرُون في غَيِّهم ، حقَّت كلمة الله ، وتحقَّقتْ نُذُره ، فإذا الذين كانوا ينهون عن السوء في نَجْوَة السوء ، وإذا الأُمَّة العاصية يحلّ بها العذاب الشديد ، وأمّا الأُمة الثالثة ، فقد سكت عنها النَّصّ .. ربما تهوينًا لشأنها - وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب - فاستحقَّتِ الإهمال ، وإن لم تستحقّ العذاب .

قال تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾. [المائدة : ٧٨ - ٧٩] .

وطبيعة المجتمع الصالح لا تسمح للشر والمنكر أن يُصبِحا عُرفًا مصطلحًا عليه ، أو أن يُصبحا أمْرًا سهلًا يجترىء عليه كل من يهمُّ به .

والقائمون بأمر الله ودينه ، عليهم أن يؤدّوا أمانتهم التي استُحْفِظوا عليها ، فيقفوا في وجه الشر والفساد والطغيان والاعتداء ، لا يخافون لومة لائم ، سواءٌ جاء هذا الشر من الحكَّام المتسلطِّين بالحكم ، أو الأغنياء المتسلِّطين بالمال ، أو الأشرار المتسلِّطين بالأذى ، أو الجماهير المتسلّطة بالهوى ، فمنهج الله هو منهج الله ، والخارجون عليه علوا أم سفلوا سواءٌ .

والإسلام يشدِّد في الوفاء بهذه الأمانة ، فيجعل عقوبة الجماعة عامَّة بما يقع فيها من شرٍّ ، إذا هي سكتتْ عليه ، ويجعل الأمانة في عنق كلِّ فردٍ ، بعد أن يضعها في عنق الجماعة عامة .

وفي الآية غاية التَّشدُّد ، إذ علَّل استحقاقهم للعنةِ بتَرْكِهم النهي عن المنكر .

وقال تعالى : ﴿ **لولا ينهاهم الرَّبّانيُّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ [المائدة : ٦٣] .

وهذا صوت النذير لكل أهلِّ دين .

قال رسول الله ﷺ : « أكثر منافقي أُمَّتي قُرَّاؤها »[(١)].

وقال ﷺ : « غيرُ الدَّجَّال أخوَفُ على أُمّتي من الدَّجّال ، الأئمة المُضِلُّون »[(٢)].

قال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِين حُمِّلُوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا بئس مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [الجمعة : ٥] .

وهذه صورة زريّة بائسة ، ومَثَلٌ سيىء شائِنٌ لكل الذين حُمِّلوا أمانة العلم والعقيدة ، ثم لم يحملوها ويصدعوا بها .

يقول مصطفى صادق الرافعي في « وحي القلم » (٣/٥٨ - ٦٦) تحت عنوان « أمراء للبيع » : « إننا نفوس لا ألفاظ ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نَفْسِه ، لا بمعناها في نفْسِها ، فما يحسُن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يردُّه الشرعُ عليه ، ولو نافق الدينُ ، لبَطَل أن يكون دينًا ، لو نافق العالِم الدينيُّ ، لكان كلّ منافقٍ أشرف منه ، فلَطْخَةٌ في الثوب الأبيض ليست كلَطْخةٍ في الثوب الأسود ، والمنافق رجل مُغَطًى في حياته ، لكن عالم الدين

---

(١) صحيح . رواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وأحمد والطبراني في الكبير عن عقبة بن عامر ، والطبراني في الكبير وابن عدي عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٢٠٣) والسلسلة الصحيحة رقم (٧٥٠) .

(٢) صحيح . رواه أحمد عن أبي ذر ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٩٨٩) وصحيح الجامع رقم (٤١٦٥) .

رجل مكشوف في حياته لا مغطّى ، فهو للهداية لا للتلبيس ، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة ، وذاك يتصل بالدِّين من ناحية العمل ، فإذا نافق ، فقد كَذَبَ ، والعالم يتصل بالدين من ناحية العمل وناحية التَّبْيين ، فإذا نافق ، فقد كذبَ وغشَّ وخانَ .

وما معنى العلماء بالشرع إلَّا أنهم امتدادٌ لعمل النبوة في الناس دهرًا بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ، ويقومون بحجَّتها ، ويأخذون من أخلاقها كما تأخذ المرآة النُّور ، تحويه في نفسها ، وتُلقيه على غيرها ، فهي أداةٌ لإظهاره وإظهار جماله معًا .

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء ، وكلّهم آخِذٌ من نُورٍ واحدٍ لا يختلف ؟!

أولئك في أخلاقهم كاللَّوح من البَلُّور ، يُظهر النُّور نَفْسَه فيه ، ويُظهر حقيقته البَلُّورية ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللّوح من الخشب ، يُظهر النُّور حقيقتهُ الخشبيَّة لا غير !

وعالم السوء يفكِّر في كتب الشريعة وحدها ، فيسهُل عليه أن يتأوَّل ويحتال ، ويغيِّر ويُبدِّل ، ويُظهر ويُخفي ، ولكن العالم الحقّ يفكّر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة ، فهو معه في كل حالةٍ ؛ يسأله : ماذا تفعل ؟ وماذا تقول ؟

والرجل الدِّينيّ لا تتحوّل أخلاقُه ، ولا تتفاوت ، ولا يجيء كل يوم من حوادث اليوم ، فهي بأخلاقه كلها ، لا يكون مرّة ببعضها ومرة ببعضها ، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هذا ؛ الذي لو نطقتْ أفعالُه لقالت لله بلسانه : هم يُعطوني الدراهم والدنانير ، فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟!

إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحًا في أحد وجهيْه دون الآخر ،

أو في بعضه دون بعضٍ ، فهو زائفٌ كلّه .

وأهل الحُكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء ، يتعاملون مع قوَّة الهضم فيهم ، فينزلون بذلك منزلة البهائم ، تقدِّم أعمالها لتأخذ بطونها ، والبطن الآكِل في العالِم السّوء ، يأكُل دِين العالم فيما يأكله .

فإذا رأيت لعالم السوء وقارًا ، فهو البلادة ، أو سكوتًا عن الظلم ؛ فتلك رشوةٌ يأكلون بها .

وقال تعالى : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقيَّةٍ ينهون عن الفساد في الأرض إلَّا قليلًا ممَّن أنجينا منهم واتَّبع الذين ظلموا ما أُترفوا فيه وكانوا مجرمين** ﴾. [هود : ١١٦] .

سُنّة من سنن الله في الأمم ؛ الأمم التي يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، فإن سنة الله تحقّ عليها ؛ إمَّا باستئصال أو انحلال واختلال . فالآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر هم صمام الأمان للأمم والشعوب ، وهم يحُولون دون أُممهم وغضب الله ، واستحقاق النَّكال والضياع .

وقال تعالى : ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلّا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا** ﴾. [النساء : ١١٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ الآية [المائدة : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ **الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾. [الحج: ٤١].

لا يُبقون على منكرٍ وهم قادرون على تغييره ، ولا يقعدون عن معروفٍ وهم قادرون على تحقيقه .

قال رسول الله ﷺ : « إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وإن أهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة »[١] .

وقال رسول الله ﷺ : « أحبُّ الأعمال إلى الله إيمانٌ بالله ، ثم صلة الرَّحِم ، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأبغض الأعمال إلى الله الإشراك بالله ثم قطيعة الرحم »[٢] .

وقال ﷺ : « إن من أُمَّتي قومًا يُعطوْن مثل أجور أوَّلهم ، يُنكرون المنكر »[٣] .

وقال ﷺ : « إن الدَّالّ على الخير كفاعله »[٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « دليل الخير كفاعله »[٥] .

وقال ﷺ : « من استنّ خيرًا ، فاستُنّ به ، كان له أجره كاملًا ، ومن أُجور من استنَّ به ، ولا ينتقص من أُجورهم شيئًا ، ومن استنّ سُنَّةً سيئةً فاستنّ به ، فعليه وِزْرُه كـاملًا ، ومن أوزار الذين استنّوا به ، ولا ينتقص من أوزارهم شيئًا »[٦] .

وقال ﷺ : « إذا عُملت الخطيئة في الأرض ، كان من شهدها فكَرِهَها كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فَرَضِيَها كان كمن شهدها »[٧] .

---

(١) صحيح : رواه الطبراني في الكبير عن سلمان وقبيصة وابن عباس ، ورواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٠٣١) .

(٢) حسن : رواه أبو يعلى في مسنده عن رجل من خثعم ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٦) .

(٣) صحيح : رواه أحمد في مسنده عن رجل ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٢٢٢٤) .

(٤) صحيح: رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٠٥).

(٥) حسن : رواه ابن النجار عن علي ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٣٩٠).

(٦) صحيح : رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٠٤٠) .

(٧) حسن : رواه أبو داود عن العرس بن عميرة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٨٩) .

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رَأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ، أَوْشَكَ أن يعُمَّهم الله بعقابٍ منه »(١).

وقال ﷺ : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يُغيِّرونه ، أوشك أن يعُمَّهم الله بعقابه »(٢) .

وقال ﷺ : « ما من قومٍ يُعمل فيهم بالمعاصي ، هم أعزُّ وأكثر ممَّن يعمله ، ثم لم يُغيِّروه ، إلَّا عمَّهم الله تعالى منه بعقابٍ »(٣).

وقال ﷺ : « ما من نبيٍّ بعثه الله في أُمَّةٍ قبلي ، إلَّا كان له من أُمَّته حواريُّون وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوفٌ ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يُؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبَّة خردل »(٤).

وقال ﷺ : « فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره ، يُكفِّرها الصيام ، والصلاة ، والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »(٥).

وقال ﷺ : « من رأى منكم منكرًا فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »(٦) .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ، ولتنهونَّ عن

---

(١) صحيح : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٣) .

(٢) صحيح : رواه أحمد عن أبي بكر ، ورواه الطحاوي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٩٧٤) .

(٣) صحيح : رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن حبان عن جرير ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٥٧٤٩) .

(٤) رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود .

(٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه عن حذيفة .

(٦) رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن أبي سعيد .

المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده ، ثم لتدْعُنَّه فلا يستجيب لكم »[١].

وقال ﷺ : « والله لأن يُهدى بهداك واحدٌ ، خيرٌ لك من حمر النَّعَم »[٢].

وقال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ القائم على حدود الله ، والمُدهِن فيها ، كمثل قومٍ استهموا على سفينةٍ في البحر ، فأصاب بعضُهم أعلاها ، وأصاب بعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على مَنْ فوقهم ، فقال الذين في أعلاها : لا نَدَعكم تصعدون فتؤذونا ، فقالوا : لو أنّا خرقْنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤْذِ مَن فوقنا . فإن يتركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوْا جميعًا »[٣].

وهناك أمثلة وضيئة شفّافة في علوّ الهمَّة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ودفْعِ الشُّبَهِ الباطلة وتبيين الحق للناس ، لسادةٍ من سادات سلفنا ، تبقى مدى الأيام ناصعةً منيرة بيضاء ، تهدي الحائرين وتشدّ أزر العاملين .

الإمام القُدوة ، أبو الوليد عُبادَة بن الصَّامِت الخَزْرجي ، رضي الله عنه :

أحد النُّقباء ليلة العقبة ، ومن أعيان البدريين .

عن قبيصة بن ذؤيب ، أن عبادة أنكر على معاوية شيئًا ، فقال : لا أُساكنك بأرضٍ ، فرحل إلى المدينة ، قال له عمر : ما أقْدَمَك ؟ فأخبره بفعل معاوية ، فقال له : ارحل إلى مكانك ، فقبَّح الله أرضًا لستَ فيها وأمثالك ، فلا إمْرَةَ له عليك[٤].

---

(١) حسن : رواه أحمد والترمذي عن حذيفة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٧٠) .

(٢) صحيح : رواه أبو داود عن سهل بن سعد ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٠٩٤) .

(٣) رواه أحمد والبخاري والترمذي عن النعمان بن بشير .

(٤) رجاله ثقات . رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢/٧ .

عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله ﷺ[١] على السمع والطاعة في العسر واليسر ، والمَنْشَط والمَكْرَه ، وأن لا نُنازع الأمر أهله ، وأن نقول أو نقوم بالحق حيث كُنّا ، لا نخاف في الله لومة لائم . وثمة بيعة أخرى[٢] .

وعن عبيد بن رفاعة : أن عبادة بن الصامت مرّت عليه قِطَارَة[٣] وهو بالشام تحمل الخمر ، فقال : ما هذه ، أزيتٌ ؟ قيل : لا ، بل خمر يُباع لفلان . فأخذ شفرةً من السوق ، فقام إليها ، فلم يذرْه فيها راوية إلا بَقَرَها .. وأبو هريرة إذ ذاك بالشام - فأرسل فلانٌ إلى أبي هريرة ، فقال : ألا تُمسك عنّا أخاك عبادة ؛ أمّا بالغَدَوَات ، فيغدوا إلى السوق يُفسد على أهل الذِّمَّة متاجرهم ، وأما بالعَشِيِّ ، فيقعد في المسجد ليس له عَمَل إلا شتْم أعراضنا وعيْبنا ! قال : فأتاه أبو هريرة ، فقال : يا عبادة ، ما لك ولمعاوية ؟ ذَرْهُ وما حُمِّل . فقال : لم تكن معنا إذ بايعْنا على السمع والطاعة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وألا يأخذنا في الله لومة لائم . فسكت أبو هريرة ، وكتب فلانٌ إلى عثمان : إن عبادة قد أفْسَدَ عليَّ الشام[٤] .

أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه :

عن محمد بن كعب قال : كان أبو أيوب يُخالف مروان ، فقال : ما يحملك على هذا ؟ قال : إني رأيت رسول الله ﷺ يصلي الصلوات ، فإن وافقْتَهُ ، وافقْناك ، وإن خالفتَهُ خالفْناك[٥] .

---

(١) أي ليلة العقبة .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي .

(٣) القطارة والقطار : أن تشد الإبل على نَسَقٍ ، واحد خلف واحد .

(٤) السير ٢/٩ - ١٠ .

(٥) رجاله ثقات . أخرجه الطبراني (٣٩٩٣) .

وعن سالم بن عبد الله بن عمر قال : أعرستُ ، فدعا أبي الناس ، فيهم أبو أيوب ، وقد ستروا بيتي بجُنادِيّ أخضر ، فجاء أبو أيوب فطأطأ رأسَهُ ، فنظر فإذا البيت مُستَّر ، فقال : يا عبد الله ، تسترون الجُدُر ؟ فقال أبي : واستَحْيا : غلبنا النساءُ يا أبا أيوب . فقال : مَنْ خشيتُ أن تغلِبَه النساء ، فلم أخشَ أن يغلِبْنَك ، لا أدخُل لكم بيتًا ، ولا آكُلُ لكم طعامًا[١] .

أبو هريرة رضي الله عنه :

« قام أبو هريرة – رضي الله عنه – إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة ، فقال له : أتظلُّ عند ابنة فلان تُروِّحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد ، وأبناء المهاجرين والأنصار يُصْهَرون من الحَرِّ ! لقد هممتُ أن أفعل وأفعل . ثم قال : اسمعوا من أميركم »[٢] .

أبو ذَرّ رضي الله عنه :

عن الأوزاعي : حدثني أبو كثير ، عن أبيه ، قال : أتيتُ أبا ذرّ وهو جالس عند الجمرة الوُسطى ، وقد اجتمع الناسُ عليه يَستفتونَه ، فأتاه رجل ، فوقف عليه ، فقال : ألم يَنْهَك أميرُ المؤمنين عن الفُتيا ؟ فرفع رأسه ، ثم قال : أرقيب أنت عليَّ ! لو وضعْتُم الصَّمْصَامَة على هذه – وأشار بيده إلى قفاه – ثم ظننتُ أني أُنفِذُ كلمةً سمعتُها من رسول الله ﷺ قبل أن تُجيزوا عَليَّ لأنْفَذْتُها[٣] .

---

(١) إسناده قوي . أخرجه الطبراني (٣٨٥٣) والذهبي في السير ٢/٤٠٨ – ٤٠٩ .
والجنادي : هو جنس من الأنماط والثياب يستر بها الجدران .

(٢) العقد الفريد ١/٥٥ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/٦٤ .

صحابي يقتُل مَنْ سبَّتِ النبي ﷺ :

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن أعمى كانت له أُمّ وَلَدٍ تشتم النبي ﷺ وتقع فيه ، فينهاها فلا تنتهي ، ويزجُرها فلا تنزجر . قال : فلمّا كانت ذات ليلة ، جعلتْ تقع في النبي ﷺ وتشتمه ، فأخذ المِغْوَل[1] فوَضَعَه في بطنها ، واتّكَأَ عليها فقتلها ، فوقع بين رِجْلَيْها طفل ، فلطَّختْ ما هناك بالدم ، فلمَّا أصبح ، ذُكر لرسول الله ﷺ ، فجَمَعَ الناس فقال : « أنشد الله رجلًا فَعَلَ ما فعلَ ، لي عليه حقٌّ ، إلَّا قام » . فقام الأعمى يتخطَّى الناس وهو يتزلزل ، حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أنا صاحبها ، كانت تشتمك ، وتقع فيك ، فأنهاها فلا تنتهي ، وأزجرها فلا تنزجر ، ولي منها ابنان مثل اللُّؤْلُؤَتَيْن ، وكانت بي رفيقة ، فلمَّا كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك ، فأخذت المغول فوضعته في بطنها واتَّكأتُ عليها حتى قتلتها ، فقال النبي ﷺ : « ألا اشهدوا أن دَمَها هَدْرٌ »[2] .

وعند ابن سعد عن عبد الله بن معقل : قال نزل ابنُ أمِّ مكتوم على يهوديّة بالمدينة كانت تَرْفُقه وتؤذيه في النبي ﷺ ، فتناولها فضربها فقتلها ، فرُفع ذلك إلى النبي ﷺ فقال : أما والله إن كانت لترفقني ، ولكن آذتني في الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : « أبعدها فقد أبطلتُ دمها »[3].

ابن عباس رضي الله عنهما يُفحم الخوارج :

أثناء الحرب التي دارت بين علي ومعاوية ، خرج فريق كفّر عليًّا ومعاوية ، وجاءوا بأمور لم تكُن معروفةً من قبل ، وذهب ابن عباس إليهم ليوضِّح الحق ، ويكشف الشُّبهة .

---

(١) سيف قصير دقيق .

(٢) صحيح . أخرجه أبو داود والنسائي ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

(٣) صححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٥١) وضعّفه في ضعيف أبي داود (٩٣٧) .

قال ابن عباس : دخلت عليهم وهم قائلون ، فإذا هم مسهمة وجوههم من السَّهر ، قد أثَّر السجودُ في جباههم ، كأن أيديهم ثفن الإبل (ثفن الإبل : ما يقع على الأرض من الإبل كالرُّكْبتين) ، عليهم قُمُص مُرَحَّضَة (المرحَّضة : المغسولة) ، فقالوا : ما جاء بك يابن عباس ؟ وما هذه الحُلَّة التي عليك ؟ قال : قلت : ما تعيبون من ذلك ؟ فلقد رأيت رسول الله ﷺ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنيّة . قال : ثم قرأتُ هذه الآية : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ** ﴾. [الأعراف : ٣٢]، فقالوا : ما جاء بك ؟ قال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله ﷺ وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بتأويله ، جئت لأُبلّغكم عنهم ، وأُبلّغهم عنكم . فقال بعضهم : لا تُخاصموا قريشًا ، فإنَّ الله يقول : ﴿ **بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ** ﴾. [الزخرف : ٥٨] ، فقال بعضهم : بلى فلنكلّمه . قال : فكلَّمني منهم رجلان أو ثلاثة . قال : قلت : ماذا نقمتم عليه ؟ قالوا : ثلاثًا . فقلت : ما هنَّ ؟ قالوا : حكَّم الرجال في أمر الله ، وقال الله تعالى : ﴿ **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ﴾ [الأنعام : ٥٧]. قال : هذه واحدة ، وماذا أيضًا ؟ قالوا : فإنّه قاتل ، فلم يَسْبِ ، ولم يَغْنَم ، فلئن كانوا مؤمنين ، ما حلَّ قتالهم ، ولئن كانوا كافرين ، لقد حلّ قتالهم وسَبْيُهم . قال : قلت : وماذا أيضًا ؟ قالوا : ومحا نفسه من إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين . قال : قلت : أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقُض قولكم هذا ، أترجعون ؟ قالوا : وما لنا لا نرجع !! قال : قلت : أمّا قولكم : « حكَّم الرجال في أمر الله » ، فإنَّ الله قال في كتابه : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة : ٩٥] . وقال في المرأة وزوجها : ﴿ **وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ**

بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٣٥] ، فصير الله ذلك إلى حُكم الرجال ، فناشدتكم الله ، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين ، وفي إصلاح ذات بينهم أفضل ، أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم ، وفي بضع امرأة ؟ قالوا : بلى ، هذا أفضل . قال : أخرجتم من هذه ؟ قالوا : نعم . قال : وأمّا قولكم : « قاتل ولم يَسْبِ ، ولم يغنم » ، أَتَسْبُون أُمّكم عائشة ؟! فإن قلتم : نَسبيها ، فنستحلَّ ما نستحلّ من غيرها . فقد كفرتم ، وإن قلتم : ليست بأمّنا . فقد كفرتم ، فأنتم تردَّدُون بين ضلالتين ، أخرجتم من هذه ؟ قالوا : بلى . قال : وأمّا قولكم : « محا نفسه من إمرة المسلمين » ، فأنا آتيكم بمن ترضَوْن ، إنَّ نبي الله ﷺ يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو ، قال رسول الله ﷺ : « اكتب يا علي : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » ، فقال أبو سفيان وسهيل ابن عمرو : ما نعلم أنك رسول الله ، ولو نعلم أنك رسول الله ، ما قاتلناك . قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنك تعلم أني رسولك ، يا عليّ اكتب : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو »[(١)] .

لقد كان ابن عباس بحرًا زخّارًا ، كشفَ الشُّبهة ودَحَضَها ، وأتى بالأدلة البيِّنة من الكتاب والسنة ، ولقد أثمرت جهودُه ، فرجع منهم عن باطلهم ألفان .

لله در ابن عباس من إمام .. ورضي الله عن تُرْجُمان القرآن وحبره .

وما أحوجَ المسلمين اليوم إلى علماء أمثال ابن عباس ، كي يقارعوا أهل الباطل ، ويكشفوا عن شبهاتهم ، ويوضِّحوا الطريق الحق ، وفي الأمة بقيّة خير ، والله غالب على أمره ، ولا حَوْل ولا قوة إلّا بالله العظيم .

---

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ١٨٧/٢ .

أبو بكرة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ :

« قال عبد العزيز بن أبي بكرة أن أباه تزوّج امرأةً فماتت ، فحال إخوتها بينه وبين الصلاة عليها ، فقال : أنا أحقُّ بالصلاة عليها . قالوا : صدق صاحب رسول الله ﷺ . ثم إنه دخل القبر فدفعوه بعنفٍ ، فغُشي عليه ، فحُمِل إلى أهله ، فصرخ عليه عشرون من ابنٍ وبنتٍ ، وأنا أصغرهم ، فأفاق ، فقال : لا تصرخوا ، فوالله ما من نفسٍ تخرج أحبّ إليّ من نفسي . ففزع القوم ، وقالوا : لِمَ يا أبانا ؟ قال : إني أخشى أن أُدرك زمانًا لا أستطيع أن آمر بمعروفٍ ولا أنهى عن منكر ، وما خير يومئذٍ »[١] .

عامر بن عبد قيس راهب العرب :

مرّ - رحمه الله - في الرّحبة ، وإذا رجل يُظلَم ، فألقى رداءه ، وقال : لا أرى ذمَّة الله تخفر وأنا حيّ . فاستنقذه .

ويُروى أن سبب إبعاده إلى الشام ، كوْنه أنكر وخلَّص هذا الذِّمّي[٢] .

وبعث إليه أمير البصرة : ما يمنعك أن تأتي الأمراء ؟ قال : إن لدى أبوابكم طُلّاب الحاجات ، فادعوهم واقضوا حاجاتهم ، ودعوا من لا حاجة له إليكم .

أُوَيْس القَرَني :

قال أُويس القرني لرجلٍ من مراد : يا أخا مراد ، إن الموت وذكْره لم يَدَع لمؤمنٍ فرحًا ، وإن عِلْمه بحقوق الله لم يترك له في ماله فضةً ولا ذهبًا ، وإن قيامه لله بالحق لم يترك له صديقًا[٣] .

---

(١) معجم الطبراني ، وتاريخ ابن عساكر ٣١٩/١٧/ب ، ٣٢٠/أ ، والسير ٧/٣ .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/٤ .
(٣) حلية الأولياء ٨٣/٢ .

عبد الله بن مُحيريز بن جُنادة :

كان من العلماء العاملين ، ومن سادة التابعين .

قيل : إنه رأى على خالد بن يزيد بن معاوية جُبَّة خزٍّ ، فقال : أتلبس الخز ؟ قال : إنما ألبس لهؤلاء . وأشار إلى الخليفة ، فغضب وقال : ما ينبغي أن يعدل خوفك من الله بأحدٍ من خلْقه[١] .

رحم الله ابن محيريز الذي قال فيه الأوزاعي : من كان مقتديًا ، فليقتدِ بمثل ابن محيريز ، إن الله لم يكن ليُضلّ أمةً فيها ابن محيريز . وقال رجاء بن حَيْوَة : بقاء ابن محيريز ، أمان للناس.

أبو مسلم الخوْلاني ومعاوية :

« السلام عليك أيها الأجير » :

أتى أبو مسلم الخولاني إلى معاوية بن أبي سفيان ، فقام بين السِّماطيْن ، فقال : السلام عليك أيها الأجير . فقال مَن عنده : أبا مسلم ، السلام عليك أيها الأمير . فقال أبو مسلم : السلام عليك أيها الأجير . فقال معاوية : دعوا أبا مسلم ، فإنه أعلم بما يريد . فقال : اعلم أنه ليس من أجير استُرعي رعيَّة إلّا ربُّ الرعية سائلُه عنها ، فإن داوى مرضاها وجبر كسراها ، وهَنَأَ جرباها ، ورد أُولاها على أُخراها ، ووضعها في أُنُف من الكَلَأ وصفْو من الماء ؛ وفَّاه أجره ، وإن كان لم يُداو مرضاها ، ولم يَهْنأ جرباها ، ولم يجبُر كسراها ، ولم يرد أولاها على أخراها ، ولم يضعها في أنف من الكلأ وصفو من الماء ؛ لم يُؤته أجرها ، فانظر أين أنت يا معاوية من ذلك . فقال معاوية : يرحمك الله يا أبا مسلم[٢] .

---

(١) سير أعلام النبلاء .

(٢) المصباح المضيء لابن الجوزي .

رحم الله ريحانةَ الشام عبد الله بن ثُوَب أبا مسلم الخولاني .

وحبس معاوية بن أبي سفيان العطاء يومًا (العطاء : مرتبات ثابتة لجميع أفراد الشعب تُؤدَّى لهم من بيت المال) فلما صَعِد المنبر ، قام إليه أبو مسلم الخولاني وقال : لم حبستَ العطاء يا معاوية ؟ إنه ليس من كَدِّك ولا كد أبيك ولا كد أمك حتى تحبس . فغضب معاوية غضبًا شديدًا ونزل عن المنبر ، وقال للناس : مكانَكم . وغاب عن أعينهم ساعةً ، ثم عاد إليهم فقال : إنَّ أبا مسلم كلّمني بكلام أغضبني ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الغضب من الشيطان ، والشيطان خُلق من النار ، وإنما تُطفأ النار بالماء ، فإذا غضب أحدكم فليغتسل » ، وإني دخلت فاغتسلتُ ، وصدق أبو مسلم ، إنه ليس من كدي ولا كد أبي فهلُمُّوا إلى عطائكم .

فانظر رحمك الله إلى صدْع أبي مسلم بالحق ، وانظر إلى حلم خال المؤمنين معاوية رضي الله عنه وقبوله ، وأين نحن من غُبار قدم معاوية ... من أقزام نصبوا أنفسهم آلهة ، يقولون فلا يُردّ قولهم .

هُبَل هبل .. رمز السخافة والخيانة والعمالة والدَّجَلْ
هتَّافة التهريج ما ملّوا الثناء .. زعموا له ما ليس عند الأنبياءْ
مَلَكٌ تَجَلْبَبَ بالضياء وجاء من كَبِد السماءْ
هو عالم ومعلِّم .. هو عبقريّ مُلهَم
ومن الجهالة ما قَتَلْ
وسعى القطيعْ غباوة يا للبطلْ
وثنٌ يقود جموعهم يا للخجلْ

سيّد التابعين سعيد بن المسيّب :

قال رحمه الله : لا تملئوا أعيُنكم من أعوان الظلمة إلّا بالإنكار من

قلوبكم ، لكيلا تحبط أعمالكم[١] .

وقال عبد الله بن جعفر : استعمل ابنُ الزبير جابرَ بنَ الأسود بن عوف الزهري على المدينة ، فدعا الناس إلى البيعة لابن الزبير ، فقال سعيد بن المسيّب : لا ، حتى يجتمع الناس . فضربه ستين سوطًا ، فبلغ ذلك ابن الزبير ، فكتب إلى جابر يلومه ويقول : ما لنا ولسعيدٍ ، دَعْه[٢] .

لمّا ضرب سعيد بن المسيب ، صاح بجابر بن الأسود - وكان قد تزوج الخامسة قبل انقضاء عدَّة الرابعة -: والله ما ربَّعْت على كتاب الله ، وإنك قد تزوّجت الخامسة قبل انقضاء عدة الرابعة ، وما هي إلا ليالٍ ، فاصنع ما بدا لك ، فسوف يأتيك ما تكره . فما مكث إلا يسيرًا حتى قتل ابن الزبير .

وعقد عبد الملك لابنَيْه الوليد وسليمان بالعهد ، وكتب بالبيعة لهما إلى البلدة ، وعاملُه يومئذٍ على المدينة هشام بن إسماعيل المخزومي ، فدعا الناس إلى البيعة ، فبايعوا ، وأبى سعيد بن المسيب أن يبايع لهما وقال : لا أُبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار . فقيل : ادخل واخرج من الباب الآخر . قال : والله لا يقتدي بي أحد من الناس . فضربه هشام ستين سوطًا ، وطاف به في تبّان من شَعر وسجنوه ، فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع ويقول : سعيد ! كان والله أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه .

وقيل لسعيد بن المسيب : ما شأن الحجّاج لا يبعث إليك ، ولا يحرّكك ولا يُؤذيك ؟ قال : والله ما أدري ، إلا أنه دخل ذات يوم مع أبيه المسجد ، فصلى صلاةً لا يُتمّ ركوعها ولا سجودها ، فأخذت كفًّا من حَصًى فحَصَبْتُه بها . زعم أن الحجاج قال : ما زلت بعدُ أُحسن الصلاة .

(١) سير أعلام النبلاء ٢٣٢/٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ١٢٢/٧ ، ١٢٣ .

وفي الطبقات لابن سعد : (٥/٣٠) : عن ميمون بن مهران ، قال : قدم عبد الملك بن مروان المدينة ، فامتنعت من القائلة ، واستيقظ ، فقال لحاجبه : انظر ، هل في المسجد أحد من حُدَّاثنا . فخرج فإذا سعيد بن المسيب في حلقته ، فقام حيث ينظر إليه ، ثم غمزه وأشار بإصبعه ، ثم ولَّى ، فلم يتحرَّك سعيد ، فقال:لا أراه فَطِن . فجاء ودنا منه ، ثم غمزه وقال : ألم ترني أُشير إليك ؟ قال : وما حاجتك ؟ قال : أجب أمير المؤمنين . فقال : إليّ أرسلك ؟ قال : لا ، ولكن قال : انظر بعض حُدَّاثنا . فلم أرَ أحـدًا أهْيَأَ منك . قال : اذهب فأعلمه أني لست من حُدّاثه . فخـرج الحاجب وهو يقول : ما أرى هذا الشيخ إلا مجنونًا . وذهب فأخبـر عبد الملك ، فقال : ذاك سعيد بن المسيب ، فدَعْه .

فـلله درّه من إمام في عزَّة نفسه وصدْعه بالحق .

جهْبِذ العلماء الشهيد سعيد بن جبير :

عن عمرو بن ميمون عن أبيه ، قال : لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتاجٌ إلى عِلْمه .

« وقال سالم بن أبي حفصة : لما أُتي الحجاج بسعيد بن جبير قال : أنا سعيد بن جبير . قال : أنت شقيّ بن كسير ، لأقتُلَنَّك . قال : فإذن أنا كما سمّتني أُمّي . ثم قال : دعوني أصلي ركعتين . قال : وجِّهوه إلى قبلة النصارى . قال : ﴿ **فأينما تولّوا فثمَّ وجه الله** ﴾ [البقرة : ١١٥]، وقال : إني أستعيذ منك بما عاذت به مريم . قال : وما عاذت به ؟ قال : قالت ﴿ **إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا** ﴾ [مريم : ١٨] .

قال ابن عيينة : لم يقْتُل بعد سعيد إلّا رجلًا واحدًا »[1].

وجعل الحجاج يقول بعد قتله : ما لي ولسعيد بن جبير .

---

(١) الحلية ٤/٢٩٠ ، والسير ٤/٣٣٨ .

وعن خلف بن خليفة ، عن أبيه قال : شهدتُ مقتل سعيد بن جبير ، فلمّا بان رأسه قال : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله . ولم يُتمّ الثالثة .

قال سليمان التيمي : كان الشعبي يرى التَّقِيَّة ، وكان ابن جبير لا يرى التقية ؛ وكان الحجاج إذا أُتي بالرجل - يعني ممن قام عليه - قال له : أكفرتَ بخروجك عليّ ؟ فإن قال : نعم . خلّى سبيلَهُ . فقال لسعيد : أكفرت ؟ قال : لا . قال : اختر أي قتلةٍ أقتلك . قال : اختر أنت ، فإن القصاص أمامك[1] .

« وعن داود بن أبي هند قال : لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال : ما أراني إلا مقتولًا ، وسأُخبركم : إني كنت أنا وصاحبان لي دعوْنا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألنا الله الشهادةَ ، فكلا صاحبيَّ رُزِقها ، وأنا أنتظرها . قال : فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء »[2] .

قال الذهبي : « قلتُ : ولمّا علم من فضل الشهادة ، ثَبَت للقتل ولم يكترث ، ولا عامل عدوَّه بالتَّقِيَّة المباحة له ، رحمه الله »[2] .

قال ابن كثير : « عن سالم بن أبي حفصة قال : لما أُتي بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له : أنت الشقي بن كسير ؟ قال : لا ، إنما أنا سعيد ابن جبير . قال : لأقتلنك . قال : أنا إذن كما سمَّتني أُمي سعيدًا . قال : شقيتَ وشقيتْ أُمُّك . قال : الأمر ليس إليك . ثم قال : اضربوا عنقه . فقال : دعوني أصلي ركعتين ».

« وفي رواية أنه قال له : لأبدلنّك بالدنيا نارًا تلظَّى . قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتّخذتُك إلهًا . وفي رواية أنه لما أراد قتْله قال : وجّهوه إلى قِبلة النصارى . فقال : ﴿ **فأينما تُولّوا فثمَّ وجه الله** ﴾. فقال : اجلدوا

---

(١) السير ٣٣٨/٤ .

(٢) السير ٣٤٠/٤ .

به الأرض . فقال : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نُعيدكم ومنها نُخرجكم تارةً أُخرى** ﴾ [طه : ٥٥]. فقال : اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم . فقال : اللهم لا تُسلِّطه على أحدٍ بعدي .

وقد ذكر أبو نعيم هنا كلامًا كثيرًا في مقتل سعيد بن جبير ، أحسنهُ هذا والله أعلم » .

قال ابن كثير عن سعيد بن جبير : « قال له الحجاج : ويلك . فقال : الويل لمن زُحزح عن الجنة وأُدخل النار . فقال : اضربوا عنقه . فقال : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، أستحفظُك بها حتى ألقاك يوم القيامة ، فأنا خصمك عند الله . فذُبح من قفاه ، فبلغ ذلك الحسن فقال : اللهم يا قاصم الجبابرة ، اقصم الحجاج . فما بقي إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود ، فأنتن منه فمات . وقال سعيد للحجّاج لمّا أمر بقتله وضحك فقال له : ما أضحكك ؟ فقال : أضحك من غيراتك عليّ وحلم الله عنك » .

قال ابن كثير : « لم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يومًا ، وكان إذا نام يراه في المنام يأخذ بمجامع ثوبه ويقول : يا عدو الله ، فيم قتلتني ؟ فيقول الحجاج : ما لي ولسعيد بن جبير ، ما لي ولسعيد بن جبير ؟ »[(١)] .

قال رسول الله ﷺ : « أَحَبُّ الجهاد إلى الله كلمة حقٍّ تُقال لإمام جائر »[(٢)] .

وقال ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[(٣)] .

---

(١) البداية والنهاية ١٠٤/٩ ، ١٠٥ ، ١٠٣ .

(٢) حسن . رواه أحمد والطبراني في الكبير عن أبي أمامة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٦٨) .

(٣) صحيح . رواه ابن ماجه عن أبي سعيد ، وأحمد وابن ماجه والطبراني في =

وقال ﷺ : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر »[(١)].

وقال رسول الله ﷺ : « سيّد الشهداء حمزة ، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ ، فأمره ونهاه ، فقَتَلَه »[(٢)].

الأوزاعي ، عبد الرحمن بن عمرو شيخ الإسلام وعالم الشام رحمه الله :

قال الأوزاعي : رأيت كأن مَلَكيْن عرجا بِي ، وأوقفاني بين يدي ربِّ العزة ، فقال لي : أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف ؟ فقلت : بعزّتك أنت أعلم . قال : فهبطا بي حتى ردّاني إلى مكاني . رواها عبد الله بن أحمد ، عن الحسن بن عبد العزيز ، عنه[(٣)].

قال أحمد بن الغمر : لما جلَّت المحنة التي نزلت بالأوزاعي ، لمّا نزل عبد الله بن علي حماة ، بعثَ إليه فأُشخص . قال : فنزل على ثور بن يزيد الحمصي . قال الأوزاعي : فلم يزل ثور يتكلّم في القدر من بعد صلاة العشاء الآخرة إلى أن طلع الفجر وأنا ساكت ما أجابه بحرف ، فلمّا انفجر الفجر صليتُ ، ثم أتيت حماة ، فأُدخلت على عبد الله بن علي فقال : يا أوزاعي ،

= الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أُمامة ، وأحمد والنسائيُ والبيهقي في شعب الإيمان عن طارق بن شهاب ، وأبو داود والحميدي والحاكم عن أبي سعيد ، والروياني وابن عدي عن أبي أمامة ، والضياء عن طارق ، والعقيلي عن جابر ، والحاكم عن عمير بن قتادة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٠٠) .

(١) صحيح . رواه الترمذي عن أبي سعيد ، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٤٩١) وصحيح الجامع رقم (٢٢٠٩) .

(٢) حسن . رواه الحاكم والضياء عن جابر ، وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (٣٧٤) وصحيح الجامع رقم (٣٦٧٥) .

(٣) سير أعلام النبلاء ١١١٨/٧ .

أيعدُّ مقامنا هنا ومسيرنا رباطًا ؟ فقلت : جاءت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله » . قال : فنكت بالخيزرانة نكْتًا هو أشدّ من نكْت الأوَّل ، وجعل من حوله يعضُّون على أيديهم ، ثم رفع رأسه فقال : يا أوزاعي ، ما تقول في دماء بني أمية ؟ قلت : جاءت الآثار عن رسول الله ﷺ أنه « لا يحلّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث » الحديث . فنكتَ بالخَيْزُرَانَة نكتًا هو أشد من ذلك ، وأطرق مَلِيًّا ، ثم رفع رأسه ، فقال : يا أوزاعي ، ما تقول في أموال بني أمية ؟ فقلت : إنْ كانت لهم حرامًا فهي عليك حرام ، وإن كانت لهم حلالًا فما أحلَّها الله لك إلا بحقّها . قال : فنكت بالخيزرانة نكتًا هو أشد من ذلك ، وأطرق مليًّا ، ثم رفع رأسه فقال : يا أوزاعي ، هممتُ أن أُولِّيك القضاء . فقلت : أصلح الله الأمير ، وقد كان انقطاعي إلى سلفك ومن مضى من أهل بيتك ، وكانوا بحقي عارفين ، فإن رأى الأمير أن يستتمّ ما ابتدأه آباؤه فليفعل . قال : كأنك تريد الإذن ؟ فقلت : إن ورائي لحرمًا بهم حاجة إلى قيامي بهم وستْري لهم . قال : فذلك لك . قال : فخرجت ، فركبت دابّتي وانصرفت ، فلم أعلم حين وصلت إلى بيروت إلّا وعثمان على البريد . قال : قلت : بدا للرجل فيّ . فقال : إن الأمير غفل عن جائزتك ، وقد بعث لك بمائتي دينار . قال أحمد : قال ابن أبي العشرين : فلم يبرح الأوزاعي مكانه حتى فرّقها في الأيتام والأرامل والفقراء ، ثم وضع الرسائل في ردّ ما سمع من ثور بن يزيد في القدر[1].

ولقد وصفَ الأوزاعي مجلس عبد الله بن علي لحظةَ دخوله ، فقال رحمه الله : « دخلت أتخطَّى القتلى » .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ١٠/٤٨ب/ ٤٩أ ، وسير أعلام النبلاء ٧/١٢٢ - ١٢٣ .

وفي رواية : « سألني والمسودة قيامٌ على رؤوسنا بالكافر كوبات »[١] .

وفي رواية أخرى : « دخلتُ عليه فرأيت الرجال وقوفا بين يديه بالسيوف ، فلمّا رأيت ذلك لم أشكّ إلا وأنا مقتول »[٢] .

وفي رواية : « لما فرغ عبد الله بن علي - يعني عمّ السفّاح - من قتْل بني أمية ، بعث إليّ ، وكان قتل يومئذ نيِّفًا وسبعين منهم بالكافر كوبات ، فدخلت عليه »[٣].

وفي رواية : « فنكس رأسه ونكستُ ، فأطلت ، ثم قلت : البول . فأشار بيده : اذهب . فقمت ، فجعلت لا أخطو خطوة إلَّا قلت : إن رأسي يقع عندها » .

وفي رواية : « قلت : لأصدقنّه ، واستبسلتُ[٤] للموت » .

قال الذهبي في السير (١٢٥/٧) : « قد كان عبد الله بن علي ملكا جبّارًا ، سفّاكا للدماء ، صعب المِراس ، ومع هذا فالإمام الأوزاعي يصدعه بمُرِّ الحق كما ترى ، لا كخلْقٍ من علماء السوء ، الذين يُحَسِّنُون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعسْف ، ويقلبون لهم الباطل حقًّا - قاتلهم الله - أو يسكتون مع القُدْرة على بيان الحق » .

قال محمد بن عمر التنوخيّ : « كتب المنصور إلى الأوزاعي : أما بعد ... فقد جعل أمير المؤمنين في عنقك ، ما جعل اللَّهُ لرعيَّته قِبَلَك في عنقه ، فاكتب إليَّ بما رأيتَ فيه المصلحة مما أحببتَ .

---

(١) المقارع . مفردها : الكافركوب . أي : المقرعة .

(٢) من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي .

(٣) السير ١٢٣/٧ - ١٢٤ .

(٤) أبسل نفسه للموت ، واستبسل : إذا وطّن نفسه عليه ، واستيقن .

فكتب إليه : أمّا بعد .. فعليك بتقوى الله ، وتواضَعْ يرفعك الله يوم يضع المتكبِّرين في الأرض بغير الحق ، واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عِظمًا ، ولا طاعته إلا وجوبًا »[1] .

الأوزاعي والمنصور :

« خذ لنفسك الأمان من ربك » :

يقول الأوزاعي : بعث إليَّ المنصور أمير المؤمنين وأنا بساحل الشام ، فأتيتُه ، فلما وصلت إليه وسلّمت عليه بالخلافة ، ردَّ عليّ واستجلسني ثم قال : ما الذي أبطأك عنا يا أوزاعي ؟ قلت : وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟ قال : أريد الأخْذ عنكم والاقتباس منكم . قلت : فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئًا ثم لا تعمل به . فصاح بي الربيع وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثُوبة لا مجلس عقوبة . فطابتْ نفسي وانبسطتُ في الكلام فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله ﷺ : « أيّما عبد جاءتْه موعظةٌ من الله في دينه ، فإنها نعمة من الله سِيقت إليه ، فإن قَبِلَها بشكرٍ ، وإلا كانت حجَّة من الله عليه » يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله ﷺ : « أيّما والٍ بات غاشًّا لرعيَّته ، حرَّم الله عليه الجنة » . يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه في خدْشٍ خَدَشَهُ أعرابيًّا لم يتعمَّده ، فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، إن الله لم يبعثك جبّارًا متكبِّرًا . فدعا النبي ﷺ الأعرابي فقال : « اقتصّ مني » . فقال الأعرابي : قد أحللتُك بأبي أنت وأمي ، وما كنت لأفعل ذلك أبدًا ولو أتيتَ على نفسي . فدعا له بخيرٍ . يا أمير المؤمنين ، رضِ نفسك لنفسك ، وخُذ لها الأمان من ربّك . يا أمير المؤمنين ، إن المُلك لو بقي لمن قبلك ، لم يصل إليك ، وكذا لا يبقَى لك كما لَمْ يبقَ لغيرك . يا أمير المؤمنين ، جاء في

---

(١) السير ٧/١٢٥ .

تأويل هذه الآية عن النبي ﷺ - ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ [الكهف : ٤٩] قال : « الصغيرة التَّبسُّم ، والكبيرة الضَّحك » . فكيف بما عملته الأيدي وحصدتْه الألسن . يا أمير المؤمنين ، بلغني أن عمر بن الخطاب قال : لو ماتت سَخْلَةٌ على شاطىء الفرات ضيعةً ، لخشيت أن أُسال عنها . فكيف بمن حُرِم عدلك وهو على بساطك . يا أمير المؤمنين ، جاء في تأويل هذه الآية عن جدك ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى** ﴾ [ص : ٢٦]، قال : يا داود ، أقْعِد الخصمين بين يديك ، وإن كان لك في أحدهما هوًى فلا تَمَنَّيَنَّ في نفسك أن يكون الحق له ، فيفلُج على صاحبه ، فأمحوك من نبوّتي ثم لا تكون خليفتي . يا داود ، جعلتُ رسلي إلى عبادي رِعاء كرعاء الإبل ، لعِلْمهم بالرِّعِيَّة ورفقهم بالسياسة ، ليجبروا الكسير ويكْلَئُوا الهزيل على الكلأ والماء . يا أمير المؤمنين ، استعمل عمر بن الخطاب رجلًا من الأنصار على الصدقة ، فرآه بعد أيام مقيمًا ، فقال له : ما منعك من الخروج إلى عملك ، أما علمتَ أن لك مِثْل أجر المجاهد في سبيل الله ؟ قال : لا . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنه بلغني أن الرسول ﷺ قال : « ما من والٍ يلي شيئًا من أمور المسلمين ، إلا أُتي به يوم القيامة مغلولًا، يده إلى عنقه على جسرٍ في النار ، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضةً ، يزيل كلّ عضوٍ منه عن موضعه ، ثم يُعاد فيُحاسَب ، فإن كان محسنًا نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئًا انْخرقَ به ذلك الجسر ، فهوى به في النار سبعين خريفًا » . فقال له : ممن سمعتَ هذا ؟ فقال : من أبي ذر وسلمان . فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا : نعم ، سمعناه من رسول الله ﷺ . فقال عمر : واعمراه ، من يتولّاها بما فيها . فأخذ أبو جعفر المنديل فوضعه على وجهه ، ثم بكى وانْتَحَب حتى أبكاني .

يقول الأوزاعي : ثم قلت للمنصور : يا أمير المؤمنين ، قد سأل جدُّك العباسُ النبيَّ ﷺ إمارة مكة والطائف أو اليمن ، فقال له النبي ﷺ :

« يا عمّ ، نَفْسٌ تُنجيها ، خيرٌ من إمارة لا تُحصيها » . نصيحة منه لعمه وشفقةً منه عليه ، وأنه لا يُغني عنه من الله شيئًا ، إذ أوحى الله إليه : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فقال : « يا عباس ويا صفية ويا فاطمة ، إني لست أُغني عنكم من الله شيئًا ، لي عملي ولكم عملكم » .

وقد قال عمر بن الخطاب : لا يُقيم أمر الناس إلا حصيف العقل ، لا تأخذه في الله لومة لائم . وقال : السلطان أربعة أمراء ؛ فأمير ظَلَفَ نفسَه وعُمّالَه ، فذلك كالمجاهد في سبيل الله ، يد الله عليه باسِطة بالرحمة . وأمير ضعيف ظلفَ نفسَه وأَرْتَعَ عمالَه بضعفه ، فهو على شفا هلاك إلا أن يرحمه الله . وأمير ظلفَ عمالَه وأرتع نفسه ، فذلك الذي قال رسول الله ﷺ : « شرُّ الرِّعاة الحُطَمَة » ، فهو الهالك وحده . وأمير أرتع نَفسَه وعمالَه ، فهلكوا جميعًا . وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : أتيتُك حين أمر الله بمنافيخ النار ، فوُضِعتْ على النار تسعر ليوم القيامة . فقال له : « جبريل ، صف لي النار » . فقال : إن الله عز وجل أمر بها فأُوقِد عليها ألف عام حتى احمرَّت ، ثم أُوقد عليها ألف عام حتى اصفرَّت ، ثم أُوقد عليها ألف عام حتى اسودَّت ، فهي سوداء مظلمة لا يضيء لهبها ولا يَطفأ جمرها . والذي بعثك بالحق ، لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار أُظهر لأهل الأرض ، لماتوا جميعًا . ولو أن ذَنُوبًا من شرابها صُبّ في ماء الأرض جميعًا ، لقتل مَن ذاقه . ولو أن ذراعًا من السّلسلة التي ذكر الله ، وُضِع على جبال الأَرْض جميعًا ، لذابتْ وما استقرَّتْ ، ولو أَنَّ رجلًا أُدْخِل النَّارَ ، ثم أُخْرج منها لَمَاتَ أَهْلُ الأرض من نَتَن ريحهْ وتشويه خلقه . فبكى النبي ﷺ ، وبكى جبريل لبكائه وقال : أتبكي يا محمد وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبدًا شكورًا ! ولم بكيتَ يا جبريل وأنت الروح الأمين ؟ » فقال : أخاف أن أُبتلى بما ابتُلي به هاروت وماروت .

يا أمير المؤمنين ، إن أشدّ الشّدّة القيام لله بحقه ، وإن أكرمَ الكرم عند الله التقوى ، وإنه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزّه ، ومن طلبه بمعصية الله أذلّه الله ووضعه ، فهي نصيحتي ، والسلام عليك . ثم نهضتُ فقال : إلى أين ؟ قلت : إلى الولد والوطن بإذن أمير المؤمنين ، إن شاء الله . قال : فقد أذنتُ لك ، وشكرت لك نصيحتك ، وقبلتها بقبولها ، والله الموفِّق للخير والمعين عليه ، وبه أستعين وعليه أتوكّل ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها ، فإنك المقبول القول غير المتّهم في النصيحة . قلت : أفعل إن شاء الله . قال محمد بن مصعب : فأمر له بمالٍ يستعين به على خروجه ، فلم يقبله وقال : لنا في ذلك غِنى عنه ، وما كنت لأبيع نصيحتي بعرض الدنيا كلها. وعرف المنصور مذهبه ، فلم يَجِد عليه في ردِّه[١] .

« قال عبد الحميد بن حبيب : لما سوّينا على الأوزاعي تراب قبره ، قام والي الساحل عند رأسه فقال : رحمك الله أبا عمرو ، فوالله لقد كنت لك أشدّ تقية من الذي ولّاني ، فمن ظُلم بعدك فليصبر »[٢] .

الثوري ، إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قال يحيى بن يمان : سمعت سفيان يقول : إني لأرى المنكر ، فلا أتكلّم ، فأبول أكدمَ دمًا[٣] .

وقال يحيى بن يمان : لقيت سفيان عند بني فزارة فقال : تدري من أين جئت ؟ قلت : لا . قال : مررت بدار الصّيّدنانيين[٤] **فنهيتُهم عن بيع الدّاذي**

---

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين . تأليف:أحمد رضوان أبو الخير ، نقلًا عن « المصباح المضيء » لابن الجوزي .

(٢) الجرح والتعديل ١/٢٠٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء ٧/٢٥٩ .

(٤) الصّيّدنانِيُّون والصّيْدلانيّون لغتان بمعنى واحد . والداذي ، ويقال:الذآذي : حَبٌ يُوضع الرَّطل منه في فرقٍ من الماء فيكون مُسكرًا .

وإني لأرى الشيء يجب علي أن آمر فيه وأنهى ، فأبول دمًا[(١)].

رحمك الله يا سفيان ، أين من غبار نعلك علماء السوء وقُرّاء السوء ، الذين قال فيهم نبينا ﷺ : « أكثر منافقي أُمّتي قُرّاؤها »[(٢)]. وفيهم يقول القائل :

شيَّخَ الشيخَ بياضُ الشَّعْر ... وهْو للأطفالِ مِثْل السُّخْر

* * *

وَجْهه للحانِ ولَّى شيخُنا ... يا رفاقي بعدُ ما تدبيرُنا

أو كما يقول القائل :

يُرمرِمُ مِن فُتات الكُفرِ قُوتًا ... ويَلْعَق من كؤوسهم الثُّمالَةْ

يُقبِّلُ راحة الطّاغُوتِ حِينًا ... ويَلْثِم دونما خَجَلٍ نِعَالَهْ

قال عبد الرزاق : قدمنا مكة ، وقدمها الذي يُقال له : المهدي ، فحضرتُ الثوريَّ وقد خرج من عنده وهو مغضب ، فقال : أُدخلت آنفًا على ابن أبي جعفر فقال لي : يا أبا عبد الله ، طلبناك فأعجزتنا ، فأمكننا الله منك في أحبّ المواضع إليه ، فارفع إلينا حوائجك . قال : فقلت : وأي حاجةٍ تكون لي إليك ؟! وأولاد المهاجرين وأولاد الأنصار يموتون خلف بابك جوعًا . فقال لي أبو عبيد الله : يا أبا عبد الله . لا تُكثر الفضول واطلب حوائجك من أمير المؤمنين . فقلت : ما لي إليه من حاجة ، لقد أخبرني إسماعيل بن أبي خالد أن عمر بن الخطاب حجَّ فقال لصاحب نفقته : كم أنفقنا في حجِّنا هذا ؟ قال : اثنا عشر دينارًا . قال : أكْثَرْنا أكثرنا . أو قال :

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/١٢٤ .

(٢) صحيح : رواه أحمد والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو ، وأحمد والطبراني في الكبير ، عن عقبة بن عامر ، والطبراني وابن عدي ، عن عصمة بن مالك ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١٢٠٣) .

أسرفْنا أسرفنا . وعلى أَبْوابكم أمور لا تقوم لها الجبال الرّاسيات . قال : فقال لي ابن أبي جعفر : يا أبا عبد الله ، أفرأيت إن لم أقدر أن أُوصل إلى كل ذي حقٍّ حقه ، فما أصنع ؟ قال : تفرّ بدينك وتَلْزَم بيتك ، وتترك الأمر إلى من يقدر أن يُوصل إلى كل ذي حق حقه . قال : فسكت ، وقال لي أبو عبيد الله : أراك تكثر الفضول ، إن كانت لك حاجة فاطلبها ، وإلّا فانصرف . قال : فانصرفت[١].

وعن سفيان أنه أُخذ في المسجد الحرام ، فأُدخل على أبي هارون وهو في إزار ورداء والنعلان في يده . قال : فلمّا دخلتُ سلَّمت وقعدت ، فقال أبو عبيد الله : إني أظن أن له رأي سوء - يعني رأي الخوارج -. فقلت لأبي هارون : من هذا ؟ قال : هذا معاوية بن عُبيد الله . فقلت له : احذر هذا وأصحابه .

قال إبراهيم بن أعين البجلي : كنت مع سفيان الثوري والأوزاعي وإسحاق بن القاسم الأشعثيْ بمكة ، فدخل علينا عبد الصمد بن علي - وهو أمير مكة - عند المغرب وسفيان يتوضّأ وأنا أصبّ عليه ، وهو يتوضأ كأنه بطة وهو يقول : لا تنظروا إلّي فإني مُبتَلى . فيدخل البيت الذي فيه الأوزاعي فسلّم ، ثم أتى عبد الصمد بن علي فسمعت الأوزاعي يقول : مرحبًا مرحبًا . ثم جاء فسلّم على سفيان ، فقال له سفيان : من أنت ؟ فقال : أنا عبد الصمد . فقال له : كيف أنت ، اتق الله ، اتق الله ، إذا كَبَّرت فأسمعْ[٢].

---

(١) الجرح والتعديل ١/١١٠ - ١١١ .
(٢) الجرح والتعديل ١/١١١ - ١١٢ .

وقال أبو رجاء : طُلِب سفيان حتى أُدخل على أبي جعفر ، والمهدي قائم على رأسه ، فدخل سفيان وسلّم ، ثم دنا من البساط فنحّاه برِجله وجلس . قال : فقال المهدي : يا أبا عبد الله ، حدِّث أمير المؤمنين بشيءٍ ينفعه الله عز وجلّ به . قال : إن سألتمونا عن شيءٍ عِلْمُ ذلك عندنا ، أخبرناكم . فأعاد عليه ، فقال : إني لست بقاصٍّ . ثم قال : حدّثنا أيمن ابن نابل ، عن قدامة بن عبد الله قال : رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمار على ناقةٍ صَهْباء من بطن الوادي ، بلا ضَرْبٍ ولا طَرْد ، ولا إليك إليك . ثم قال المهدي : حدِّث أمير المؤمنين بشيء ينفعه الله عز وجلّ به . فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **ألم تَرَ كيف فعل ربُّك بعاد إرَمَ ذات العماد** ﴾ قرأ إلى قوله : ﴿ **إن ربك لبالمرصاد** ﴾ [الفجر : ٦ - ١٤] ، ثم قال بيده على خصره : بي بول بي بول . ثم قطعَ .

وقال عبد الصمد بن حسان : قال سفيان الثوري : إني أُدخلت على المهدي ، فقلتُ له : انظر إلى عمر بن الخطاب . فقال : عمر كان له أصحاب . فقلت : فعمر بن عبد العزيز ، فقد كان في فتنة وفي ما كان فيه ، فما تكلّم بشيءٍ إلا صار سُنَّة . فقال : إن لم أُطِق ؟ فقلت : اجلس في بيتك .

وقال عبد الرزاق : كان رجل صَحِب الثوري - يقال له : يوسف - إلى صنعاء ، فلم يشعر إذ جاءته الولاية من أبي جعفر ، فقال له الثوري : ويحك يا يوسف ، شحطوك بغير سكينٍ ، كيف إذا قيل يوم القيامة : أين أبو جعفر وأتباعه ؟ قُمتَ فيهم[1] .

وعن يحيى بن أبي غُنَيّة قال : ما رأيت رجلًا قطُّ أصْفَق وجهًا في الله

(١) الجرح والتعديل ١/١١٢ - ١١٤ .

عز وجلَّ من سفيان الثوري[١] .

قال الذهبي في السير (٧/٢٥٩) : « قال شجاع بن الوليد : كنت أحجّ مع سفيان ، فما يكاد لسانه يفتُر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ذاهبًا وراجعًا » .

عن مفضل بن مهلهل قال : حججت مع سفيان ، فوافَيْنا بمكة الأوزاعي ، فاجتمعنا في دارٍ ، وكان على الموسم عبد الصمد بن علي ، فدقَّ داقٌّ الباب ، قلنا : من ذا ؟ قال : الأمير . فقام الثوري ، فدخل المخرج ، وقام الأوزاعي فتلقّاه ، فقال له : من أنت أيها الشيخ ؟ قال : أنا الأوزاعي . قال : حيّاك الله بالسلام ، أما إن كتبك كانت تأتينا فنقضي حوائجك ، ما فعل سفيان ؟ قال : فقلت : دخل المخرج . قال : فدخل الأوزاعي في إثره ، فقال : إن هذا الرجل ما قصد إلا قصْدك . فخرج سفيان مقطّبًا ، فقال : سلام عليكم ، كيف أنتم ؟ فقال له عبد الصمد : أتيتُ أكتب عنك هذه المناسك . قال : أَوَلا أدلّك على ما هو أنفع لك منها ؟ قال : وما هو ؟ قال : تدع ما أنت فيه . قال : وكيف أصنع بأمير المؤمنين ؟ قال : إنْ أردتَ كفاك الله أبا جعفر . فقال له الأوزاعي : يا أبا عبد الله ، إن هؤلاء ليس يرضون منك إلا الإعظام لهم . فقال : يا أبا عمرو ، إنا لسنا نقدر أن نضربهم وإنما نؤدِّبهم بمثل هذا الذي ترى . قال مفضل : فالتفت إليّ الأوزاعي فقال لي : قم بنا من هاهنا ، فإني لا آمن أن يبعث هذا من يضعُ في رقابنا حبالًا ، وإن هذا لا يبالي[٢] .

وعن عطاء بن مسلم قال : لما استُخلف المهدي بعث إلى سفيان ، فلمّا دخل عليه ، خلعَ خاتمه ، فرمى به إليه ، وقال : يا أبا عبد الله ، هذا

(١) الجرح والتعديل ١/١٠٨ .
(٢) الحلية ٧/٣٩ .

خاتمي ، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة . فأخذ الخاتم بيده ، وقال : تأذن في الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قلت لعطاء : قال له : يا أمير المؤمنين ؟! قال : نعم . قال : أتكلَّم على أني آمن ؟ قال : نعم . قال : لا تبعث إليّ حتى آتيك ، ولا تُعطني حتى أسألك . قال : فغضب ، وهمّ به ، فقال له كاتبه : أليس قد أمَّنْتَه ؟ قال : بلى . فلما خرج ، حفّ به أصحابه ، فقالوا : ما منعك ؟ وقد أمرك أن تعمل في الأمة بالكتاب والسنة ؟! فاستصغر عقولهم ، وخرج هاربًا إلى البصرة[1] .

ويوضح هذا الموقف ما يأتي :

قال الثوري : قال لي المهدي : أبا عبد الله ، اصحبني حتى أسير فيكم سيرة العُمَرَيْن . قال : قلت : أمّا وهؤلاء جلساؤك ، فلا . قال : فإنك تكتب إلينا في حوائجك فنقضيها . قال سفيان : والله ما كتبت إليك كتابًا قطُّ .

قال يحيى بن يمان : وقال لي سفيان : إن اقتصرتَ على خبزك وبقلك ، لم يستعبِدْك هؤلاء[2] .

قال وزير المهدي أبو عبيد الله : ما أعلَقْنا مخالِيَنا هذه في عنق أحدٍ ، إلا قضم منها ، إلا الثوري .

وقال محمد بن عصام بن يزيد : سمعت أبي يقول : أرسلني سفيان إلى المهدي بكتابه ، بأن نأخذ له الأمان منه ، فدخلت على المهدي ، فقال لي فيما يقول : لو جاءنا أبو عبد الله ، لكنّا نتّزِر بإزارٍ ، ونرتدي بآخر ، ونضع أيدينا في يده ونخرج إلى السوق ، فنأمر بالمعروف وننهى عن المنكر . فلما رجعتُ قلتُ : لأي شيءٍ تهرب منه ، وهو يقول : لو جاء ، لخرجت

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٦٢/٧ .

(٢) الحلية ٣٧٨/٦ .

معه إلى السوق فأمرنا ونهينا ؟! فقال : يا ناعس ! حتى يعمل بما يعلم ، فإذا فَعَل ، لم يسعنا إلا أن نذهب ، فنعلِّمه ما لا يعلم . قال عصام : فكتب معي سفيان إلى المهدي ، وإلى وزيره أبي عبيد الله . قال : وأُدخلت عليه ، فجرى كلامي ، فقال : لو جاءنا أبو عبد الله ، لوضعْنا أيدينا في يده ، وارتدينا بُردًا ، واتّزرنا بآخر ، وخرجْنا إلى السوق ، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر ، فإذا توارى عنا مثل أبي عبد الله ، لقد جاءني قُرّاؤكم الذين هم قراؤكم ، فأمروني ونهوني ووعظوني ، وبكوا - والله - لي ، وتباكيتُ لهم ، ثم لم يفجأني من أحدهم إلا أن أخرج من كُمِّه رُقعةً : أن افعل بي كذا ، وافعل بي كذا . ففعلتُ ، ومقتُّهم . قال : وإنما كتب إليه ؛ لأنه طال مهربُه ، أن يعطيه الأمان ، فأتيتُه فقدمتُ عليه البصرة بالأمان ، ثم مرض ومات[1] .

فانظر - رحمك الله - إلى علوّ فهم الثوري للأمر بالمعروف ، وهربه بعيدًا عن مجالس السلاطين والخلفاء ، حتى يعملوا بما عندهم من علمٍ ، وإلّا فلا .

أخَذَه عبد الصمد فذهب به إلى المهدي وهو بمنى ، فلمّا رآه ، صاح بأعلى صوته : ما هذه الفساطيط ؟ ما هذه السُّرادِقات ؟![2] .

وعن سفيان قال : أُدخلت على المهدي بمنى ، فسلّمت عليه بالإمرة ، فقال : أيها الرجل ، طلبناك فأعجزْتَنا ، فالحمد لله الذي جاء بك ، فارفع إلينا حاجتك . فقلت : قد ملأتَ الأرض ظلمًا وجورًا ، فاتّقِ الله ، وليكن منك في ذلك عبرة . فطأطأ رأسه ، ثم قال : أرأيت إن لم أستطع دفْعه ؟ قال : تُخلِّيه وغيرك . فطأطأ رأسه ، ثم قال : ارفع إلينا حاجتك . قلت :

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/٢٦٣ - ٢٦٤ ، والحلية ٧/٤٣ ، ٤٤ ، والجرح والتعديل .
(٢) السير ٧/٢٦٥ .

أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسانٍ بالباب ، فاتق الله ، وأوْصِل إليهم حقوقهم . فطأطأ رأسه ، فقال أبو عبيد الله : أيها الرجل ، ارفع إلينا حاجتك . قلت : وما أرفع ؟! حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال : حجّ عمر ، فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهمًا . وإني أرى هاهنا أمورًا لا تُطيقها الجبال[(١)] .

رحم الله أمير المؤمنين وشيخ الإسلام وزين العُبّاد سفيان الثوري ... إن كان الرَّبّانيُّون يهابونه ، فكيف بملوك الدنيا .

قال ابن مهدي : « ما كنت أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياءً وهيبةً منه »[(٢)] .

« قال عبد الله بن المبارك : إن سفيان دخل على أبي جعفر ، فقال : حاجتك ؟ فقال : حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك »[(٣)] .... وأبو جعفر أبو جعفر في بطشه !! .

لله درُّك يا سفيان من إمام .

قال يحيى بن سعيد : أملى عليّ سفيان إلى المهدي : من سفيان بن سعيد إلى المهدي . فقلت له : لو بدأتَ به . قال : فأبى وقال : اكتب كما أقول . قال أبو الوليد[(٤)] : فاحتججتُ عليه بكتابه إلى عثمان بن زائدة ، وأنه بدأ بعثمان ، فقال : كان عثمان رجلًا صالحًا[(٥)] .

قال يوسف بن أسباط : قال رجلٌ لسفيان الثوري : إني جعلتُ في

---

(١) ٧/٢٦٤ - ٢٦٥ .
(٢) السير ٧/٢٦٧ .
(٣) الجرح والتعديل ١/١١٢ .
(٤) الراوي عن يحيى بن سعيد .
(٥) الجرح والتعديل ١/١١٠ .

جدة في بناء يبنونه - يعني للسلطان -. قال : ألستَ تَمَنَّى بقاءهم إلى أن يُعطوك أجرك ؟ قال أبو محمد : يعني كم ظلمًا يُجري الله على أيديهم إلى أن تقبض أجرك .

والله لكأن الأمر بالمعروف في زماننا يبكي على سفيان ... لكثرة علماء السوء الذين فرطحوا نعالهم أمام أبواب الحُكّام ، ودَبَّجوا لهم فتاوى ما أنزل الله بها من سلطان .

لقد مات سفيانٌ حميدًا مبرَّزًا ... على كلِّ قارٍ هجَّنَتْهُ المطامعُ
يَلُوذُ بأبواب الملوكِ بِنِيَّةٍ ... مُبَهْرجَةٍ والزِّيُّ فيه التَّواضُعُ
يُشمِّرُ عن ساقيْهِ والرأسُ فوقَهُ ... مُبَرّكَةٌ[1] فيها اللَّصِيصُ المُخادِعُ
جُعِلتمْ فداءً للذي صان دِينَهُ ... وقرَّبَهُ حتى حوتْهُ المضاجعُ
على غير ذنبٍ كان إلَّا تَنَزُّهًا ... عن النَّاس حتى أدركتْهُ المَصارِعُ
بعيدٌ عن ابواب الملوك مُجانِبًا ... وإن طلبُوه لم تَنَلْهُ الأصابعُ

قال سفيان : إذا أثنى على الرجل جيرانُه أجمعون ، فهو رجل سوءٍ ؛ لأنه ربما رآهم يعصون ، فلا يُنكر ، ويلقاهم بِبِشْرٍ[2] .

جاء في كتاب « الذهب المسبوك في وعظ الملوك » : قال القعقاع بن حكيم : كنت عند المهدي وأُتي بسفيان الثوري كبير علماء المسلمين في عصره ، فلما دخل عليه سلّم ، ولم يسلِّم بالخلافة ، والربيع قائمٌ على رأسه ، متَّكئًا على سيفه يرقب أمره ، فأقبل عليه المهدي بوجه طلْقٍ وقال له : يا سفيان تَفِرُّ هنا وهاهنا ، تظنّ أن لو أردناك بسوءٍ لم نقدر عليك ، فقد قدرنا عليك الآن ، أفما تخشى أن نحكُم فيك بهوانا ؟ قال سفيان : إن تحكم فيَّ يحكم فيك مَلِكٌ قادِر ، يفرق بين الحقّ والباطل . فقال الربيع له : يا أمير

---

(١) قلنسوة .

(٢) السير ٧/٢٧٨ .

المؤمنين ، أَلِهذا الجاهل أن يستقبلك بمثل هذا ؟ أتأذن لي أن أضرب عنقه . فقال له المهدي : اسكت ، ويلك ، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى لسعادتهم ، اكتبوا عهده على قضاء الكوفة ، على أن لا يُعترض عليه في حُكم . فكتب عهده ودفعه إليه ، فأخذه وخرج ، ورمى به في دجلة وغاب عن أنظار الناس ، فطُلب في كل بلدٍ فلم يُوجَد ، فعُيِّن مكانه شريك النَّخَعِي .

وجاء في كتاب « الإمامة والسياسة » : دخل سفيان الثوري على أبي جعفر المنصور فأمره ونهاه ، فقال له أبو جعفر : ها هنا يا أبا عبد الله ، إلَّي إلَّي ، ادنُ مني . فقال : إني لا أطأُ ما لا أملك ولا تملك . فقال أبو جعفر : يا غلام ، ادْرُج البساطَ ، وارفع الوطاءَ . فتقدَّم سفيان فصار بين يديه وقعد ، ليس بينه وبين الأرض شيء وهو يقول : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ [طه : ٥٥]. فدمعت عينا أبي جعفر . ثم تكلَّم سفيان دون أن يستأذن ، فوعظَ وأمرَ وَنهَى وذكَّر ، وأغلظ في قوله ، فقال له الحاجب : أيها الرجل أنت مقتول . فقال سفيان : وإن كنت مقتولًا فالساعة . فسأله أبو جعفر عن مسألةٍ فأجابه ، ثم قال سفيان : فما تقول أنت يا أمير المؤمنين فيما أنفقتَ من مال الله ومال أمة محمدٍ ﷺ بغير إذنهم ، قد قال عمر في حجّة حجها ، وقد أنفق ستة عشر دينارًا هو ومن معه : ما أرانا إلا وقد أجحفْنا ببيت المال . وعن ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : « ربَّ متخوضٍ في مال الله ومال رسول الله فيما شاءت نفسه ، له النار غدًا » . فقال أبو عبيدة الكاتبُ : أمير المؤمنين يُستقبل بمثل هذا ؟! فقال له سفيان : اسكت ، فإنما أهلكَ فرعونَ هامانُ وهامانَ فرعونُ . ثم خرج سفيان ، فقال أبو عبيدة الكاتب : ألا تأمر بقتْل هذا الرجل ، فوالله ما أعلم أحدًا أحقّ بالقتل منه ؟ فقال أبو جعفر : اسكت ، فوالله ما بقي على الأرض أحدٌ - اليومَ - يُستحيا منه غير هذا ومالك بن أنس .

وذكر الإمام ابن بلبان والغزالي وغيرهما ، أن الرشيد لما ولي الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا سفيان الثوري ، فإنه لم يأتِه ، وكان بينه وبينه صُحبة ، فشقّ عليه ذلك ، فكتب إليه الرشيد كتابًا يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هارون أمير المؤمنين ، إلى أخيه في الله سفيان ابن سعيد الثوري : أما بعد يا أخي ، فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين ، وقد آخيتُك في الله مؤاخاةً لم أصْرِم فيها حَبْلَك ، ولم أقطع منها ودَّك ، وإني مُنْطوٍ لك على أفضل المحبة وأتمّ الإرادة ، ولولا هذه القلادة التي قلّدنيها الله تعالى ، لأتيتُك ولو حبْوًا ؛ لما أجد لك في قلبي من المحبة ، وإنه لم يبق أحدٌ من إخواني وإخوانك إلا زارني وهنأني بما صرتُ إليه ، وقد فتحتُ بيوت الأموال ، وأعطيتهم المواهب السَّنيَّة ، ما فرحتْ به نفسي ، وقرّتْ به عيني ، وقد استبطأتُك ، وقد كتبت كتابًا مني إليك أُعْلِمك بالشوق الشديد إليك ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمن ومُواصلته ، فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعَجَلَ العَجلَ » . ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقاني ، وأمره بإيصاله إليه ، وأن يُحصي عليه بسمْعه وقلبه دقيق أمره وجليله ليُخبره . قال عباد : فانطلقتُ إلى الكوفة ، فوجدت سفيان في مسجده ، فلمَّا رآني على بُعدٍ قام ، وقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بك اللهم من طارقٍ يطرق إلَّا بخيرٍ . قال : فنزلت عن فرسي بباب المسجد ، فقام يصلي ولم يكن وقت صلاة ، فدخلت وسلّمت ، فما رفع أحدٌ من جلسائه رأسه . إلى أن قال : فبقيتُ واقفًا ، وما منهم أحد يعرض عليّ الجلوس ، وقد علتْني من هيبتهم الرِّعْدَة ، فرميتُ بالكتاب إليه ، فلمّا رأى الكتاب ، ارتعدَ وتباعدَ منه كأنه حيَّة عرضتْ له في محرابه ، فركع وسجد ، وسلّم ، وأدخل يده في كُمِّه وأخذه ، وقلّبه بيده ، ورماه إلى من كان خلفه ، وقال : ليقرأه بعضكم ، فإني أستغفر الله أن أمس شيئًا مسّه ظالم بيده ، قال عباد : فمد بعضهم

يده إليه ، وهو يرتعد كأنه حيَّة تنهشه ، ثم قرأه ، فجعل سفيان يتبسَّم تبسُّم المتعجِّب ، فلمّا فرغ من قراءته ، قال : اقلبوه ، واكتبوا للظالم على ظهره . فقيل له : يا أبا عبد الله ، إنه خليفة ، فلو كتبت إليه في بياضٍ نقيّ لكان أحسن . قال : اكتبوا للظالم في ظهر كتابه ، فإن اكتسبه من حلالٍ ، فسوف يُجزى به ، وإن كان اكتسبه من حرامٍ ، فسوف يَصْلَى به ، ولا يبقى شيء مسّه ظالم بيده عندنا فيُفسد علينا ديننا . فقيل له : ما نكتب إليه ؟ قال : اكتبوا له : « بسم الله الرحمن الرحيم . من العبد الميت سفيان ، إلى العبد المغرور بالآمال هارون ، الذي سُلب حلاوة الإيمان ولذّة قراءة القرآن . أما بعد : فإني كتبت إليك أُعلِمك أني قد صَرَمْتُ حبلَك ، وقطعت ودّك ، وإنك قد جعلتني شاهدًا عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمتَ على بيت مال المسلمين ، فأَنْفَقْتَه في غير حقه ، وأنفذته بغير حُكمه ، ولم ترضَ بما فعلته وأنت ناءٍ عني ، حتى كتبت إليّ تُشهدني على نفسك ، فأمّا أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك ، وستؤدَّى الشهادة غدًا بَيْن يدي الله الحكم العدل . يا هارون ، هجمتَ على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضي بفِعلك المؤلّفةُ قلوبهم ، والعاملون عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله ، وابن السبيل ؟! أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم ؛ يعني العاملين ؟ أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل ؟ أم رضي بذلك خلْق من رعيّتك ؟! فشدّ يا هارون مِئزرك ، وأعدّ للمسألة جوابًا ، وللبلاء جلبابًا ، واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل ، فاتّق الله في نفسك ، إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد ولذّة قراءة القرآن ومُجالسة الأخيار ، ورضيت لنفسك أن تكون ظالمًا وللظالمين إمامًا . يا هارون ، قعدت على السرير ، ولبست الحرير ، وأسْبَلْت ستورًا دون بابك ، وتشبَّهتَ بالحَجَبَة برب العالمين ، ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك ،

وتركتهم يظلمون الناس ولا يُنصفون ، ويشربون الخمر ويحدّون الشارب ، ويزنون ويحدّون الزاني ، ويسرقون ويقطعون السارق ، ويقتلون ويقتلون القاتِلَ ، أفلا كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس ؟! فكيف بك يا هارون غدًا ، إذا نادى المنادي من قِبَل الله : احشروا الظَّلَمَة وأعوانهم . فتقدَّمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك ، لا يفكّهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون حولك وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار ؟! وكأني بك - يا هارون - وقد أُخذتَ بِضيق الخِناق ، ووردت المساق ، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك ، وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء ، وظُلْمة فوق ظلمة ، فاتّق الله يا هارون في رعيَّتك ، واحفظ محمدًا ﷺ في أُمته ، واعلم أن هذا الأمر لم يَصِر إليك إلَّا وهو صائرٌ إلى غيرك ، وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحدًا بعد واحد ، فمنهم من تزوّد زادًا نَفَعَه ، ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، وإياك إياك أن تكتب إليّ بعد هذا ، فإني لا أُجيبك ، والسلام » . وألقى الكتاب منشورًا من غير طيٍّ ولا ختْم ، فأخذتهُ وأقبلت به إلى سوق الكوفة ، وقد وقعت الموعظة بقلبي ، فناديت : يا أهل الكوفة ، من يشتري رجلًا هرب إلى الله ؟ فأقبلوا إليّ بالدراهم والدنانير ، فقلت : لا حاجة لي بالمال ، ولكنْ جُبَّة صوف وعَباءَة قَطَوانِيّة ، فأُتيت بذلك ، فنزعت ما كان عليّ من الثياب التي كنت أُجالس بها أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود الفرس الذي كان معي ، إلى أن أتيت باب الرشيد حافيًا راجلًا ، فهزأ بي من كان على الباب ثم استُؤذن لي ، فلما رآني على تلك الحالة ، قام وقعد ، وجَعَل يلطِم رأسه ووجهه ، ويدعو بالويل والحَرَب ، ويقول : انتفع الرسول وخاب المُرسِل ، ما لي وللدنيا ، والمُلك يزول عني سريعًا . فألقيت الكتاب إليه مثل ما دُفع إليّ ، فأقبل يقرؤه ، ودموعه تنحدر على وجهه ، وهو يشهق ، فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين ، قد اجترأ عليك سفيان ، فلو وجّهتَ

إليه فأثقلتَهُ بالحديد ، وضيَّقتَ عليه السجن ، فجعلته عبرةً لغيره . فقال هارون : اتركوا سفيان وشأنه يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه ، والشقي والله - حقًّا - من جالستموه ، إن سفيان أُمَّةٌ وَحْدَه . ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه ويبكي ، حتى توفّي رحمه الله تعالى .

مالك بن أنس وصَدْعه عند السلطان بالحق :

قال مالك « قال لي أبو جعفر : قد أردت أن أجعل هذا العِلْم علمًا واحدًا ، فأكتب به إلى أمراء الأجناد وإلى القضاة ، فيعملون به ، فمن خالف ضربتُ عنقه . فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أو غير ذلك . قلت : إن النبي ﷺ كان في هذه الأُمة ، وكان يبعث السرايا ، وكان يخرج ، فلم يفتح من البلاد كثيرًا حتى قبضه الله عز وجل ، ثم قام أبو بكر رضي الله عنه بعده ، فلم يفتح من البلاد كثيرًا ، ثم قام عمر رضي الله عنه بعدهما ، ففُتحت البلاد على يديه ، فلم يجد بدًّا من أن يبعث أصحاب محمدٍ ﷺ معلِّمين ، فلم يزل يُؤخذ عنهم كابرًا عن كابرٍ إلى يومهم هذا ، فإن ذهبت تحوِّلهم إلى ما لا يعرفون ، رأوْا ذلك كفرًا ، ولكن أقِرّ أهل كل بلدةٍ على ما فيها من العلم ، وخُذ هذا العلم لنفسك . فقال لي : ما أبعدتَ القولَ ، اكتب هذا العلم لمحمد »[1] - يعني ابنه المهدي -. وكان أبو جعفر يريد حمْل الناس على الموطأ وقال لمالك : لعمري ، لو طاوعتني لأمرتُ بذلك .

وعن عبد المتعال بن صالح - من أصحاب مالكٍ - قال : قيل لمالك ابن أنس : إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون ؟ قال : يرحمك الله ، فأين التَّكلُّم بالحق .

« قال مالك بن أنس : وجَّه إليّ هارون الرشيد ، فسألني أن أحدِّثه فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن العلم يُؤتَى ولا يأتي . فصار إلى منزلي ،

---

(١) الجرح والتعديل ١/٢٩ .

فاستند معي في الجدار ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، إن من إجلال الله إجلال ذي الشّيْبة المسلم . قال : فقام فجلس بين يديّ . فقال لي بعد مدّةٍ : يا أبا عبد الله ، تواضعْنا لعلمك فانتفعْنا به ، وتواضع لنا علمُ سفيان ابن عيينة فلم ننتفع به . وكان سفيان يأتيهم إلى بيوتهم فيأخذ دراهم »[1] .

« عن مروان الطّاطَرِيّ ، أن أبا جعفر نهى مالكًا عن الحديث : « ليس على مُسْتَكْرَه طلاق »[2] ، ثم دسّ إليه من يسأله ، فحدّثه به على رؤوس الناس ، فضربه بالسياط .

قال الواقدي : لما دُعي مالك ، وشُووِر ، وسُمع منه ، وقُبل قوله حُسد ، وبغَوْه بكل شيءٍ ، فلمّا ولي جعفر بن سليمان المدينة ، سَعَوْا به إليه ، وكثروا عليه عنده ، وقالوا : لا يرى أيْمان بَيْعتكم هذه بشيء ، وهو يأخذ بحديثٍ رواه عن ثابت بن الأحنف في طلاق المكره : أنه لا يجوز عنده . قال: فغضب جعفر ، فدعا بمالك ، فاحتجّ عليه بما رُفِع إليه عنه ، فأمر بتجريده ، وضربه بالسياط ، وجُبذت يده حتى انخلعت من كتفه ، وارتكب منه أمر عظيم ، فوالله ما زال مالك بعد في رفعة وعلو »[3] .

مالك والرشيد :

« احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى » :

---

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

(٢) لم يرد في المرفوع ، وإنما هو موقوف على ابن عباس ، أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٤٨/٥: « ليس لمكْرَه ولا لمضطَهَد طلاق » . ورجاله ثقات ، وعلّقه البخاري ٣٤٣/٩ ولفظه : قال ابن عباس : طلاق السكران والمستكره ليس بجائز . وقال الحافظ : وصله ابن أبي شيبة وسعيد بن منصور .

(٣) سير أعلام النبلاء ٨٠/٨ - ٨١ .

كتب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله تعالى - رسالته الشهيرة إلى هارون الرشيد يعظه فيها وينصحه . وقد جاء في مقدمتها : أما بعد ، فإني كتبت إليك بكتاب لم آلُك فيه رُشدًا ، ولم أدّخِر فيه نُصحًا ، تحميدًا لله ، وأدبًا عن رسول الله ﷺ ، فتدبَّره بعقلك ، وردِّد فيه بصرك ، وأرْعِهِ سمْعك ، ثم اعقِله بقلبك ، وأحضر فهمك ولا تغيبن عنه ذِهْنك ، فإن فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب الله في الآخرة . اذكر نفسَك في غَمَرات الموت وكُربة ما هو نازل بك منه ، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه ثم الحساب ، ثم الخلود بعد الحساب . وأعِدّ لله عز وجل ما يسهِّل عليك أهوال تلك المشاهد وكربها ، فإنك لو رأيتَ سخط الله تعالى ، وما صار إليه الناس من ألوان العذاب ، وشدّة نقمته عليهم ، وسمعتَ زفيرهم في النار وشهيقهم ، مع كُلُوح وجوههم ، وطول غمّهم ، وتقلّبهم في دَرَكاتها على وجوههم ، ولا يسمعون ولا يبصرون ، ويدعون بالويل والثُّبور . وأعْظِم بحسرة إعراض الله عنهم وانقطاع رجائهم ، وإجابته إياهم بعد طول الغمّ بقوله : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تُكلّمون** ﴾ [المؤمنون : ١٠٨]. ثم قال له : لا تأمن على شيءٍ من أمرك مَنْ لا يخاف الله ، فإنه بلغني عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال : « شاور في أمرك الذين يخافون الله ». احذر بطانة السوء وأهل الرَّدَى على نفسك ، فإنه بلغني عن النبي ﷺ **أنه قال: «ما من نبيٍّ ولا خليفة إلا وله بطانتان: بطانة تأْمُره بالمعروف وتنهاه** عن المنكر ، وبطانة لا تَألُوه خَبالًا » . ثم قال : لا تَجُرّ ثيابك ، فإن الله لا يحب ذلك ، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « من جرَّ ثيابه خُيَلاء ، لم ينظُر الله إليه يوم القيامة » . أطع الله في معصية الناس ، ولا تُطع الناس في معصية الله ، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[1].

(١) الإسلام بين العلماء والحكام .

الإمام ابن أبي ذئب ، محمد بن عبد الرحمن :

شيخ الإسلام أبو الحارث القرشي .

قال الذهبي : « كان من أوعية العلم ، ثقة ، فاضلا ، قوّالًا بالحق ، مهيبًا .

قال أحمد بن حنبل : كان يُشبَّه بسعيد بن المسيّب . فقيل لأحمد : خلّف مثله ؟ قال : لا . ثم قال : كان أفضل من مالك ، إلا أن مالكًا أشد تَنْقِيةً للرجال منه . وقال أحمد : هو أوْرَع وأقْوَل بالحق من مالك »[1] .

قال الذهبي في ترجمته في السير (١٣٩/٧ - ١٤٨) : « دخل ابن أبي ذئب مرّة على والي المدينة ، فكلمه - وهو عبد الصمد بن علي عَمّ المنصور - فكلّمه في شيء ، فقال عبد الصمد بن علي : إني لأراك مرائيا . فأخذ عُودًا ، وقال : مَنْ أُرائي ؟! فوالله لَلنَّاسُ عندي أهْوَن من هذا .

وقال أبو العيناء : لمّا حج المهدي ، دخل مسجد رسول الله ﷺ ، فلم يبقَ أحدٌ إلّا قام ، إلّا ابن أبي ذئب ، فقال له المسيّب بن زهير : قم ، هذا أمير المؤمنين . فقال : إنما يقوم الناس لرب العالمين . فقال المهدي : دَعْهُ ، فلقد قامت كلُّ شعرةٍ في رأسي .

قال أبو العيناء : وقال ابن أبي ذئب للمنصور : قد هلك الناس ، فلو أعَنْتَهُم من الفَيْءِ . فقال : ويلك ، لولا ما سددتُ من الثُّغور ، لكنتَ تؤتى في منزلك فتُذبح . فقال ابن أبي ذئب : قد سدّ الثغور ، وأعطى الناس ، من هو خيرٌ منك : عمر رضي الله عنه . فنكس المنصورُ رأسه - والسيف بيد المسيب - ثم قال : هذا خير أهل الحجاز .

قال أحمد بن حنبل : ابن أبي ذئب ثقة . قد دخل على أبي جعفر

---

(١) السير ١٤٠/٧ ، ١٤٢ .

المنصور ، فلم يَهُلْه أن قال له الحق ، وقال : الظُّلم ببابك فاشٍ . وأبو جعفر أبو جعفر .

قال أبو نُعيم : حججتُ عامَ حجَّ أبو جعفر ومعه ابن أبي ذئب ومالك ابن أنس ، فدعا ابنَ أبي ذئب ، فأقعده معه على دار النَّدوة ، فقال له : ما تقول في الحسن بن زيد بن حسن ؟ - يعني أمير المدينة - فقال : إنه ليتحرى العدل . فقال له : ما تقول فيَّ ؟ مرتين فقال : ورَبِّ هذه البَنِيَّة إنك لجائر . قال : فأخذ الربيع الحاجِب بلحيته ، فقال له أبو جعفر : كُفَّ يا ابن اللَّخْناء[1]، ثم أمر لابن أبي ذئب بثلاثمائة دينار .

وقال أحمد بن حنبل : كان ابن أبي ذئب رجلًا صالحًا قوّالًا بالحق ، يُشَبَّهُ بسعيد بن المسيب » .

وقال حماد بن خالد : كان يُشَبَّه بابن المسيب ، وما كان هو ومالك في موضعٍ عند سلطانٍ ، إلّا تكلّم ابن أبي ذئب بالحق والأمر والنهي ، ومالك ساكت .

« إنك لا تعدل في الرعية » :

قال أبو جعفر المنصور لابن أبي ذئب : ما تقول في بني فلان ؟ قال : أشرار من أهل بيت أشرار ، قالوا : سَلْه يا أمير المؤمنين عن الحسن بن يزيد . وكان عامله على المدينة . قال : ما تقول في الحسن ؟ قال : يأخذ بالإِحْنَةِ ويقضي بالهوى . فقال الحسن : والله يا أمير المؤمنين ، لو سألتَهُ عن نفْسِك لرماك بداهيةٍ ونَعَتَك بشرٍّ . قال : ما تقول فِيَّ ؟ قال : أعفني يا أمير المؤمنين . قال : لا بدَّ أن تقول . قال : إنك لا تعدل في الرَّعِيَّة ولا تَقْسِمُ بالسَّوِيَّة . فتغيَّر وجه المنصور ، فقام إبراهيم بن محمد بن علي صاحب الموصل وقال : طهّرني بدمه يا أمير المؤمنين . قال له ابن أبي ذئب : اقعد

---

(١) اللخن : نتن الريح عامة ، وقبح ريح الفرج . ويقال : اللخناء : التي لم تختن .

يا بُنيَّ ، فليس في دم رجلٍ يشهد أن لا إله إلا الله طهورٌ»[١].

محمد بن أوس والرشيد :

كان هارون الرشيد يطوف بالبيت وهو متَّكيء على الفضل بن الربيع ورجل آخر ، فقام إليه محمد بن أوس الهلالي ، واعْتَرَضَهُ عند الحجر وقال : يا أمير المؤمنين ، استمعْ كلامي ، فإنك إن سمعتَهُ حقًّا قَبِلْتَه ، وإن سمعتَهُ باطلًا فلا تَعْبأ به ، فوقف فقال : يا من غُذِّي في نعيم ، وتردَّد في مُلك سليم ، إن خفتَ العذاب الأليم ، وأحببت البقاء في سرور مقيم ، فلا تسمعنّ ممن أنت بينهما ، ولا تغترنّ بشيءٍ من قولهما ، فإن الله عز وجل يخلو بك دونهما ، فالموت يصل إليك على الطَّوع والكُره منهما ، فلا تقتصدنّ بالذليل ، ولا تتكثّرنّ بالقليل ، ولا تعتصم بغير دافع ، ولا تطمئنّ إلى غير مانِع ، لا يمنع ولا يدفع عنك ، فإنك بعين الله ، وبحضرة بيته الذي جعلَهُ مَثابةً للزائر ، ومنحجرًا للفاجر . فانتفض الرشيد وجلس وخلا يديه عنهما ، وأومأ أن خُذوا الرجل ، فأُخِذ ، حتى قضى طوافَهُ وصلى ، ورجع إلى المنزل الذي به نزل ، ودعا بالرجل فأُدخل عليه شيخ جليل ، فقال : من أين أنت ؟ قال : من مكة . قال : ما اسمك ؟ قال : محمد . قال : ابن من ؟ قال : ابن أوس . قال : من قبيلتك ؟ قال : بنو هلال . قال : قبيلة مشهورة ، فما حملك أن كلَّمتني بالذي كلّمتني ؟ قال : إشفاقًا عليك ، إذا أنضيت الرّكاب ، وأتعبت الرجال ، وأنفقت الأموال في أمورٍ الله عز وجل أعْلَمُ بها ، حتى صرتَ إلى غاية الطالب ، وموضعٍ ترجو فيه الرحمة ، اعتمدت على ظالمَيْن طاغييْن ، قد جُبلا على الغَشْم ، ونُشِّئا على الظُّلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وما كنتُ مُتَّخِذ المُضِلِّين عَضُدًا** ﴾ [الكهف : ٥١]. فنكس الرشيد رأسَهُ ، وأقبل ينكُت في الأرض وعيناه تذرِفان ، ثم رفع رأسه فقال :

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

من أين مطعمُك ومشربك ؟ قال : مِن عند مَن يرزقك . قال : مَنْ ذاك ؟ قال : من عند مَنْ فَلَقَ الحَبَّ والنَّوى ، وأخرجَ الحبّ من الثَّرى ، من طعامٍ سهرتْ فيه العيون ، وتعبت في حصاده الأجساد ، وحرستْه الملائكة ، حتى أتاني به القَدَرُ بلا رنق ولا كدرٍ . قال : ألك عيال ؟ قال : نعم . قال . ومن هن ؟ قال : زوجة . قال أفلا أُجري عليك رزقًا تستعين به على بعض أمورك ، وتستغني به عن الطَّلَب من غيركْ ؟ قال : إني بالله عز وجل أغْنَى مني بما بذلتَ لي من ذلك . قال : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، أطِعِ الله عز وجل فيما تعلم من سِرِّك ، فإنك تصل إلى كل محبوبٍ ، وتنال به كل مطلوب . قال : ألك حاجة غيرها ؟ قال : أتُؤمنني من الموت ؟ قال : لا أقدر على ذلك . قال : فتُجيرني من النار ؟ قال : ليست في يدي . قال : فتدخلني الجنة ؟ قال : لست أملك . قال : أفتُحيي لي ميتًا ، حتى أسأله عما عاين ورأى ؟ قال : ذاك في قدرة غيري . قال : ما أنت إلا كسائر مَنْ ترى من رَعِيَّتك ، غير أن الله عز وجل فضَّلك عليهم بما أعطاك من هذا الحطام الزائل ، واسْتَخْلَفَك في الأرض لينظر كيف تعمل . وذكر كلامًا ثم خرج . فقال الرشيد : الحمد لله الذي جَعَل في رعيَّةٍ أنا عليها مِثْلَه ، ولا تزال هذه الأمة بخير ما لم يعدموا هذا ونظراءه وأشباهه .

الليث بن سعد وهارون الرشيد :

« ومن رأس العين يأتي الكدر » :

يقول عبد الله بن صالح : سمعت الليث بن سعد يقول : لما قدمت على هارون الرشيد قال لي : يا ليث ، ما صلاح بلدِكم ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، صلاح بلدنا بإجراء النيل ، وإصلاح أميرها ، ومن رأس العين يأتي الكدر ، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي فقال : صدقت يا أبا الحارث[1] .

---

(١) حلية الأولياء ، سير أعلام النبلاء .

العُمَرِيّ .. وما العمري !! :

الإمام القدوة الزاهد ، العابد ، أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن عبد العزيز ابن عبد الله بن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر بن الخطاب .

قال الذهبي : أمّار بالعُرْف ، لا تأخذه في الله لومة لائم . كان ينكر على مالك الإمام الاجتماع بالدولة .

قال الذهبي : كتب مالك إلى العُمريّ : إنك بَدَوت ، فلو كنتَ عند مسجد رسول الله ﷺ . فكتب : إني أكره مجاورة مثلك ، إن الله لم يَرَك متغير الوجه فيه ساعةً قَطُّ .

قال الذهبي : « هذا على سبيل المبالغة في الوعظ ، وإلا فمالك من أقْوَل العلماء بالحق ، ومن أشدهم تغيُّرًا في رؤية المنكر »[1] .

وعن علي بن حرب ، عن أبيه قال : مضى الرشيد على حمار ، ومعه غلام إلى العُمريّ ، فوعظه ، فبكى وغُشي عليه .

وقيل : إن العمري وعظ الرشيد مرة ، فكان يتلقى قوله بـ : نعمْ يا عمّ ، فلما ذهب ، أتْبَعَهُ الأمين والمأمون بكيسين فيهما ألفا دينار ، فردّها وقال : هو أعلم بمن يفرقها عليه . وأخذ دينارًا واحدًا ، وشخص عليه بغداد ، فكره مجيئه ، وجمع العُمَريين ، وقال : ما لي ولابن عمكم !! احتملتُه بالحجاز ، فأتى إلى دار ملكي ، يريد أن يُفسد عليَّ أوليائي ، ردُّوه عني . قالوا : لا يقبل منا . فكتب إلى الأمير موسى بن عيسى : أنْ ترفقْ به حتى تردّه .

قال مصعب الزُّبيري : ما أدركت بالمدينة رجلًا أهْيَب منه ، وقدم الكوفة ليُخَوِّف الرشيد بالله ، فرجف لمجيئه الدولة ، حتى لو كان نزل بهم من العدو مائة ألف ، ما زاد من هيبته ، فرُدّ من الكوفة ، ولم يصل إليه .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣٧٧/٨ - ٣٧٨ .

قال أبو المنذر إسماعيل بن عمر : سمعت أبا عبد الرحمن العمري الزاهد يقول : إن من غفلتك إعراضك عن الله ، بأن ترى ما يُسخطه فتتجاوزه ، ولا تأمر ولا تنهى ، خوفًا من المخلوق ، منْ تَرَكَ الأمر بالمعروف خوف المخلوقين ، نُزِعت منه الهيبة ، فلو أمر ولَدَهُ ، لاستخفّ به[١] .

قال محمد بن حرب المكي : قدم العمريُّ ، فاجتمعنا عليه ، فلمَّا نظر إلى القصور المُحدِقة بالكعبة صاح : يا أصحاب القصور المشيَّدة ، اذكروا ظُلْمة القبور الموحشة ، يا أهل التَّنعم والتَّلذُّذ ، اذكروا الدود والصديد ، وبلاء الأجسام في التراب . ثم غلبتْه عينُه ، فقام .

لما قدم أبو جعفر المنصور بغداد ، ورد عليه كتابٌ من عبيد الله العُمريّ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله أبي جعفر أمير المؤمنين ، من عبيد الله بن عمر . سلام الله عليك ورحمة الله التي اتَّسعتْ فوسعتْ مَنْ شاء . أما بعد ، فإني عهدتُك وأمْر نفسك لك مهمّ ، وقد أصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة ، أحمرها وأسودها وأبيضها ، وشريفها ووضيعها ، يجلس بين يديك العدو والصديق ، والشريف والوضيع ، ولكلٍّ حِصَّتُه من العدل ونصيبه من الحق ، فانظر كيف أنت عند الله يا أبا جعفر ، وإني أُحذِّرك يومًا تعنو فيه الوجوه والقلوب ، وتنقطع فيه الحُجّة لملك قد قهرهم وأذلهم بسلطانه ، والخلق داخرون يرجون رحمته ويخافون عذابه وعقابه ، وإنّا كنّا نتحدَّث أن أمر هذه الأمة سيرجع في آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السَّرِيرة ، وإني أعوذ بالله أن تُنزل كتابي سوء المنزل ، فإني إنما كتبت به نصيحة ، والسلام »[٢] .

---

(١) السير ٨/٣٧٥ .

(٢) الإمامة والسياسة .

العُمَرِيّ والرشيد :

« فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين » :

يقول سعيد بن سليمان : كنت بمكة وإلى جانبي عبد الله بن عبد العزيز العُمَرِيّ ، وهو من نسل عمر بن الخطاب ، وقد حجّ هارون الرشيد ، فقال له إنسان : يا أبا عبد الله ، ها هو ذا أمير المؤمنين يسعى ، قد أُخلي له المسعى . فقال العمريُّ للرجل : لا جزاك الله خيرًا ، كلَّفتني أمرًا كنت عنه غنيًّا . ثم تعلَّق نَعْلَيه وقام ، فتَبِعتُه ، فأقبَلَ هارون الرشيد من المروة يريد الصّفا ، فصاح به : يا هارون . فلمّا نظر إليه قال : لبيك يا عمّ . قال : ارْقَ الصفا . فلما رَقِيهُ قال : ارم نظرك إلى البيت . قال : قد فعلتُ . قال : كم هو ؟- أي عَدَدهم -. قال : ومن يُحصيهم . قال : فكم في الناس مِثْلهم ؟ قال خلْق لا يُحصيهم إلا الله . قال : اعْلَمْ أيها الرجل أن كل واحدٍ منهم يُسأل عن خاصَّةِ نفْسِه ، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلّهم ، فانظر كيف تكون . قال : فبكى هارون . قال العمريُّ : وأُخرى أقولها . قال : قل يا عمّ . قال : إن الرجل ليُسرف في ماله ، فيستحقّ الحَجْر عليه ، فكيف بمن أسْرَفَ في مال المسلمين ! ثم مضى وهارون يبكي[1] .

« ولا يَغُرَّنَّك المدَّاحُون الزُّور » :

كتب عبد الله العُمريُّ إلى هارون الرشيد مرة يقول له : « الحمد لله رب العالمين . والعاقبة للمتقين . الذي لا يخذُل مَن أطاعه ولا يكرم عليه أحدٌ عصاه . يا أمير المؤمنين ، هذا داعي القرآن يُسمِعك يقول : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ، فلا استقامة إلا على طريق نجاةٍ ، فاحفظ وصية الله وارْجُ ثوابَه وخفْ عقابَه ، وتواضع له بحُسن الاستماع من رَعِيَّتك ، واعلم أنك عبد قد بُليت برعاية أمم لا تُحصى ، قد خفرت أمانتها وتفرَّقت أهواؤها

(١) صفة الصفوة ٢/١٨٢ .

واختلفت في دينها . فأمرهم مَرِيج وبأسهم بينهم شديد . وَلِيتَهُمْ لإحدى اثنتين : إمّا أدّيتَ أمانَتَهُم وعَطَفْتَهم على ربِّهم ، فعلَّم الله بك جاهِلَهم وذكَّر بك ناسِيَهُم ، وجدَّد بك العدل وأحيا بك الحقَّ ، فكنت بذلك من المصلحين ، ونلتَ به من الله عز وجل ثواب القائمين بالقسط . وإمّا خفرتَ أمانة الله عز وجل ونقضتَ عهدَهُ ، وزدت المفسدين فسادًا ، وظلمتَ اليتيم حقَّه ، ومنعت المسكين نصيبَهُ ، وحكمتَ في عباد الله بغير ما أنزل الله ، استكبارًا وعُلُوًّا على المستضعفين ، والله لا يحب المستكبرين . والإمام العادل كالوالد في برِّه ، يسعى لهم صغارًا ويعلِّمهم كبارًا ، ويجمع لهم حياتَهُ ويدَّخِر لهم مماتَهُ ، ويُؤثرهم على نفسه . والإمام العادل خليفة المرسلين ، والقائم بين الله وبين عباده . لا تكُن كعبدٍ ائتمنَهُ سيِّدُه واستَحْفَظَه مالَهُ ، فعطَّل الضيعةَ وبذر المال ، وشرَّد العيال وأفْقَرَ أهله ، وأهلكَ مالَهُ . ولا يغُرّنّك المدّاحون الزُّور ، ولا تُوَلِّينّ قريبًا لقرابته ، ولا صديقًا لصداقته ، ولا تُحابِينّ في دين الله عز وجل فيُحاجّك الدِّين غدًا عند الله عز وجل . وإني لم آلُك نصيحةً وعليك شفقةً ، فأنزِلْ كلامي بمنزلة المداوي جرحَه ﴿ **واتقـوا يومًا ترجـعون فيه إلى الله** ﴾ » [البقرة : ٢٨١][١] .

كُرز بن وَبَرَة :

عن ابن فُضيل عن أبيه أو عن نفسه ، قال : كان كُرز إذا خرج أمر بالمعروف ، فيضربونه حتى يُغشى عليه[٢] .

لله درُّه من عابدٍ له الصِّيت البليغ في النُّسك والتَّعبُّد وله القدح المعلى في الأمر بالمعروف ، فما اجْمَلَه من تكامُل ... وهكذا فليكن العُبّاد .

---

(١) حلية الأولياء .

(٢) سير أعلام النبلاء ٦/٨٥ .

أبو حازم الأعرج ، سلمة بن دينار الأفزر[1] التَّمّار :

قال ابن خزيمة : لم يكن في زمانه مِثْله .

« اعرِض نَفْسَك على كتاب الله » :

لما حجّ سليمان بن عبد الملك ، ودخل المدينة زائرًا لقبر النبي ﷺ ، سأل عن أحدٍ ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ ، فقيل له : هاهنا رجل يُقال له : أبو حازم . فبعثَ إليه فجاءه ، فقال له : يا أبا حازم ، ما هذا الجفاء الذي ظهر منك ، وأنت تُوصف برؤية أصحاب رسول الله ﷺ مع فضلٍ ودِينٍ تُذكَر به ؟ فقال أبو حازم : وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : إنه أتاني وجوه أهل المدينة وعلماؤها وخيارها ، وأنت معدودٌ منهم ، ولم تأتني . فقال أبو حازم : أُعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها . قال سليمان : صدق الشيخ . فقال : يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟ فقال أبو حازم : لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب . قال سليمان : صدقت يا أبا حازم ، فكيف القدوم على الآخرة ؟ قال : نعم ، أمّا المحسن ، فإنه يقدم على الآخرة كالغائب يقدم على أهله من سفرٍ بعيد ، وأما قدوم المسيء ، فكالعبد الآبق . يؤخذ فيشد كتافه ، فيؤتى به إلى سيّده ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء عذّب . فبكى سليمان بكاء شديدًا ، وبكى من حوله . ثم قال : ليت شعري ، ما لنا عند الله يا أبا حازم ؟ فقال : اعرضْ نفسك على كتاب الله ، فإنك تعلم ما لك عند الله . قال سليمان : يا أبا حازم ، وأين أُصيب تلك المعرفة في كتاب الله تعالى ؟ قال : عند قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ** ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] قال سليمان : يا أبا حازم ، فأين رحمة الله ؟ قال :

(١) أي الأحدب الذي في ظهره عُجرة عظيمة .

قريبٍ من المحسنين . قال سليمان : يا أبا حازم ، مَنْ أعْقَلُ الناسِ ؟ قال أبو حازم : أعقل الناس من تعلَّم الحكمة والعلم ، وعلَّم بها الناس . قال سليمان : فمن أحمقُ الناس ؟ فقال : من حطَّ في هوى رجُلٍ هو ظالم ، فباع آخرتَهُ بدنيا غيرِه . قال سليمان : فما أسْمَعُ الدعاء ؟ قال أبو حازم : دعاء المُخبِتِين الخائفين . فقال سليمان : فما أزكى الصدقة عند الله تعالى ؟ قال : جهدُ المقلّ . قال : فما تقول فيما ابتُلينا به ؟- يعني الخلافة -. قال : أعفنا عن هذا وعن الكلام فيه ، أصلحك الله . قال سليمان : نصيحة تُلقيها . فقال : ما أقول في سلطانٍ استولى عنوةً بلا مشورةٍ من المؤمنين ، ولا اجتماع المسلمين ، فسُفكت فيه الدماء الحرام ، وقُطعت به الأرحام ، وعُطّلت به الحدود ، ونُكثت به العهود ، ثم لم يلبثوا أن ارتحلوا عنها ، فيا ليت شعري ما تقولون ؟ وماذا يُقال لكم ؟ فقال بعض جلسائه : بئْس ما قلتَ يا أعور ، أمير المؤمنين يُستقبَل بهذا . فقال أبو حازم : اسكُت يا كاذب ، فإنما أهْلَكَ فرعونَ هامانُ وهامانَ فرعونُ ، إن الله قد أخذ على العلماء لَيُبَيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه .

« كيف لنا أن نُصلح ما فَسَد » :

قال سليمان بن عبد الملك : يا أبا حازم كيف لنا أن نُصلح ما فسد منا ؟ فقال : المأخذ في ذلك قريبٌ يسيرٌ يا أمير المؤمنين . فاستوى سليمان جالسًا من اتّكائه ، فقال : كيف ذلك ؟ فقال : تأخذ المال من حِلّه وتضعه في أهله ، وكُفّ الأكُفّ عما نُهيت ، وتُمضيها فيما أُمرت به . قال سليمان : ومن يُطيق ذلك ؟ فقال أبو حازم : مَن هربَ من النار إلى الجنة ، ونبذَ سوء **العادة** إلى خير العبادة . فقال سليمان : اصْحَبْنا يا أبا حازم وتوجّه معنا ، تُصِب منا ونُصب منك . قال أبو حازم : أعوذ بالله من ذلك . قال سليمان : ولِمَ يا أبا حازم ؟ قال : أخاف أن أرْكَن إلى الذين ظلموا فيذيقني الله

ضِعفَ الحياة وضعف الممات . فقال سليمان : فتزورنا . قال أبو حازم : إنا عهدْنا الملوك يأتون العلماء ، ولم يكن العلماء يأتون الملوك ، فصار في ذلك صلاح الفريقين ، ثم صِرنا الآن في زمانٍ صار العلماء يأتون الملوك والملوك تقعد عن العلماء ، فصار في ذلك فساد الفريقين جميعًا . قال سليمان : فأوصِنا يا أبا حازم وأوجِز . قال : اتّقِ الله ألا يراك حيث نهاك ، ولا يَفقِدك من حيث أمَرَك . قال سليمان : ادْعُ لنا بخيرٍ . فقال أبو حازم : اللهم إن كان سليمان وَلِيّك ، فبشّره بخيرِ الدنيا والآخرة ، وإن كان عـدوّك ، فخُذ إلى الخيـر بناصيته . قال : زدني . قال : قد أوجزت ، فإن كنت وليه فاغتَبطْ ، وإن كنت عدوّه فاتّعِظ ، فإن رحمته في الدنيا مباحة ، ولا يكتبها في الآخرة إلا لمن اتَّقى في الدنيا ، فلا نفْع في قوسٍ ترمي بلا وترٍ. فقال سليمان : هات يا غلام ألف دينار. فأتاه بها ، فقال : خذها يا أبا حازم . فقال : لا حاجة لي بها ؛ لأني وغيري في هذا المال سواء ، فإن سوَّيتَ بيننا وعدلت ، أخذتُ ، وإلا فلا ؛ لأني أخاف أن يكون ثمنًا لما قلت من كلامي . قال سليمان : يا أبا حازم ، عظني وأوجز . قال : حلالُ الدنيا حسابٌ ، وحرامُها عقاب ، وإلى الله المآب ، فاتّق عذابك أو دع . قال : لقد أوجزتَ ، فأخبرني ما مالك ؟ قال : الثقة بعدله ، والتَّوكُّل على كرمه ، وحُسن الظَّنّ به ، والصبر إلى أجله ، واليأس مما في أيدي الناس قال : يا أبا حازم ، ارفع إلينا حوائجك . قال : رفعتها إلى من لا تُخذل دُونَه ، فما أعطاني منها قبلتُ ، وما أمسكَ عني رضيتُ ، مع أني نظرت فوجدت أمر الدنيا يؤول إلى شيئيْن : أحدهما لي ، والآخر لغيري ، فأمّا ما كان لي ، فلو احْتَلْتُ عليه بكل حيلةٍ ، ما وصلت إليه قبل أوانِه وحينِه الذي قدِّر لي ، وأمّا الذي لغيري ، فذلك لا أطمع فيه ، فكما منعني رزقَ غيري ، كذلك منعَ غيري رزقي ، فعلام أقتُل نفسي في الإقبال والإدبار . قال سليمان : لا بد أن ترفعَ إلينا حاجةً تأمُر

بقضائها . قال : فتقضيها . قال : نعم . قال : فلا تعطني شيئًا حتى أسألكه ، ولا تُرسل إليَّ حتى آتيك[١] .

« حلالها حساب » :

قدم هشام بن عبد الملك إلى المدينة ، فأرسل إلى أبي حازم ، فقال : يا أبا حازم ، عظني وأوجز . قال : اتّق الله وازْهد في الدنيا ؛ فإن حلالَها حساب ، وإن حرامَها عذاب . قال : لقد أوجزتَ يا أبا حازم ، ارفع حوائجك إلى أمير المؤمنين . فقال : أبو حازم : هيهات ، هيهات . قد رفعتُ حوائجي إلى من تُنجز الحوائج دُونَه ، فما أعطاني منها قنعتُ ، وما منعني منها رضيتُ . وقد نظرت في هذا الأمر ، فإذا هو نصفان : أحدهما لي والآخر لغيري .

وعن زيد بن أسلم قال : كنت مع أبي حازم في الصّائفة ، فأرسل عبد الرحمن بن خالد - وكان أصْلَح من بقي من أهل بيتنا - إلى أبي حازم أن ائتنا ، حتى نُسائلك وتُحدِّثنا . فقال أبو حازم : معاذ الله ، أدركتُ أهل العلم لا يأتون الدِّين إلى أهل الدنيا ، فلن أكون بأولَ مَن فعلَ ذلك ، فإن كان لك حاجة فأبلغنا . فتصدَّى له عبد الرحمن وسأل عنه ، وقال له : لقد ازددتَ علينا بهذا كرامةً[٢] .

الإفريقي والسفاح :

أمَّا الإفريقي فهو شيخ الإسلام ، الإمام القدوة ، أبو أيوب : عبد الرحمن ابن زياد بن أنعم ، قاضي إفريقية وعالمها .. كان الثوري يعظِّمه جدًّا .

قال إسماعيل بن عيّاش : ولي السفاح ، فظهر جوْرٌ بإفريقية ، فوفد

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

(٢) حلية الأولياء .

ابن أنعم على أبي جعفر مُشتكيًا . ثم قال : جئت لأُعلمك بالجور ببلدنا ، فإذا هو يخرج من دارك ؟! فغضب ، وهمَّ به . وقيل : قال له : كيف لي بأعوان ؟ قال : أفليس عمر بن عبد العزيز كان يقول : الوالي بمنزلة السوق ، يُجلب إليه ما ينفق فيه ؟ فأطرق طويلًا ، فأومأ إلى الربيع الحاجب بالخروج[1] .

الحَكَمُ بن عمرو الغِفاري ووالي العراق زياد بن أبيه :

« كتاب الله قبلَ كتابِ أمير المؤمنين » :

روى الأعمش عن الشّعبي ، أن زيادًا كتبَ إلى الحكم بن عمرو الغفاري ، وكان على الصائفة - أي الغُزاة في زمن الصيف - أنَّ أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء ، فلا تقسِم بين الناس ذهبًا ولا فضة ، واقسم ما سوى ذلك . فكتب إليه الحكمُ : إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، والله لو أن السموات والأرض كانتا رَتْقًا على عبدٍ فاتَّقى الله ، لجعلَ له منهما مخرجًا . ثم نادى في الناس ، وقسم فيهم ما اجتمع له من الفَيْءِ[2] .

أحَدُ الرَّعِيَّة وعبد الملك بن مَرْوان :

« والحاكم عليك عادل » :

قام عبد الملك بن مروان ليخطب في الناس ذات يوم - وكان بالكوفة - فقام إليه رجل اسمه سمعان بن معمر ، وقال له : مهلًا يا أمير المؤمنين ، اقض لصاحبي بحقه ، ثم اخطب . فقال عبد الملك : وما ذاك ؟ فقال سمعان : إن لهذا الرجل مظلمةً ، فجئتُك به لأنظُر عَدْلَك الذي كنت

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/٤١٢ .

(٢) العقد الفريد .

تَعِدُنا به قبل توليتك . فقال عبد الملك : ما بدا لك أن تقول . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهوْن ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتَّعِظون ، أفنقتدي بسيرتكم ، أم نُطيع أمْركم بألسنتكم ؟! فإن قلتم : أطيعوا أمرنا واقبلوا نُصحَنا . فكيف ينصح غيرَهُ من غشَّ نفسه ؟! وإن قلتم : خُذوا الحكمة حيث وجدتموها ، واقبلوا العظةَ ممَّن سمعتموها . فعلامَ قلَّدْناكم أزِمَّة أمورْنا ، وحكَّمناكم في دمائنا وأموالنا ؟! أوَ ما تعلمون أن منّا من هو أعْرَفُ منكم بصنوف اللغات ، وأبْلَغُ في العظات فإن كانت الإمامة قد عجزتْ عن إقامة العدل فينا ، فخلّوا سبيلها وأطلقوا عقالها ، أما والله لئن بقيتْ في أيديكم إلى بلوغ الغاية واستيفاء المرة ، لتَضمحِلّ حقوق الله وحقوق العباد . فقال عبد الملك : وكيف ذلك ؟ فقال سمعان : لأن من كلَّمكم في حقه زُجِر ، ومن سكتَ عن حقه قُهِر ، فلا قوله مسموع ، ولا ظُلْمُه مرفوع ، ولا من جار عليه مَرْدُوع ، وبينك وبين رعيتك مقام تزول منه الجبال ؛ حيث مُلكك هناك خامِل ، وعزُّك زائل ، وناصرك خاذِل ، والحاكم عليك عادل . فبكى عبد الملك ثم قال للرجل : ما حاجتك ؟ فقال : عاملك بالسماوةِ ظلمني ، وليلهُ لهو ، ونهاره لغو ، ونظره زهْو . فكتب إليه بإعطائه ظَلامته ، ثم عَزَلَه .

أحَدُ الرَّعِيّة وسليمان بن عبد الملك :

« اذكر يوم الأذان » :

دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالِسٌ للعامّة ، فقال : يا سليمان أُذكِّرك يوم الأذان . فارتاعَ لمَّا دعاه باسمه وقال : ويحك ، وما يوم الأذان ؟ قال : قول الله جل ذكره : ﴿ **فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُ بَيْنَهُمْ أن لَّعنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾. فبكى سليمان وقال له : ما حاجتك ؟ فقال : أنا جارٌ في ضيعتك الفُلانيّة ، وقد ظلمني وكيلك ، فأضرَّ ذلك بي وبعيالي .

قال : قد وهبتُ لك الضيعة . وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه[(١)].

أعرابي وسليمان بن عبد الملك :

« وأنت مسئول عما اجترحوا » :

قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن عبد الملك : إن بالباب - يا أمير المؤمنين - رجلًا له حزم ولسان . قال : أدخِله . فدخل ، فقال له سليمان : ممن الرجُل ؟ فقال : من عبد القيس بن أقصى ، وإني مكلِّمك يا أمير المؤمنين بكلامٍ ، فاحتملْه وإن كرهتَه ، فإن وراءه ما تحب إن قَبِلْتَه . فقال : قل يا أعرابي . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكْتَنَفَكَ رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ولم يخافوه فيك ، خربوا الآخرة وعمَّروا الدنيا ، فهم حربٌ للآخرة سِلْم للدنيا ، **فلا تأتَمِنْهم على ما ائتمنك الله عليه** ؛ فإنهم لن يألوا الأمانة إلا تضييعًا ، والأُمّة خسفًا ، وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عما اجترحتَ ، فلا تُصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس غبنًا بائِع آخرته بدنيا غيره . قال سليمان : أما أنت يا أخا ربيعة ، فقد سَلَلْتَ لسانك ، وهو أَقْطَعُ من سيفك . فقال : أجل يا أمير المؤمنين ، لك لا عليك . قال : فهل من حاجةٍ في ذات نفسك . قال : أمّا خاصّة دون عامّة فلا . ثم قام فخرج . فقال سليمان : لله درّه ما أشْرَف أصْلَه وأجْمَع قلبَه ، وأذْرَب لسانه وأصدق بيِّنته ، وأوْرَعَ نفسه ، هكذا فليكُن الشرف والعقل[(٢)].

سيِّد أهل اليمن وإمامهم طاووس :

طاووس وسليمان :

« أتعلمون مَن أبْغَضُ الخلْق إلى الله » :

روي أن رجاء بن حَيْوَة نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد

---

(١) كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقي .

(٢) المصباح المضيء لابن الجوزي ، وعيون الأخبار ، والعقد الفريد .

الحرام ، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو يؤمئذٍ بمكة قد حجّ ذلك العام ، فقال : إني رأيت طاووسًا بالمسجد ، فهل لك أن تُرسل إليه ؟ قال : فأرسل إليه سليمان . فلمّا أتاه قال رجاء لسليمان : يا أمير المؤمنين ، لا تسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يتكلّم . فلما قعد طاووس سكت طويلًا ثم قال : ما أول شيء خُلق ؟ فقلنا : لا ندري . فقال طاووس : أول شيء خُلِق القلمُ . ثم قال : أتدري ما أول شيء كُتب ؟ قلنا : لا . قال : فإن أول ما كُتب : بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ، ثم كُتب القدر خيُره وشره إلى يوم القيامة . ثم قال : أتعلمون من أبغض الخلق إلى الله ؟ قلنا : لا . فقال : إن أبغض الخلق إلى الله تعالى ، عبدٌ أشْرَكَهُ الله في سلطانه ، فعمل فيه بمعاصيه . ثم نهض . قال رجاء : فأظلم عليَّ البيت ، فما زلتُ خائفًا عليه حتى توارى ، فرأيتُ سليمان يحكُّ رأسه بيده ، حتى خشيت أن تُخرج أظافرُه لحمَ رأسه[1] .

طاووس وهشام بن عبد الملك :

« ما الذي حملك على ما صنعت » :

قدم هشام بن عبد الملك حاجًّا إلى مكة ، فلما دخلها قال : ائتوني برجل من الصحابة . فقيل : يا أميـر المؤمنين ، قد تفانوْا . قال : فمـن التابعين . فأتَـوْه بطاووس اليماني . فلما دخلَ عليه ، خلع نعليْه بحاشيـة بساطه ، ولم يسلِّم بإمرة أمير المؤمنين ، ولكن قال : السلام عليك . ولم يُكنِّه ، ولكن جلس بإزائه . قال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبًا شديدًا ، حتى همَّ بقتله . فقيل له : أنت في حرم الله ورسوله ، فلا يمكن ذلك . فقيل له : يا طاووس ، ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟! فازداد هشام غضبًا وقال : لقد خلعت نعليْك بحاشية

(١) كتاب الإمامة والسياسة .

بساطي ، ولم تقبِّل يدي ، ولم تسلّم بإمرة أمير المؤمنين ، ولم تُكنني ، وجلستَ بإزائي بغير إذني ، وقلتَ : كيف أنت يا هشام . فقال : أما ما خلعت نعليَّ بحاشية بساطك ، فإني أخلعها بين يدي رب العزة كلَّ يومٍ خمس مرات ، فلا يعاتبني ولا يغضب عليّ . وأما قولك : لم تقبِّل يدي ؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يقول : لا يحلّ لرجل أن يقبل يد أحدٍ ، إلّا امرأته من شهوةٍ أو ولده برحمةٍ . وأما قولك : لم تسلّم بإمرة أمير المؤمنين ؛ فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب . وأما قولك : جلست بإزائي ؛ فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول : إذا أردت أن تنظر إلى رجلٍ من أهل النار ، فانظر إلى رجلٍ جالس وحوله ناسٌ قيامٌ . وأما قولك : لم تُكنِّني . فإن الله عز وجل سمَّى أولياءه ، وقال : يا داود ، يا يحيى ، يا عيسى . وكنَّى أعداءه ، فقال : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ** ﴾ [المسد : ١] فقال هشام : عظني . فقال : سمعت أمير المؤمنين عليًّا كرم الله وجهه يقول : « إن في جهنم حيّاتٍ كأمثال القِلال ، وعقاربَ كالبغال ، تلدغ كلَّ أميرٍ لا يعدل في رعيته » . ثم قام وذهب[١] .

عمر بن عبد العزيز :

لله درّه من آمرٍ بالمعروف وناهٍ عن المنكر ووزير صدْقٍ قبل تولِّيه الخلافة .

« لا تُحْي ذكرى الحَجَّاج » :

لما أراد سليمان بن عبد الملك أن يستكتب كاتبَ الحجاج يزيد بن أسلم ، قال له عمر بن عبد العزيز : أسألك بالله - يا أمير المؤمنين - أن

---

(١) مواعظ ومواقف للعلماء والصالحين أمام الحكام والسلاطين ص٦٢ نقلًا من كتاب نزهة الناظرين لعبيد الضرير .

لا تُحي ذكرى الحجّاج باستكتابك إياه . فقال : يا أبا حفص ، إني لم أجد عنده خيانة دينارٍ ولا درهمٍ . قال عمر : أنا أوجدك من هو أعفّ منه في الدينار والدرهم . قال : ومن هو ؟ قال : إبليس ، ما مسَّ دينارًا ولا درهمًا ، وقد أهلك هذا الخلْق(١) .

وحجّ سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز ، فلما أشرفا على قبّة عسفان ، نظر سليمان إلى السُّرادقات قد ضُربت ، فقال له : يا عمر ، كيف ترى ؟ قال : أرى دنيا عريضة يأكل بعضها بعضًا ، وأنت المسئول عنها والمأخوذ بها . فبينما هما كذلك ، إذ طار غراب من سرادقات سليمان في منقاره كسرة ، فصاح ، فقال سليمان : ما يقول هذا الغراب ؟ قال عمر : ما أدري ما يقول ، ولكن إن شئتَ أخبرتك بعلمٍ . قال : أخبرني . قال : هذا غراب طار من سرادقاتك ، في منقاره كسرة أنت بها مأخوذ ، وعنها مسئول ، من أين دخلت ومن أين خرجت . قال : إنك لتُخبرنا بالعجائب . قال : أفلا أُخبرك بأعجب من هذا ؟ قال : بلى . قال : من عرف الله ، كيف عصاه ؟! ومن عرف الشيطان ، كيف أطاعه ؟! ومن أيقن بالموت ، كيف يَهنيه العيش ؟! قال : لقد غششتَ علينا ما نحن فيه . ثم ضرب فرسه وسار .

« فكيف سلطانُه عند غَضَبِه » :

وحجّ سليمان بن عبد الملك في خلافته ومعه عمر بن عبد العزيز ، فلما أشرف من ثنيّة قديد رأى سواد عسكره ، فأعجبه ذلك فقال : يا أبا حفص ، ما ترى ما هناك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أرى ذئابًا يأكل بعضها بعضًا ، أنت المبتلَى بها والمسئول عنها . فبينما هو على ذلك برقت برقة فصعقت صاعقة ، فاعتنق سليمان دابَّته ، فلما تجلّى ذلك قال : يا أبا حفص ،

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

ما ترى هذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، هذا سلطان الله عز وجل عند رحمته ، فكيف سلطانه عند غضبه . ثم قال : العَجَب والله ممن عرف الله عز وجل فعصاه ، وعرف الشيطان فأطاعه ، ورأى الدنيا وتقلُّبها بأهلها فاطمأنّ إليها .

زياد[1] العَبْدِي :

« ما أحد من أُمّة محمد إلا وهو خَصْم لك » :

قدم زياد العبدي على عمر ، فقال له عمر : يا زياد ، ألا ترى ما ابتُلِيتُ به من أمر أمة محمد ﷺ . قال : يا أمير المؤمنين ، لا تُعمِل نفسك في الوصف ، وأعمِل نفسك في المخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرةٍ منك نطقتْ ، ما بلغت كُنه ما أنت فيه . ثم قال زياد : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن رجل له خصم ألَدّ ، ما حاله ؟ قال : سيىء الحال . قال : فإن كانا خصميْن الدَّيْن ؟ قال : ذاك أسوأ لحاله . قال : فإن كانوا ثلاثة ؟ قال : ذلك حين لا يَهْنَؤُه عيشٌ . قال : فوالله يا أمير المؤمنين ، ما أحد من أمة محمد إلا وهو خَصم لك . قال : فبكى عمر حتى تمنَّيت أن لا أكون قلت له . وقال له عمر مرَّةً : يا زياد ، إني أخاف أن أكون قد هلكت ؟ قال : أنا أخاف عليك أن لا تكون تخاف .

أبو قِلَابَة :

حكي عن أبي قلابة ، أنه دخل على عمر بن عبد العزيز فقال له : يا أبا قلابة ، عظني . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لم يبق من لدن آدم إلى يومنا هذا خليفة غيرك . قال له : زدني . قال : وأنت أول خليفة يموت . قال : زدني . قال : إذا كان الله معك فمن تخاف ! وإذا كان عليك فمن

(١) زياد العبدي : هو زياد بن أبي زياد ميسرة مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المتوفّى سنة ١٣٥هـ .

ترجو ! قال : حسبي[١] .

عطاء بن أبي رَباح وهشام :

دخل عطاء بن أبي رباح على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام : مرحبًا مرحبًا ، هاهنا هاهنا . فرفعه حتى مسَّت ركبته ركبته ، وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا ، فقال هشام : ما حاجتك يا أبا محمد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أهل الحرمين ، أهل الله وجيران رسول الله ﷺ ، تقسم فيهم أعطياتهم وأرزاقهم . قال : نعم ، يا غلام اكتب لأهل المدينة وأهل مكة بعطاءيْن وأرزاقهم لسنة . ثم قال : هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب ومادة الإسلام ، تردّ فيهم فضول صدقاتهم . قال : نعم ، اكتب يا غلام بأن تردّ فيهم صدقاتهم ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الثغور يرمون من وراء بَيْضَتكم ، ويقاتلون عدوكم ، قد أجريت لهم أرزاقًا تردّها عليهم ، فإنهم إن هلكوا غُزيتم . قال : نعم ، اكتب يا غلام ، تُحمل أرزاقهم إليهم ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل ذِمَّتكم ، لا يكلَّفون إلا ما يطيقون ، فإنما يجيئون معونةً لكم على عدوكم . قال : نعم ، اكتب يا غلام ، أن لا يُحمَّلوا ما لا يطيقون ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، اتق الله في نفسك ، فإنك خُلقت وحدك وتموت وحدك ، وتحشر وحدك وتحاسب وحدك ، لا والله ما معك ممن ترى أحد . فأكبَّ هشام يبكي . وقام عطاء ، فلما كان عند الباب ، وإذا رجل قد تَبِعه بكيسٍ ما ندري فيه دراهم أو دنانير ، وقال : إن أمير المؤمنين أمر لك بهذا . فقال : ما أصنع

---

(١) فضائح الباطنية للغزالي .

بهذا ﴿ ومَا أسْألُكُـمْ عَلَيْه مِنْ أجْرٍ إنْ أجْريَ إلَّا عَلَى رَبِّ العَالمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٩] ثم خرج عطاء فوالله ما شرب عنده حسوة من ماء فما فوقها[١] .

أعرابيّ وهشام :

« هذا جزاء من يطفّف في الكَيْل » :

دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام:عظني يا أعرابي .

فقال : كفى بالقرآن واعظًا : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ وَيْلٌ لِّلْمطفّفِينَ الَّذِينَ إذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإذَا كَالُوهُمْ أو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * ألَا يَظُنُّ أولَئِكَ أنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالمِينَ ﴾ [المطففين : ٦] . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، هذا جزاء من يطفّف الكيل والميزان ، فما ظنّك بمن أخذه كله[٢] .

سالم بن عبد الله بن عمر :

« ما أعظم ما ابتُلِيتَ به يا عمر » :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب :

« سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من أمر هذه الأمة ، من غير مشورةٍ مني فيها ولا طلب مني لها ، إلا قدر من الرحمن قدَّره عليّ ، فأسأل الذي ابتلاني أن يُعينني على ما ولّاني من عباده وبلاده ، أن يرزقني فيهم العمل بطاعته ، وأن يرزقهم مني الرأفة والرحمة ، ويرزقني فيهم السمع والطاعة وحُسن المؤازرة . فإذا جاءك كتابي هذا ، فابعث إليَّ بكتب عمر وسيرته وقضائه

---

(١) مختصر منهاج القاصدين .

(٢) العقد الفريد .

في أهل القبلة وأهل الذمة ، فإني سائر بسيرته ومتَّبع أثره إن الله أعانني على ذلك ، إن شاء الله . والسلام » .

فكتب إليه سالم : « من سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن الله تعالى خلقَ الدنيا لما أراد ، فجعل لها مُدَّة قصيرة ، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء . ثم إنك يا عمر قد وليت أمرًا عظيمًا ، فإن استطعت أن لا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة ، فافعل ، وإن استطعت أن تجيء يوم القيامة لا يتبعنّك أحد بمظلمة ، ويجيء مَن قبلَك وهم غابِطون لك ، فافعل ، فإنهم قد عالجوا نزْع الموت ، وعاينوا أهوال المطْلع ، وانفقأت أعينهم التي كانت لا تنقضي لذَّتها ، وانشقّت بطونهم التي كانوا لا يشبعون فيها ، واندقَّت رقابهم غير متوسّدين ، بعد تظاهُر الفُرُش والمرافق والسرر والخدم . فصاروا جِيَفًا في بطون الأرض تحت آكامها ، لو كانوا إلى جنب مساكين تأذّوا من ريحهم ، بعد إنفاق ما لا يُحصى من الطِّيب ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . ما أعظم ما ابتُليتَ به يا عمر . فمن بعثتَ من عُمّالك فازجُر زجرًا شديدًا ، شبيهًا بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها . المالَ المال يا عمر . الدمَ الدم يا عمر . كتبتَ إليّ أن أبعث إليك بكتب عمر وسيرته . إن عمر عمل في غير زمانك وبغير رجالك ، وأنا أرجو إن عملتَ على النحو الذي عمل به عمر ، بعد ما بلوت من المظالم ، أن تكون أفضل من عمر عند الله ، وقل كما قال العبد الصالح : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾ [هود : ٨٨] »[١] .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

سالم وهشام بن عبد الملك :

حجّ هشام بن عبد الملك أيام خلافته ، فدخل الكعبة ، فوجد فيها سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم جميعًا ، فقال الخليفة : يا سالم ، سلني حاجة . فقال له سالم : إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيته غيرَهُ . فلما خرج سالم من الكعبة ، خرج هشام في إثره ، وقال له : الآن خرجتَ من بيت الله ، فسلني حاجة . فقال سالم : من حوائج الدنيا أم حوائج الآخرة ؟ فقال هشام : من حوائج الدنيا . فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟!

الحسن البصري :

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز يعظه ويحذّره من الدنيا : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن الدنيا دار ظَعْن وانتقال ، وليست بدار إقامةٍ على حال . وإنما أُنزل إليها آدم عقوبة ، فاحْذَرْها ؛ فإن الراغب فيها تارك ، والغني فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرَّض لها . إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق ، وجدَها تُذلّ مَن أعزّها ، وتفرِّق من جمعها . فهي كالسّمّ يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يجهله ، وفيه - والله - حَتْفُه . فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه ، يحتمي قليلًا مخافة ما يكره طويلًا . الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرها ولم يغترّ بزينتها ، فإنها غدّارة ختّالة خدّاعة ، قد تعرّضتْ بآمالها ، وتزيّنت لخُطّابها ، فهي كالعروس ، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها والهة ، وهي - والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق - لأزواجها قاتلة . فاتّق يا أمير المؤمنين صَرْعتها ، واحذر عثرتها ، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مُؤَدٍّ إلى الهلكة والفناء . واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفْوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موفّق ، والمتمسّك بها هالك غَرِق . والفَطِن

اللبيب من خاف ما خوّفه الله ، وحَذِر ما حذّره ، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين . الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عَقْل له ، وبها يغتر من لا علم عنده ، والحاذق اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه ، يصبر على مرارة الداء لما يرجوه من العافية ويخاف من سوء العاقبة . والدنيا - وأيم الله - يا أمير المؤمنين حلم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد في أضغاث أحلام . وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم :

فإن تَنْجُ منها تنجُ مِن ذي عظيمةٍ   وإلّا فإنّي لا أخَالُكَ ناجِيَا

ولما وصل كتابه إلى عمر ، بكى وانتحب ، حتى رَحِمَه من كان عنده ، وقال : رحم الله الحسن ، فإنه لا يزال يُوقظنا من الرّقدة ويُنبّهنا من الغفْلة ، ولله هو من مشفقٍ ما أنْصَحَه ، وواعظٍ ما أصدقَه وأفصحَه .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصري : عظني . فكتب إليه الحسن : « أما بعد يا أمير المؤمنين ، فكُن للمثْل من المسلمين أخًا ، وللكبير ابنًا ، وللصغير أبًا ، وعاقب كلّ واحدٍ منهم بذنبه على قدر جسمه ، ولا تضربن لغضبك سوطًا واحدًا فتدخل النار »[1] .

« والإمام العادل يا أمير المؤمنين » :

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، كتب إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب الحسن البصري رحمه الله : « والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ؛ يسعى لهم صغارًا ، ويعلّمهم كبارًا ، يكتسب لهم في حياته ، ويدّخر لهم في مماته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة الرفيقة بولدها ، حملته كرهًا ووضعته كرهًا ،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

وربّته طفلًا ، تسهر بسهره وتسكُن بسكونه ، تُرضعه تارة وتفطمه أُخرى ، وتفرح بعافيته وتغتـمّ بشكايته . والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصـيّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربّي صغيرهم ، ويَمُون كبيرهم . والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبدٍ ائتمنه سيّدُه ، فاستحْفَظَهُ مالَه وعيالَه ، فبدَّد المال وشرّد العيال ، فأفقر أهلَه وفرَّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليُزدجَر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ! وأن الله أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟! واذكُر يا أميـر المؤمنين الموت وما بعده ، وقلّة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر . واعلم أن لك منزلًا غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحبّاؤك ، ويسلموك في قعره وحيدًا فريدًا ، فتزوّد له . واذكُر إذا بُعثر ما في القبور وحصِّل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة . لا تحكُم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلُك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلِّط المستكبرين على المستضعفين ، فتبوء بأوزارك وأوزارٍ مع أوزارك ، وتحمـل أثْقالَكَ وأثقـالًا مع أثقالك . ولا يَغُرَّنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطِّيِّبات في دنياهم بذهاب طيّباتك في آخرتك . ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غدًا ، وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنتِ الوجوه للحي القيوم . إني يا أمير المؤمنين لم آلُك شفقةً ولا نصحًا ، فأنزِل كتابي إليك كمداوي حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ؛ لما يرجوه له من العافية والصحة . والسلام عليك يا أمير

المؤمنين ورحمة الله وبركاته »[١].

« إن استقمتَ استقاموا » :

كتب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - إلى فقهاء العراق أن يأتوه ، فاعتلَّ الحسن - أصيب بعلّة بفتْق في بطنه - وكتب إليه : « يا أمير المؤمنين ، إن استقمتَ استقاموا ، وإن مِلت مالوا . يا أمير المؤمنين ، لو أنَّ لك عمر نوحٍ وسلطان سليمان ويقين إبراهيم وحكمة لقمان ، ما كان لك بُدٌّ من أن تقتحم العقبة الجنة أو النار ، من أخطأتْه هذه دخل هذه » . فلما أتاه الكتاب ، أخذه فوضعه على عينيه ، ثم بكى ثم قال : كيف لي بعمر نوح ويقين إبراهيم وسلطان سليمان وحكمة لقمان ؟! ولو نلت ذلك ، لم يكن لي بدّ أن أشرب بكأس الأوَّلين .

الحسن والحجّاج :

روي أن الحجاج بنى دارًا بواسط ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال : الحمد لله ، إن الملوك ليروْن لأنفسهم عزًّا ، وإنا لنرى فيهم كل يوم عِبَرًا ، يعمد أحدهم إلى قصر فيشيّده ، وإلى فرش فينجّده ، وإلى ملابس ومراكب فيحسّنها ، ثم يحفّ به ذباب طمعٍ وفراش نارٍ وأصحاب سوءٍ ، فيقول : انظروا ما صنعتُ : فقد رأيْنا أيها المغرور ، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ! أما أهل السماوات فقد مقتوك ، وأما أهل الأرض فقد لعنوك ، بنيتَ دار الفناء ، وخربت دار البقاء ، وغُرِرت في دار الغرور لتذلّ في دار الحبور . ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ، ليُبيِّنُنَّه للناس ولا يكتمونه . وبلغ الحجّاج ما قال ، فاشتدَّ غضبه ، وجمع أهل الشام فقال : يا أهل الشام ، أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه .

حضور ، فلا تنكرون ؟! ثم أمر بإحضاره ، فجاء وهو يحرِّك شفتيْه بما لم يُسمع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال له الحجاج : هاهنا اجلس . فأجلسه قريبًا منه وقال : ما تقول في عليٍّ وعثمان ؟ قال : أقول قوْل مَن هو خيرٌ مني عند من هو شرٌّ منك . قال : قال موسى لفرعون حين سأله ﴿ **فَمَا بالُ الْقُرون الأولى قال علْمُهَا عَنْدَ رَبِّي فِي كِتَاب لَا يضلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى** ﴾ [طه : ٥١ ، ٥٢] عِلْم عليٍّ وعثمان عند الله . قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد . ودعا بغاليةٍ – طِيب – وعلف بها لحيتَهُ ، فلما خرج تَبِعَه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلتَ عليه ؟ قال : قلت : « يا عُدَّتي عند كُربتي ، ويا صاحبي عند شدّتي ، ويا وليّ نعمتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودَّته واصرف عني أذاه » . ففعل ربي عز وجل[1] .

الحسن وابن هُبيرة :

لما قدم عمرو بن هبيرة العراق ، أرسل إلى الحسن البصري والشعبي ، وأمر لهما ببيتٍ ، فكانا فيه شهرًا ونحوه ، ثم جاء عمرو إليهما ، فسلَّم ثم جلس معظِّمًا لهما ، فقال : إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك كتب إلّي كتبًا ، أعرف أن في إنفاذها الهلاك ، فإن أطعتُه عصيتُ الله ، وإن عصيتهُ أطعتُ الله ، فهل تريا لي في متابعتي إياه مخرجًا ؟ فقال الحسن للشعبي : أجب الأمير . فتكلَّم الشعبي كلامًا يريد به إبقاء وجهه عنده – أي يريد إرضاءه – فقال ابن هبيرة للحسن : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟ قال : أقول : يا ابن هبيرة ، أوشك أن ينزل بك مَلَك من ملائكة الله فظٌّ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيُخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمرو ابن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن

---

(١) الحسن البصري لابن الجوزي .

عبد الملك ، فيغلق به باب المغفرة دونك . يا عمرو بن هبيرة ، لقد أدركت ناسًا من صدر هذه الأمة ، كانوا عن هذه الدنيا وهي مقبلة ، أشدّ إدبارًا من إقبالكم عليها وهي مدبرة . يا عمرو بن هبيرة ، إني أُخوِّفك مقامًا خوَّفك الله عز وجل فقال : ﴿ **ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ** ﴾ [إبراهيم : ١٤]. يا عمرو بن هبيرة ، إن تَكُ مع الله في طاعته ، كفاك يزيد ابن عبد الملك . وإن تكُ مع يزيد على معاصي الله ، وكلك الله إليه . فبكى عمرو بن هبيرة وقام بعَبْرته . فلما كان من الغد أرسل إليهما ، فأدناهما وأجازهما ، فأكثر في جائزة الحسن وأنقص جائزة الشعبي . فخرج الشعبي إلى المسجد فقال : أيها الناس ، من استطاع منكم أن يُؤثر الله على خلْقه ، فليفعل ، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسنُ شيئًا منه فجهلتُه ، ولكنْ أردتُ وجه ابن هبيرة ، فأقصاني الله منه .

وفي رواية أُخرى : رققْنا فرقِّقُوا .

الحسن والنضر بن عمرو :

أحضر النضر بن عمرو – وكان واليًا على البصرة – الحسن البصري يومًا فقال : يا أبا سعيد ، إن الله عز وجل خلق الدنيا وما فيها من رياشها وبهجتها وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : ﴿ **وكُلُوا واشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إنَّه لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ** ﴾. [الأعراف : ٣١] وقال عزَّ من قائل : ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ التي أَخْرَجَ لِعبَادِه والطَّيِّباتِ من الرِّزق قُلْ هي لِلَّذِين آمنوا في الحياةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ** ﴾. [الأعراف : ٣٢]. فقال الحسن : يا أيها الرجل ، اتّقِ الله في نفسك ، وإياك والأماني التي ترجّحتَ فيها فتهلك ، إن أحدًا لم يُعط خيرًا من خير الدنيا ولا من خير الآخرة بأُمنيته ، وإنما هي داران ، من عمل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قدِّر له منها ، ومن أهمل نفسه خسرهما جميعًا . إن الله سبحانه اختار محمدًا ﷺ لنفسه ، وبعثه

برسالته ورحمته ، وجعله رسولًا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتابًا مهيمنًا ، وحدَّ له في الدنيا حدودًا ، وجعل له فيها أجلًا ، ثم قال عز وجل : ﴿ **لقد كانَ لكم في رسولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾ [الأحزاب : ٢١]. وأمرنا أن نأخذ بأمره ، ونهتدي بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسُنّته ، فما بلغنا إليه فبفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر . فذلك باب مخرجنا ، فأمّا أماني فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ مّن أهلها . فقال النضر : والله يا أبا سعيد ، إنا على ما فينا لنُحِبّ ربَّنا . فقال الحسن : لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى عليه : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتَّبعُوني يُحْبِبْكُم اللهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] . **فجعلَ** سبحانه اتِّباعه ﷺ علمًا للمحبّة وأَكْذَبَ من خالف ذلك . فاتقِ الله أيها الرجل في نفسك ، وأيم الله لقد رأيت أقوامًا كانوا قبلك في مكانك ، يعلون المنابر وتهتزّ لهم المراكب ، ويجرّون الذيول بطرًا ورياءَ الناس ، يبنون المدر ويُؤثرون الأثر ، ويتنافسون في الثياب ، أُخرجوا من سلطانهم ، وسُلبوا ما جَمعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ، ونزلوا على أعمالهم . فالويل لهم يوم التغابن ويا ويحهم ﴿ **يوم يفرّ المرءُ من أخيه وأُمّه وأبيه وصاحبته وبنيه لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه** ﴾[1] . [عبس : ٣٤ - ٣٧].

ودخل عليه مرة أخرى فقال له : أيها الأمير - أيَّدك الله - إن أخاك مَن نصحك في دينك ، وبصَّرك عيوبك ، وهداك إلى مراشدك ، وإن عدوّك من غرَّك ومنّاك . أيها الأمير ، اتقِ الله ، فإنك أصبحتَ مخالفًا للقوم في الهدي والسيرة والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تتمنّى الأماني ، وترجّح في طلب العذر . والناس - أصلحك الله - طالبان : فطالب دنيا ، طالب آخرة . وأيم الله لقد أدرك طالبُ الآخرة واستراح ، وتعب الآخر واخترم .

(١) الحسن البصري لابن الجوزي .

فاحذر أيها الأمير أن تشقى بطَلَب الفاني وتَرْك الباقي ، فتكون من النادمين ، واعلم أن حكيمًا قال :

أين الملوك التي عن حظِّها غفلتْ حتى سقاها بكأس الموتِ ساقيها

نعوذ بالله من الحوْر بعد الكوْر ، ومن الضلالة بعد الهُدى . لقد حدّثت أيها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول « كفى بالمرء خيانةً أن يكون للخونة أمينًا ، وعلى أعمالهم مُعينًا »[١] .

خالد بن صفوان وعمر بن عبد العزيز :

« إن أقوامًا غرَّهم ستْر الله » :

قال عمر بن عبد العزيز لخالد بن صفوان : عظني وأوجِز . فقال خالد ابن صفوان : يا أمير المؤمنين ، إن أقوامًا غرّهم ستر الله ، وفتنهم حُسن الثناء ، فلا يغلبنّ جهلُ غيرك بك عِلْمَك بنفسك ، أعاذنا الله وإياك أن نكون بالستر مغرورين ، وبثناء الناس مفتونين ، وعما افترض الله علينا متخلِّفين ، وإلى اللهو مائلين . قال : فبكى ، ثم قال : أعاذنا الله وإياك من اتِّباع الهوى .

ودخل عليه مرة أُخرى فقال له : عظني يا خالد . فقال : إن الله لم يرض أحدًا أن يكون فوقك ، فلا تـرضَ أن يكون أحدٌ أوْلَى بالشُّكر منك . قال : فبكى عمر حتى غُشي عليه ثم أفاق ، فقال : هيه يا خالد ، لم يرض أن يكون أحد فوقي ، فوالله لأخافنّه خوفًا ، ولأحذرنّه حذرًا ، ولأرجونّه رجاءً ، ولأُحبنّه محبّة ، ولأشكُرنّه شكرًا ، ولأحمدنّه حمدًا ، يكون ذلك كله غاية طاقتي ، ولأجتهدنّ في العدل والنَّصفة والزهد في فاني الدنيا لزوالها ، والرغبة في بقاء الآخرة ودوامها ، حتى ألقى الله عز وجل ؛ فلعلي أن أنجو مع الناجين ، وأفوز مع الفائزين . وبكى حتى غُشي عليه .

---

(١) عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .

أحد الرَّعِيَّة وعمر بن عبد العزيز :

« ويحك ارْدُدْ عليَّ كلامَك » :

ذكر رجل مظلمة له على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين اذكُر مقامي هذا ، فإنه مقام لا يشغل الله - عز وجل - عنه كَثْرة مَن تخاصمَ إليه من الخلائق ، يومَ تلقاه بلا ثقةٍ من العمل ولا براءةٍ من الذنب . فقال عمر : ويحك ، اردُد عليّ كلامك . فردَّده عليه ، فجعل يبكي وينتحب حتى إذا أفاق قال : ما حاجتك ؟ قال : عاملك على أذربيجان ظلمني ، وأخذ من مالي عشرة الآف درهم . فكتب بردِّ ذلك عليه ، وبعزْل عامله ، وقال : انظروا هل اخْلَوْلَقَ له ثوب ، أو تقطّع له من حذاء . فحسب ذلك فبلغ عشرين دينارًا ، فأمر عمر بدفْعها إليه[1].

يعلى بن مَخْلَد والحجّاج :

دخل يعلى بن مخلد المجاشعي على الحجاج في مرض الموت ، فقال له : كيف ترى ما بك يا حجاج مِن غَمَرات الموت وسَكَراته ؟ فقال : يا يعلى ، غمًّا شديدًا ، وجهدًا جهيدًا ، وألمًا مضيضًا ، ونزْعًا حَريضًا ، وسفرًا طويلًا ، وزادًا قليلًا ، فويلي ويلي إن لم يرحمني الجبّار . فقال : له يا حجاج ، إنما يرحم الله من عباده الرُّحماء الكُرماء ، أُولي الرحمة والرأفة ، والتَّحنُّن والتَّعطُّف على عباده وخلْقه ، أشهد أنك قرين فرعون وهامان ؛ لسوء سيرتك ، وترْك مِلّتك ، وتنكُّبك عن قصد الحق وسنن المحجة وآثار الصالحين ، قتلتَ صالحي الناس فأفْنَيْتَهم ، وأبرت عِترةَ التابعين فتبرتهم ، وأطعت المخلوق في معصية الخالق ، وهرقت الدماءَ ، وضربت الأبشار ، وهتكتَ الأستار ، وسُستَ سياسة متكبِّر جبّار ، لا الدِّين أبقيتَ ، ولا الدنيا أدركتَ ، أعززتَ بني مَرْوان ، وأذللتَ نفسك ، وعمرتَ دورهم ،

---

(١) المحاسن والمساوىء للبيهقي .

وأخربتَ دارك . فاليوم لا يُنجُّونك ولا يُغيثونك ، إذ لم يكن لك في هذا اليوم ولا لما بعده نظر . لقد كنت لهذه الأمة اهتمامًا واغتمامًا ، وعناءً وبلاءً ، فالحمد لله الذي أراحها بموتك ، وأعطاها مُناها بخِزْيِك . قال : فكأنما قُطع لسانه عنه ، فلم يحر جوابًا ، وتنفّس الصُّعَداء ، وخنقتْه العَبْرة ، ثم رفع رأسه فنظر إليه ، وأنشأ يقول :

ربِّ إن العبادَ قد أيأسُوني ورجائي لك الغداةَ عظيمُ[(١)]

يحيى بن يعمر والحجّاج :

عن الشعبي : كنت عند الحجاج ، فأُتي بيحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكّبلًا بالحديد ، فقال له الحجاج : أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ﷺ . فقال : بلى . فقال الحجاج : لتأتيني بها واضحة بيِّنة من كتاب الله ، أو لأقطعنّك عضوًا عضوًا . فقال : آتيك بها واضحة بيّنة من كتاب الله يا حجاج . قال : فتعجَّبَ من جُرأته بقوله : يا حجاج . فقال له الحجاج : ولا تأتيني بهذه الآية : ﴿ **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ** ﴾. فقال : آتيك بها واضحة من كتاب الله ، وهو قوله : ﴿ **وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى** ﴾ فمن كان أبو عيسى وقد أُلْحِق بذرية نوح ؟ قال : فأطرق مليًّا . ثم رفع رأسه فقال : كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله . حلّوا وثاقَهُ ، وأعطوه من المال كذا[(٢)].

رجل من اليمن والحجاج :

بينما الحجاج جالس في الحجر إذ دخل رجلٌ من أهل اليمن ، فجعل يطوف فوكّل به بعض من معه ، فقال : إذا خرج من طَوْفِه فَأْتِني به . فلما

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر لأبي علي القالي .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي .

فرغ من طوْفه ، أتاه به فقال له : ممن أنت ؟ قال : من أهل اليمن . قال : ألك علم بمحمد بن يوسف ؟ قال : نعم . قال : فأَخْبِرني عنه . قال : لقد تركتُه أبيض بضًّا سمينًا طويلًا عريضًا . قال : ويلك ، ليس عن هذا أسألك . قال : فعَمَّه ؟ قال : عن سيرته وطُعمته . قال : فأجْوَرُ السِّير ، وأخْبَث الطُّعم ، وأعْدَى العداةِ على الله وأحكامه . قال : فغضب الحجاج وقال : ويلك ، أما علمتَ أنه أخي ؟ قال : بلى . قال : أفأنت ما علمت أن الله ربي ؟ والله لهو أمْنَعُ لي منك ، أكْثَر منك لأخيك . قال : أجل ، أرسِلْه يا غلام[1] .

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز وأبوه :

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز دخل على أبيه عمر فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لي إليك حاجة ، فأخلني - وعنده مسلمة بن عبد الملك بن مرْوان - فقال له عمر : أسِرٌّ دون عَمِّك ؟ فقال : نعم . فقام مسلمة وخرجَ . وجلس بين يديه فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما أنت قائل لربّك غدًا إذا سألك فقال : رأيت بدعةً فلم تُمتها ، أو سُنَّة لم تُحْيِها ؟ فقال له : يا بني أشيءٌ حمَّلَتَكْهُ الرعيّة إليّ ، أم رأي رأيتَهُ من قِبَل نفسك ؟ قال : لا والله ، ولكن رأي رأيته من قبل نفسي ، وعرفت أنك مسئولٌ ، فما أنت قائل ؟ فقال له أبوه : رحمك الله ، وجزاك من ولدٍ خيرًا ، فوالله إني لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير . يا بُنَيَّ ، إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عُقدةً عقدة وعُروةً عروةً ، ومتى ما أُريد مُكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم ، لم آمن أن يفتقوا عليّ فَتْقًا تكثُر فيه الدماء ، والله لَزوالُ الدنيا أهْوَن عليّ من أن يُهراق في سببي محجمةٌ من دم ، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا ، إلا وهو يُميت فيه بدعة ويُحيي فيه سنة ، حتى يحكُم الله

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الحاكمين .

الخازن وعمر :

كان لعمر بن عبد العزيز غلام ، وكان خازنًا لبيت المال ، وكان لعمر ثلاث بناتٍ ، فجئنه يوم عرفة وقلن له : غدًا العيد ، ونساء الرعيَّة وبناتهم يَلُمْنَنا ، ويقُلن : أنتنّ بنات أمير المؤمنين ، ونراكن عُريانات ، لا أقلّ من ثيابٍ بيضاء تَلْبَسْنها . وبكين عنده ، فضاق صدر عمر فدعا غلامه الخازن ، وقال له : أعطني مُشاهرتي - الراتب الشهري - لشهرٍ واحد . فقال الخازن : يا أمير المؤمنين ، تأخذ المشاهرة من بيت المال سلفًا ، انظر ، إن كان لك عُمرُ شهرٍ ، فخُذ مشاهرةَ شهرٍ . فتحيَّر عمر وقال : نِعم ما قلت أيها الغلام ، وبارك الله فيك . ثم قال لبناته : اكظِمن شهواتكنّ ؛ فإن الجنة لا يدخلها أحد بغير مشقّة[1] .

غلامٌ هاشميّ وعمر بن عبد العزيز :

« لو أن الأمر بالسِّنّ ، لكان في الأُمّة من هو أحقّ منك » :

حينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وفدتِ الوفود من كل بلد ؛ لبيان حاجتها وللتهنئة ، فوفد عليه الحجازيّون ، فتقدم غلامٌ هاشمي للكلام ، وكان حديث السِّنّ ، فقال عمر : ليتكلمْ من هو أسنُّ منك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه : قلبِه ولسانِه ، فإذا منح الله عبدًا لسانًا لافِظًا وقلبًا حافظًا ، فقد استحق الكلام ، وعرَف فضله من سمِع خطابه ، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن ، لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك . فقال عمر : صدقت ، قل ما بدا لك . فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة ، وقد أتيناك لمنّ الله الذي منّ علينا بك ، ولم يُقدمنا إليك رغبةٌ ولا رهبة ، أما الرغبة : فقد

---

(١) التبر المسبوك .

أتيناك من بلادنا . وأما الرهبة : فقد أمِنَّا جورك بعدْلِك . فقال عمر : عظني يا غلام . فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، إن ناسا من الناس غرّهم حِلْم الله عنهم ، وطول أملهم ، وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام فهوَوْا في النار . فلا يغرنَّك حِلم الله عنك ، وطول أملك ، وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزِلّ قدمُك فتلحق بالقوم . فلا جعلك الله منهم ، وألحقَكَ بصالحي هذه الأمة . ثم سكت . فقال عمر : كم عمر الغلام ؟ فقيل : إحدى عشرة سنة . ثم سأل عنه ، فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهم ، فأثنى عليه خيرًا ، ودعا له وتمثَّل قائلًا :

تعلَّمْ فليسَ المرءُ يُولدُ عالمًا ... وليسَ أخو علمٍ كمنْ هُو جاهلُ
فإنَّ كبيرَ القومِ لا علم عندَهُ ... صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه المحافلُ

محمد بن واسع وبلال بن أبي بُردة :

« لا تظلمْ ولا تحتاجُ إلى دعائي » :

دخل محمد بن واسع على بلال بن أبي بردة في يوم حارٍّ ، وبلال في حشمه وعنده الثلج ، فقال بلال : يا أبا عبد الله ، كيف ترى بيتنا هذا ؟ قال : إن بيتك لطيّب والجنة أطيب منه . وذكْر النار يُلهي عنه . قال : ما تقول في القدر ؟ قال : جيرانك من أهل القبور ففكّرْ فيهم ، فإن فيهم شغلا عن القدر . قال : ادع لي . قال : وما تصنع بدعائي ، وعلى بابك كذا وكذا ، كلٌ يقول إنك ظلمتهم . يرتفع دعاؤهم قبل دعائي ؟! لا تظلمْ ولا تحتاجُ إلى دعائي .

مالك بن دينار وبلال بن أبي بُردة :

« ما أدري أيُّهما أكرم على الله » :

خرج بلال بن أبي بردة في جنازة ، وهو أمير على البصرة ، فنظر إلى جماعة وقوفًا فقال : ما هذا ؟ قالوا : مالك بن دينار يذكّر الناس . فقال لوصيف معه : اذهب إلى مالك بن دينار ، فقل له يرتفع إلينا إلى القبر . فجاء الوصيف

فأدّى الرسالة إلى مالك ، فصاح به مالك : ما لي إليه حاجة فأجيئه فيها ، فإن تكن له حاجة ، فليجيء إلى حاجة نفسه . فلما دفنوا ميِّتهم ، قام بلال بمن معه إلى حلقة مالك ، فلما دنا منه ونزل ، نزل من معه ، ثم جاء يمشي إلى الحلقة حتى جلس ، فلما رآه مالك بن دينار سكت ، فأطال السكوت ، فقال بلال : يا أبا يحيى ذكّرنا . فقال : ما نسيتَ شيئًا فأذكِّرك به . قال : فحدِّثنا . قال : أمّا هذا فنعم ، قدم علينا أمير من قبلك على البصرة فمات فدفناه في هذه الجبانة ، ثم أتينا بزنجي فدفناه إلى جنبه . فوالله ما أدري أيهما كان أكرم على الله سبحانه . فقال بلال : يا أبا يحيى ، أتدري ما الذي جرأك علينا ، وما الذي أسكتنا عنك ؟ لأنك لم تأكل من دراهمنا شيئًا . أما والله لو أخذت من دراهمنا شيئًا ، ما اجترأت علينا هذه الجرأة .

يقول الطرطوشي : فأفاد هذا الحديث علمًا . ألا فاتقوا دراهمهم . وما أشبه هذا بقول القائل :

مَنْ كان لا يطأُ الترابَ برجلِهِ ... وَطِىء الترابَ بناعمِ الخَدِّ
مَن كانَ بينَكَ في الترابِ وبينَهُ ... شبرانِ كان بغايةِ البعدِ
لو بُعثرتْ للناسِ أطباقُ الثَّرى ... لم يُعرَفِ المولى مِنَ العبدِ[1]

مالك بن دينار والمهلّب :

« أعرفك حقَّ المعرفة » :

عن الأصمعي عن أبيه ، قال : مرَّ المهلب بن أبي صفرة على مالك ابن دينار ، وهو يتبختر في مِشيته ، فقال له مالك : أما علمت أن هذه المشية تكره إلا بين الصَّفّيْن ؟ فقال له المهلّب : أما تعرفني ؟ فقال مالك : أعرفك أحسن المعرفة . قال : وما تعرف مني ؟ قال : أمَّا أولك نطفة مذرة ،

---

(١) سراج الملوك للطرطوشي .

وآخرك ، جيفة قَذِرة ، وأنت فيما بينهما تحمل العذرة . قال : فقال المهلب : الآن عرفتني حق المعرفة .

نعم يا أخي يحيى :

أنفٌ يسيل وأذن كلها سَهَكٌ والعين مُرْمَصَة والثَّغرُ مَلْعُوبُ

يا ابنَ التراب ومأكولُ الترابِ غدًا قصِّرْ فإنك مأكولٌ ومشروبُ

حطيط الزَّيَّات والحجَّاج :

« أنت خطيئةٌ من خطاياه » :

جِيءَ بحطيط الزيات إلى الحجاج ، فلما دخل عليه قال : أنت حطيط ؟ قال : نعم ، سلِ عمّا بدا لك ، فإني عاهدتُّ الله عند المقام على ثلاث خصال : إن سُئلتُ لأصدقنَّ ، وإن ابتُليتُ لأصبرنّ ، وأن عوفيت لأشكرنّ . قال : فما تقول فيَّ ؟ قال : أقول : إنك من أعداء الله في الأرض ، تنتهك المحارم ، وتقتل بالظّنة . قال : فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؟ قال : أقول : إنه أعظم جرمًا منك ، وأنت خطيئة من خطاياه . قال : فقال الحجاج : ضعوا عليه العذاب . قال : فانتهى به العذاب ، حتى انتحلوا لحمه . فما سمعوه يقول شيئًا ، ثم مات . رحمه الله . وكان ابنَ ثمان عشرة سنة .

أحد الزُّهاد وخليفة :

حُكيَ أن بعض الزهاد دخل على بعض الخلفاء ، فقال له : عظني . فقال له : يا أمير المؤمنين ، كنت أسافر الصين ، فقدِمتها مرة وقد أصيب ملكُها بسمْعِه ، فبكى بكاء شديدًا ، وقال : أما إني لست أبكي على البليَّة النازلة ، ولكن أبكي لمظلوم على الباب يصرخ فلا يؤْذن له ، ولا أسمع صوته ، ولكن إن ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب ، نادوا في الناس : لا يلبَس أحد ثوبا أحمر إلا متظلِّم . ثم كان يركب الفيل في نهاره حتى يرى

حمرة ثياب المظلومين . فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله تعالى ، غلبت عليه رأفته على المشركين . وأنت مؤمن بالله تعالى ، ومن أهل بيت نبيه ﷺ . كيف لا تغلب رأفتك بالمؤمنين[1]؟!.

صالح المري[2] والمهدي :

قال صالح المري : دخلت على المهدي ، فلما مُثُلْت بين يديه قلت : يا أمير المؤمنين احمل الله ما أكلمك به اليوم ، فإن أولى الناس بالله أحملهم لغلْظة النصيحة فيه ، وجدير بمن له قرابة برسول الله ﷺ أن يرث أخلاقه ويأتم بهدْيه ، وقد ورثك الله من العلم والحجة ميراثا قطع به عذرَك . واعلم أن رسول الله ﷺ خصمُ مَن خالَفه في أمته ، ومن كان محمد خصمَه : اللّهُ خصمُه ، فأعدَّ لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حُججًا تضْمن لك النجاة ، أو استسلم للهلكة . واعلم أن أبطأ الصَّرعى : نهضة صريعِ هوًى يدّعيه إلى الله قربةً ، وأن أثبتَ الناس قدمًا يوم القيامة آخَذُهم بكتاب الله وسنة نبيه . فمثلك لا يكابر المعصية ، ولكن تُمثَّل له الإساءة إحسانًا ، وتشهد له عليها خونة العلماء ، وبهذه الحبالة تصيدتِ الدنيا نظراءَك ، فأحسِن الحَمْل ؛ فقد أحسنتُ إليك الأداء . قال : فبكى المهدي . يقول مَن روى هذا القول : وقد أخبر بعض الكتَّاب في الدواوين ، أنه رأى هذا الكلام مكتوبًا في دواوين المهدي .

صالح بن عبد الجليل والمهدي :

« أنت أعلمُ بموضع النجاة » :

دخل صالح بن عبد الجليل - وكان ناسكًا مفوها - على المهدي ، فسأله أن يأذن له في الكلام ، فقال : تكلم . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه لما

---

(١) فضائح الباطنية للغزالي .

(٢) صالح بن بشير المري ، واعظ البصرة ، روى عن الحسن البصري .

سهل علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام المؤدي عنهم وعن رسول الله ﷺ ، بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي ، لانقطاع عذر الكتمان في التَّقيّة ، لا سيما حين اتسمتَ بميْسَم التواضع ، ووعدتَ الله وحملةَ كتابه إيثار الحقّ على ما سواه ، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : مَن حجب الله عنه العلم ، عذّبه على الجهل ، وأشدُّ منه عذابًا من أقبل إليه العلم فأدبرَ عنه ، ومَن أُهدي إليه العلم فلم يعمل به ، فقد رغب عن هدية الله ، وقصر بها ، فاقبلْ ما أهدىٰ الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيقٍ . فبكى المهدي حتى ظنوا أنه لا يسكت ، وقال : **يا صالح ، لو وجدتُ رجالًا يعملون بما آمرهم به وما أنوي في رعيتي ،** لظننت أني ألقىٰ الله عز وجل وأمْر أمة محمد ﷺ أقلّ ذنوبي وأهون حسابي . ولكن دُلّني على وجه النجاة ، فإن لم أعمل كنت أنا الجاني على نفسي ، والمؤثر هوايَ على رضا ربي . قال له صالح : أنت يا أمير المؤمنين أعلم بموضع النجاة . قال : لو كنتُ أعلم بموضع النجاة ما كنتُ أولى بعظتي مني بعظتك ، وما هو إلا أن أركب سيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولا يَصلُح والله عليها أحد من أهل هذا العصر ؛ وذلك أن الناس في الزمن الماضي كان يُرضي أحدهم التمر البالي ، وتنفعه الكسرة اليابسة ، والماء القَراح . وهم اليوم في مطارف الخزّ والوشْي ، ومائدة أحدهم في اليوم تمثل غنىٰ ذي العيال في زمن عمر ، ولو أنني حملتُ الناس على سيرة العمريْن في هذا العصر ، كنت أولَ مقتول ؛ وذلك أن الفطام عن هذا الحطام شديد ، لا يصبر عليه إلا المرزأ السابق ، فأطرق صالح مفكّرًا ثم رفع رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين إنه ليقع في خَلَدي أنك قبلت قولي قبول تحقيقٍ . فقال المهدي : شهيدي على ذلك هو الله . فقام صالح ، وقال : أعانك الله يا أمير المؤمنين على صالح نيَّتك ، وأعطاك أفضل ما تأمَلُه في رعيَّتك ، ووهب لك أعوانًا صالحين بررة ، يعملون بما

يجب عليهم فيك . ثم خرج .

حماد بن سلمة ومحمد بن سليمان :

« أدركنا العلماءَ وهم لا يأتون أحدًا » :

قال مقاتل بن صالح الخراساني : دخلتُ على حماد بن سلمة مفتي البصرة ، فإذا ليس في البيت إلا حصيرٌ ، وهو جالس عليه ، ومصحف يقرأ فيه ، وجراب فيه علْمُه ، ومطهرة يتوضأ فيها ، فبينما أنا عنده جالس ، إذا بطارقٍ يطرق الباب ، فقال : يا صبية،اخرجي فانظري مَن هذا ؟ فقالت : رسول محمد بن سليمان . قال : قولي له يدخل وحده . فدخل ، فناوله كتابًا فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن سليمان إلى حماد ابن سلمة ، أما بعد : فصبَّحك الله بما صبّح به أولياءه وأهل طاعته . وقعتْ مسألة فأْتنا نسألك عنها . والسلام ». قال : يا صبية ، هلمِّي الدواة . ثم قال لي : اقلب الكتاب واكتب : « أما بعد،وأنت فصبّحك الله بما صبح به أولياءه وأهل طاعته . إنا أدركنا العلماء وهم لا يأتون أحدًا . فإن كانت وقعت مسألة فأْتِنا واسألنا عما بدا لك . وإن أتيتني فلا تأتني إلا وحدَك ، ولا تأتني بخيلك ورَجْلِك ، فلا أنصح ، ولا أنصح إلا نفسي . والسلام » فبينما أنا عنده ، إذ دقّ داقٌّ الباب . فقال : يا صبية،اخرجي ، فانظري من هذا ؟ فقالت : محمد بن سليمان . قال : قولي له : ليدخلْ وحده . فدخل فسلم ، فجلس بين يديه ، فقال : ما لي إذا نظرتُ إليك ، امتلأتُ رعبًا . فقال حماد : سمعتُ ثابتًا البناني يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن العالم إذا أراد بعلمه وجهَ الله عز وجل ، هابه كلُّ شيء ، وإذا أراد أن يكتنز به الكنوز ، هاب من كلِّ شيء » . فقال : ما تقول رحمك الله في رجل له ابنانِ ، وهو عن أحدهما أرضى ، فأراد أن يجعل له في حياته ثُلثَيْ ماله ؟ قال : لا يفعل رحمك الله ؛ فإني سمعت البناني

يقول : سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا أراد الله أن يعذب عبدَه بماله ، وقفه عند موْته لوصية جائرة » . قال : فحاجة إليك . قال : هات ؛ ما لم تكن رزية في دين . قال : أربعون ألف درهم تأخذها ؛ تستعين بها على ما أنت عليه . قال : ارددها على مَن ظلمتَه بها . قال : والله ما أعطيتك إلا ما ورثته . قال : لا حاجة لي فيها ، ازوها عني ، زَوَىٰ الله عنك أوزارك . قال : فتقسِمُها . قال : فلعلي إن عدلْت في قسمتها أن يقول بعض مَن لم يُرزق منها : لم يعدِل . ازوِها عني ، زوىٰ الله عنك أوزارك[1].

بهلول[2] المجنون والرشيد :

« لا يعطيك وينساني » :

عن الفضل بن الرَّبيع ، قال : حججتُ مع هارون الرشيد ، فمررنا بالكوفة ، فإذا بهلول المجنون يَهذي ، فقلت له : اسكُتْ ؛ فقد أقبل أمير المؤمنين . فسكت . فلما حاذاه الهوْدَجُ ، قال : يا أمير المؤمنين ، حدثني أيمن بن نابل ، قال : أنبأنا قدامة بن عبد الله العامري قال : « رأيت النبي ﷺ بمنًى على جمل ، وتحته رَحْل أسود ، فلم يكنْ ثَمَّ طردٌ ولا ضرْبٌ ولا إليكَ إليكَ »[3]. قلت : يا أمير المؤمنين ، إنه بهلول المجنون . قال : قد عرفته . قال : يا بهلول . فقال : يا أمير المؤمنين :

هبْ أنك قد ملكتَ الأرضَ طرًّا ... ودانَ لك العبادُ فكانَ ماذا
أليس غدًا مصيرك جوْفُ قبرٍ ... ويحثو التُّربَ هذا ثم هذا

---

(١) صفة الصفوة .

(٢) هو أبو وهيب بهلول بن عمرو المجنون ، من أهل الكوفة .

(٣) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ، ورواه النسائي والدارمي وابن ماجة .
(إليكَ إليكَ) : اسم فعل ، بمعنى تنحَّ عن الطريق .

قال : أجدتَّ يا بهلول ، أفغيره ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، من رزقه الله جمالًا ومالًا ، فعفَّ في جماله وواسى في ماله ، كُتب في ديوان الأبرار . قال : فظن أنه يريد شيئًا . قال : فإنا قد أمرنا بقضاء دَينك . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين . لا تقضِ دَينا بدَين ، ارددِ الحق إلى أهله ، واقضِ ديْن نفسك من نفسك . قال : إنا قد أمرنا أن يُجرَى عليك . قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، لا يعطيك وينساني . أجرى عليَّ الذي أجرى عليك ، لا حاجة لي في جرايتك .

« وهذه قصورهم ، وهذه قبورهم » :

حينما التقى هارون الرشيد بالبهلول ، قال له : عظني يا بهلول . فقال له بهلول : بمَ أعظك يا أمير المؤمنين ؟! هذه قصورهم ، وهذه قبورهم . ثم قال : كيف بك يا أمير المؤمنين إذا أقامك الحق بين يديه ، وسألك عن النقير والفتيل والقطمير ، وأنت عطشان جوعان عُريان ، وأهل الموقف ينظرون إليك ويضحكون . فإذا بهارون تخنقه العَبرة ، وتسيل دموعه ، ويأمر بصِلَةٍ لبهلول ، فقال له بهلول : ردَّها على من أخذتها منهم ، قبل أن لا تجد لهم شيئًا ترتضيهم به . ثم أنشد :

دعِ الحرْصَ على الدنيا وفي العيْشِ فَلا تَطمعْ
فـإنَّ الـرزقَ مـقسُوم وسوءُ الظنِّ لا يَنفـعْ
فقيرٌ كلُّ ذي حرْصٍ غَنيٌّ كـلُّ مَـنْ يقنـعْ[1]

ابن السَّماك والرشيد :

« لو مُنعتْ عنك هذه الشربة ؟ » :

حينما دخل ابن السماك على الرشيد أمير المؤمنين ، فقال له الرشيد : عظني . فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لا شريك له ، واعلم أنك

---

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

واقفٌ غدًا بين يدي الله ربك ، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما : جنة أو نار . فبكى هارون حتى ابتلتْ لحيته بالدموع ، ثم طلب هارون ماءً ليشرب ، فلما وضع الماء على فيه ليشرب ، قال له ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ ، لو منعت عنك هذه الشربة فبكم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي . فقال له ابن السماك : اشربْ هنَّأك الله . فلما شرب ، قال له : أسألك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله ﷺ ، لو منعتَ خروجها من بدنك ، بماذا كنت تشتريها ؟ قال : بجميع ملكي . قال ابن السماك : إن ملكًا قيمته شربة ماء لجدير أن لا يُنافس فيه . فبكى هارون الرشيد ، حتى أشفق الحاضرون عليه .

« لا يكنْ أحدٌ أطوعَ لله منك » :

قال ابن السماك : أرسل إليَّ هارون الرشيد ، فدعاني ، فقال لي : يا ابن السماك ، عظني . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن أولى الناس أن يرغب في نعيم الآخرة من ذاق نعيم الدنيا . قال : فبكى ، ثم قال : زدْنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن الله تبارك وتعالى لم يرضَ لك أن يجعل فوقك في الأرض أحدًا ، فلا ترض أن يكون في الأرض أحد أطوع لله منك . قال : فبكى هارون حتى رحمتُه . فقال لي الفضل : ارفق بأمير المؤمنين . ثم قال : تكلَّمْ يا ابن السماك وادعُ . فدعوتُ بدعاءٍ أعجبه ، وقلت في دعائي : اللهمَّ إنك قلتَ : ﴿ **وأقسموا بالله جَهد أيْمانهم لا يبعث اللَّهُ مَن يموت** ﴾ أفتراك يا رب تجمع بين أهل القَسَمَيْن في مكان واحد . وهارون يبكي[1] .

وجاء في « سراج الملوك » للطرطوشي : لما دخل ابنُ السّماك على هارون الرشيد ، قال له : عظني . قال : يا أمير المؤمنين ، إن الله لم يرضَ

---

(١) المصباح المضيء لابن الجوزي .

لخلافته في عباده غيرَكَ ، فلا ترض من نفسك إلا بما رضيَ الله به عنك ، فإنك ابن عمّ رسول الله ﷺ ، وأنت أولى الناس بذلك . يا أمير المؤمنين ، مَن طلب فِكاك رقبته في مهلة مِن أجَله ، كان خليقًا أن يعتق نفسَه . يا أمير المؤمنين ، منَ ذوَّقته الدنيا حلاوتَها بركون منه إليها ، أذاقتْه الآخرة مرارتها بتجافيه عنها . يا أمير المؤمنين ، ناشدتك الله أن تَقدُم إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض ، وقد دُعيتَ إليها ، وليس لك فيها نصيب . يا أمير المؤمنين ، تموت وحدك وتحاسَب وحدك ، وإنك لا تَقدُم إلا على نادمٍ مشغول ، ولا تُخلف إلا مفتونًا مغرورًا ، وإنك وإيّانا في دار سفرٍ وجيران ظعن .

وجاء فيه أيضًا :

« هذا ذلّ الصفة ، فكيف بذلِّ المُعاينة ؟! » :

بعث هارون إلى ابن السماك ، فلما أخذه الحرس بغير رفْق ورآه الرشيد ، قال : ارفقوا بالشيخ . فلما وقف بين يديه ، قال له : يا أمير المؤمنين ، ما مرَّ بي يوم منذ ولدتني أمي - أتعب فيه من يومي هذا ، فاتقِ الله في خلقه ، واحفظ محمدًا في أمته ، وانصح لنفسك في رعيَّتك ؛ فإن لك مقامًا بين يدي الله تعالى أنت فيه أذلّ من مقامي هذا بين يديك. فاتق الله ، واعلم أن مِن أخْذ الله وسَطوته على أهل المعصية كيْت وكيْت . قال : فاضطرب الرشيد على فراشه ، حتى نزل إلى مصلًّى بين يديْ فراشه ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، هذا ذلُّ الصّفة ، فكيف لو رأيتَ ذلَّ المعاينة ؟! فكادتْ نفس الرشيد تخرج .

شقيق البلْخي والرَّشيد :

قال هارون الرشيد لشقيق البلخي : أوصني . فقال له شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قد أجلسك مكان الصِّدِّيق ، وإنه تعالى يطلب منك

مثل صِدْقه ، وإنه تعالى أعطاك مكان الفاروق وهو يطلب منك مثل عدْله ، وإنه تعالى أجلسك مكان عثمان وهو يطلب منك مثل حيائه وخوفه ، وإنه أعطاك مكان عليّ وهو يطلب منك مثل علمه وحُكمه . فقال له الرشيد : زدْني يا شقيق . فقال شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن لله دارًا تُعرف بجهنم ، وإنه جعلك بوَّابًا عليها ، وأعطاك ثلاثة أشياء لتردَّ عباده عنها : أعطاك بيت المال والسوْط والسيف ، وأمرك أن تمنع الناس عن دخول النار ، فمن جاءك مُحتاجًا إلى طعام حلال ، فلا تمنعْه حقه في بيت المال ، حتى لا يسرق ويقتل . ومن خالف أمر الله ، وخرج على حدود الله فأدّبه بالسوط . ومن قتل نفسًا بغير حق ، فاقتله بالسيف ، إلا أن يعفو ولي المقتول . فإن لم تفعل في مُلكك بدين الله ، فأنت زعيم أهل النار . فقال له الرشيد : زدْنا . فقال له شقيق : يا أمير المؤمنين ، إن مَثَلك كمَثل منبع الماء ، والعلماء والأمراء هم السواقي على منبع الماء ، فإذا كان المنبع صافيًا ، نقلت السواقي الماء صافيًا ، وإن كان النبع كَدَرًا ، كان ماء السواقي كدرًا . فبكى هارون الرشيد من قوْله ، وأمر له بمال . فأبى أن يأخذه وتركه ، وانصرف .

عمرو بن عُبيد[1] والمنصور :

« أظهرِ الحق يتبعْك أهلُه » :

قال المنصور : يا أبا عثمان ، عظني . فقال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **والفجر وليالٍ عشر والشفعِ والوتر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فصبَّ عليهم ربك سوْطَ عذابٍ إن ربك**

(١) شيخ أهل البدع والمعتزلة ولا كرامة .. وقد سقناها لقبول كلمة الحق ولو من أبعد الناس عنها ؛ فقد قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة عن شيطان الجن الذي عَرَض له : « صدقك وهو كذوب » .

لبالمرصاد ﴾ قال : فبكى بكاءً شديدًا ، كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة ، وقال : إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشترِ نفسك منه ببعضها . واعلم أن هذا الأمر الذي صار إليك إنما كان في يد من كان قبلك ، ثم أفضىٰ إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بعدك . وإني أحذرك ليلة تَمخضُ صبيحتُها عن يوم القيامة . قال : فبكى والله أشد من بكائه الأول ، حتى رجف جنباه . فقال له سليمان بن مجالد : رفقًا بأمير المؤمنين ، قد أتعبته منذ اليوم . فقال له عمرو : وبمثلك ضاع الأمر وانتشر - لا أبالك - وماذا خفتَ على أمير المؤمنين أن يبكيَ من خشية الله ؟ فقال له أمير المؤمنين : يا أبا عثمان،أعني بأصحابك أستعن بهم . قال : أظهرِ الحق يتبعك أهله . قال : لقد أمرت لك بعشرة آلاف درهم ، تستعين بها على سفرك وزمانك . قال : لا حاجة لي فيها . قال : والله لتأخذنها . قال : والله لا آخذُها . فقال له المهدي : يحلف أمير المؤمنين وتحلف . فقال : من هذا الفتى ؟ فقال : هو ابني محمد ، وهو المهدي ، وولي العهد . فقال : والله لقد سميتَه اسمًا ما استحقه عملُه ، ولقد مهدتَّ له أمرًا أمتعَ ما يكون به ، أشغلَ ما يكون عنه . ثم التفتَ إلى المهديّ فقال : يابن أخي ، إذا حلَف أبوك ، وحلَف عمك ، فإن أباك أقدر على الكفَّارة من عمِّك . ثم قال : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم . قال : وما هي ؟ قال : لا تبعثْ إليَّ حتى آتيك . قال : إذًا لا نلتقي . قال : عن حاجتي سألتني . قال : فاستحفظه وودعه ، ونهض قائمًا . فلما ولّى مدَّه بصرَه ، وهو يقول :

كلُّكـمْ يمشـي رُويـدْ   كلُّكـمْ يطلـبُ صَيـدْ
غيـرَ عمـرو بـن عُبَيـدْ

« **لَيتقربنَّ إليك بالعدلِ مَن لا نيَّةَ له فيه** » :

دخل عمرو بن عبيد على المنصور ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل يوقفك ويسائلك عن مثقال ذرةٍ من الخير والشرِّ . وإن الأمة

خُصماؤُك يوم القيامة ، وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بما ترضاه لنفسك ، ألا وإنك لا ترضى لنفسك إلا بأن يعدل عليْك . وإن الله عز وجل لا يرضى منك إلا بأن تعدل على الرعية . يا أمير المؤمنين ، إن وراء بابك نيرانًا تتأجج من الجور ، والله ما يُحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه ﷺ . قال : فبكى المنصور . فقال سليمان بن مجالد ، وهو واقف على رأس المنصور : يا عمرو ، قد شققتَ على أمير المؤمنين . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين مَن هذا ؟ قال : أخوك سليمان بن مجالد . قال عمرو : ويلك يا سليمان ، إن أمير المؤمنين يموت ، وإن كل ما تراه يَنفَد ، وإنك جيفة غدًا بالفناء ، لا ينفعك إلا عمل صالح قدَّمته ، ولَقرب هذا الجدار أنفع لأمير المؤمنين من قُرْبك ، إذا كنت تطوي عنه النصيحة وتنهى من ينصحه .. يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء اتخذوك سُلَّمًا إلى شهواتهم . قال المنصور : فأصنعُ ماذا ؟ ادعُ لي أصحابك ، أُوَلِّهم . قال : ادع أنت بعمل صالح تُحدِثه ، ومرْ بهذا الخناق فليرفع عن أعناق الناس ، واستعمل في اليوم الواحد عمَّالًا ، كلما رابَك منهم ريْب ، أو أنكرت على رجل عزلْتَه ووليّْت غيره . فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقرَّبن به إليك مَن لا نيةَ له فيه .

الفُضَيْل بن عِياض :

انظر إلى سيِّدٍ من سادات المتهجدين ، الذي كان إذا وعظ قبّل ابنُ المبارك جبهته ، وقال : يا مُعلّمَ الخير ، من يحسن هذا غيرك .

انظر إليه حين يقول : لَأَنْ يدنو الرجل من جيفة منتنةٍ ، خير له من أن يدنو إلى هؤلاء - يعني السلطان -.

وقال أيضًا : رجل لا يخالط هؤلاء ، ولا يزيد على المكتوبة ، أفضل عندنا من رجل يقوم الليل ، ويصوم النهار ، ويحج ويعتمر ، ويجاهد في سبيل الله .

واسمع يا أخي إلى الجبال حين تتكلم،استمع إلى زواجر الكلم تُلقى على مسامع الخليفة من قِبل متهجد ، وهو الفُضَيل : « قال الفَضْل بن الربيع : حجّ أمير المؤمنين ، فأتاني فخرجتُ مسرعًا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلتَ إليّ أتيتك . فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء ، فانظر لي رجلًا أسأله . فقلت : هاهنا سفيان بن عيينة . فقال : امضِ بنا إليه . فأتيناه ، فقرعنا الباب ، فقال : مَن ذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فخرج مسرعًا ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلتَ إليّ أتيتك . فقال : خذ لما جئناك له - رحمك الله - فحدَّثه ساعةً ، ثم قال له : عليك دَيْن ؟ فقال : نعم . قال : أبا عباس ، اقضِ دَيْنه . فلما خرجنا ، قال : ما أغنى عني صاحبك شيئًا ، انظر لي رجلًا أسأله . قلت : هاهنا عبد الرزاق بن همام . قال : امض بنا إليه . فأتيناه ، فقرعنا الباب ، فخرج مسرعًا ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : يا أمير المؤمنين ، لو أرسلت إليّ لأتيتك . قال : خذ لما جئناك له ، فحادثه ساعةً ، ثم قال له : عليك دَيْن ؟ قال : نعم . قال : أبا عباس ، اقضِ دَيْنه. فلما خرجنا ، قال : ما أغنى عني صاحبك شيئًا ، انظر لي رجلًا أسأله . قلت : هاهنا الفضيل بن عياض . قال : امضِ بنا إليه . فأتيناه فإذا هو قائم يصلي ، يتلو آية من القرآن يردّدها ، فقال : اقرع الباب . فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعة ؟ أليس قد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس للمؤمن أن يُذلّ نفسه » فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت ، فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا ، فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه ، فقال : يالها من كفٍّ ! ما ألْينها إن نجتْ غدًا من عذاب الله عز وجل ! فقلت في نفسي : ليكلمنّه الليلة بكلام من تقي قلب نقيّ . فقال له : خذ لما جئناك له ،

رحمك الله . فقال : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم ابن عبد الله ، ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيْوة ، فقال لهم : إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء ، فأشيروا عليّ . فعدّ الخلافة بلاء ، وعددتَّها أنت وأصحابك نعمة . فقال له سالم بن عبد الله : إن أردتّ النجاة من عذاب الله فصم الدنيا ، وليكن إفطارك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المؤمنين عندك أبًا ، وأوسطهم أخًا ، وأصغرهم عندك ولدًا ، فوقِّر أباك ، وأكرمْ أخاك ، وتحنّنْ على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله ، فأحبّ للمسلمين ما تحبّ لنفسك ، واكْره لهم ما تكره لنفسك ، ثم متْ إذا شئت . وإني أقول لك ؛ فإني أخاف عليك أشدّ الخوف يومًا تزِلُّ فيه الأقدام ، فهل معك رحمك الله مثلُ هذا ؟ أو مَنْ يشير عليك بمثلِ هذا ، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا ، حتى غُشي عليه ، فقلت له : ارفُقْ بأمير المؤمنين . فقال : يا ابن الربيع ، تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ! ثم أفاق ، فقال له : زدني ، رحمك الله . فقال : يا أمير المؤمنين ، بلَغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز شكا ، فكتب إليه عمر : يا أخي ، أذكّرك طولَ سهر أهل النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله ، فيكون آخرَ العهد ، وانقطاع الرجاء . قال : فلما قرأ الكتاب طوىٰ البلاد ، حتى قدم على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : ما أقدمَك ؟ قال : خلعتَ قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل . قال : فبكىٰ هارون بكاء شديدًا ، ثم قال له : زدني رحمك الله . فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عمَّ المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أمِّرْني على إمارة . فقال له النبي ﷺ : « إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميرًا فافعلْ » . فبكى هارون الرشيد بكاءً شديدًا ، فقال له : زدني ، رحمك الله . قال : يا حسنَ الوجه ،

أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإياك أن تُصبح وتمسي وفي قلبك غشٌّ لأحد من رعيتك ؛ فإن النبي ﷺ قال : « من أصبح لهم غاشًّا ، لم يرحْ رائحة الجنة » فبكى هارون الرشيد ، وقال له : عليك دَيْن ؟ قال : نعم ، دَيْن لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن سألني ، والويل لي إنْ ناقشني ، والويل لي إن لَمْ أُلهم حجتي . قال : إنما أعني من دَيْن العباد ؟ قال : إن ربي لم يأمرني بهذا ، إنما أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره ، فقال جل وعز : ﴿ **وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يُطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ . فقال له : هذه ألف دينار ، فأنفقها على عيالك وتقوّ بها على عبادتك . فقال : سبحان الله ، أنا أدلّك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ! سلّمك الله ووفقك . ثم صمت فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب ، قال هارون : إنْ دللتني على رجل فدلّني على مثل هذا . هذا سيد المسلمين »[١].

« هذا كتاب الله بين الدَّفتيْن » :

حدث يحيى بن يوسف الزمي عن الفضيل بن عياض ، قال : لما دخل على هارون الرشيد أمير المؤمنين ، قال : أيّكم هو ؟ قال : فأشاروا إلى أمير المؤمنين ، فقال : أنت هو يا حسنَ الوجه ؟! لقد كُلِّفتَ أمرًا عظيمًا ، إني ما رأيت أحدًا هو أحسن وجهًا منك ، فإن قدرت أن لا تُسوِّد هذا الوجه بلفحة من النار ، فافعل . فقال لي : عظني . فقلت : بماذا أعظك ؟! هذا كتاب الله تعالى بين الدفتين ، انظر ماذا عمل بمن أطاعه ؟ وماذا عمل بمن عصاه ؟ إني رأيتُ الناس يُعرضون على النار عرضًا شديدًا ، ويطلبونها طلبًا شديدًا حثيثًا ، أمَا والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها . فقال : عدْ إليّ . فقال : لو لم تبعث إليّ لم آتِك ، وإن انتفعتَ بما سمعتَ مني عدتُ إليك.

---

(١) الحلية ٨/١٠٥ - ١٠٧ .

عبد الله الخُراساني وهارون الرشيد :

حُكي عن إبراهيم بن عبد الله الخراساني أنه قال : حججتُ مع أبي - سنةَ حجّ الرشيد - فإذا نحن بالرشيد ، وهو واقف حاسرٌ حافٍ على الحصباء ، وقد رفع يديْه وهو يرتعد ويبكي . ويقول : يا رب ، أنت أنت ، وأنا أنا ، أنا العوّاد إلى الذنب ، وأنت العوّاد إلى المغفرة ، اغفر لي . فقال لي : يا بنيّ ، انظر إلى جبّار الأرض كيف يتضرّع إلى جبّار السماء .

هارُونُ الرَّشيد ورجلٌ :

أمير المؤمنين هارون الرشيد أَمَر يحيى بن خالد بحبْس رجل جنى جِناية ، فحبسه ، ثم سأل عنه الرشيدُ ، فقيل : هو كثير الصلاة والدعاء . فقال للموكّل به : عَرِّضْ له بأنْ يكلّمني ، ويسألني إطلاقَه . فقال له الموكّل ذلك . فقال : قلْ لأمير المؤمنين : إن كلّ يومٍ يمضي من نعمتك يُنقص من محنتي ، فالأمر قريب ، والمَوْعدُ الصراطُ ، والحاكمُ الله . فخرّ الرشيد مغشيًّا عليه ، ثم أفاق وأمر بإطلاقه .

أسلم مولى عمرَ وجعفر بنُ أبي سليمان :

« مَن أبطأ به عملُه لم يُسرعْ به نسبُه » :

روى زيد بن أسلم عن أبيه ، قال : قلت لجعفر بن سليمان بن عبد الله بن أبي طالب الهاشمي ، والي المدينة : احذر أن يأتيَ رجل غدًا ، ليس له في الإسلام نسبة ، ولا أبٌ ، ولا جدٌّ ، فيكون أولى برسول الله منك ، كما كانت امرأة فرعونَ أوْلى بنوحٍ ولوطٍ عليهما السلام من زوْجيْهما ، وكما كانت زوجة نوح ولوط أولى بفرعون من زوجته . مَن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسُبه ، ومن أسرع به عمله لم يُبطئْ به نسُبه .

الأَمينُ بن هارونَ الرشيد :

قال الإمـام أحمد : بلغني أنّ إسماعيل بن عُلَيَّة الحافظ أُدخِل على

الأمين ، فلما رآه ، زحَف ، وجعل يقول : يا ابنَ الفاعلة ، تتكلم في القرآن[١]؟! وجعل إسماعيل يقول : جعلني الله فداك ، زلةٌ من عالِم ، ثم قال أحمد : إنْ يغفرِ اللّهُ له - يعني الأمين - فبها[٢].

شيخ الإسلام ، أبو نعيم ، الفضْل بن دُكَين :

قال الإمام أحمد : شيخانِ كان الناس يتكلمون فيهما ، ويذكرونهما ، وكنا نلقى من الناس في أمرهما ما الله به عليم ، قاما لله بأمر لم يقُم به كبير أحد[٣] .

قال أبو العباس السرّاج عن الكديمي ، قال : لما دخل أبو نُعيم على الوالي ليمتحِنَهُ ، وثَمّ يونس وأبو غسّان وغيرهما ، فأول مَنِ امتُحن فلانٌ فأجاب ، ثم عطَفَ على أبي نُعيم ، فقال : قد أجاب هذا ، فما تقول ؟ فقال : والله ما زلتُ أتّهم جَدَّه بالزندقة ، ولقد أخبرني يونس بن بُكير أنه سمع جدَّه يقول : لا بأس أن يرمي الجمرة بالقوارير . أدركتُ الكوفة وبها أكثر من سبعمائة شيخ ، الأعمش فمَن دونه ، يقولونه : القرآن كلام الله ، وعنقي أهونُ من زِرّي هذا . فقام إليه أحمد بن يونس ، فقبّل رأسه - وكان بينهما شحناء - وقال : جزاك الله من شيخٍ خيرًا[٤].

رحم الله أبا نعيم من إمامٍ حافظ ، قال فيه الإمام أحمد : نُزاحم به سفيانَ بن عُيينة . وقال فيه : كان ثقة ، يقظانَ في الحديث ، ثم قام في أمر

---

(١) وكان إسماعيل يقول بخلق القرآن .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١٢/٩ ، وتاريخ بغداد ٢٣٨/٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٣٤٨/١٢ - ٣٤٩ ، والسير ١٤٩/١٠ .

(٤) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ٤٨١ ، وتاريخ بغداد ٣٤٩/١٢ ، وتهذيب الكمال لوحة ١٠٩٨ .

الامتحان ما لم يقُم غيره ، عافاه الله .

وقال محمد بن عبد الوهاب الفراء : « كنا نهاب أبا نعيم أشدّ من هيبة الأمير » . والجزاء من جنْس العمل .

قال أبو المظفَّر سِبطُ ابن الجوزي في كتابه « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » : قال عبد الصمد بن المهتدي : لما دخل المأمون بغداد ، نادى بترْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ وذلك لأن الشيوخ بقوْا يُضربون ويُحبسون ، فنهاهم المأمون ، وقال : قد اجتمع الناس على إمام . فمرّ أبو نعيم ، فرأى جنديًّا وقد أدخل يديْه بين فخذَي امرأة ، فنهاه بعنْفٍ ، فحمله إلى الوالي ، فيحمله الوالي إلى المأمون ، قال : فأُدخلتُ عليه بُكرةً وهو يُسبِّح ، فقال : توضأ . فتوضأتُ ثلاثًا على ما رواه عبد خير عن علي ، فصلّيتُ ركعتين ، فقال : ما تقول في رجل مات عن أبويْن ؟ فقلت : للأمّ الثلث ، وما بقي للأب . قال : فإنْ خلّف أبوَيْه وأخاه ؟ قلت : المسألة بحالها ، وسقَطَ الأخُ . قال : فإن خلّف أبوين وأخويْن ؟ قلت : للأم السُّدُس وما بقي للأب . قال : في قول الناس كلّهم ؟ قلت : لا ، إن جدّك ابن عبّاس يا أمير المؤمنين ، ما حجَبَ الأمَّ عن الثلث إلا بثلاثة إخوة . فقال : يا هذا ، مَن نهى مثلك عن الأمر بالمعروف ؟! إنما نهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكرًا . ثم خرجتُ[1] .

الإمام الحافظ أبو عثمان ، عفان بن مسلم البصري الصَّفّار :

قال حنبل : حضرت أبا عبد الله وابن معين عند عفّان ، بعدما دعاه إسحاق بن إبراهيم للمحْنة ، وكان أول مَن امتُحن من الناس عفّان ، فسأله يحيى من الغد ، بعد ما امُتحن ، وأبو عبد الله حاضر ونحن معه ، فقال : أخبرْنا بما قال لك إسحاق . قال : يا أبا زكريا ، لم أُسوِّدْ وجهك ولا وجوه

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/١٤٩ - ١٥٠ ، وتاريخ بغداد ١٢/٣٥٠ .

أصحابك ، إني لم أُجبْ . فقال له : فكيف كان ؟ قال : دعاني ، وقرأ عليّ الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة ، فإذا فيه : امتَحِنْ عفّان ، وادعُه إلى أن يقول : القرآن كذا وكذا ، فإن قال ذلك ، فأقرّه على أمره ، وإن لم يجبْك إلى ما كتبتُ به إليك ، فاقطعْ عنه الذي يُجرى عليه . وكان المأمون يُجري على عفان كلَّ شهرٍ خمسمائة درهم ، فلما قرأ عليّ الكتابَ ، قال لي إسحاق : ما تقول ؟ فقرأتُ عليه ﴿ **قل هو الله أحد** ﴾ حتى ختمتُها ، فقلت : أمخلوق هذا ؟ فقال : يا شيخ ، إنّ أمير المؤمنين يقول : إنك إنْ لم تُجبْه إلى الذي يدعوك إليه ، يقطع عنك ما يُجري عليك . فقلت : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما تُوعدون** ﴾ [الذاريات : ٢٢] فسكت عني ، وانصرفت ، فسُرّ بذلك أبو عبد الله ويحيى[(١)] .

قال إبراهيم بن ديزيل : لما دُعي عفان للمحنة ، كنت آخذًا بلجام حماره ، فلما حضر عُرِض عليه القوْل ، فامتنع أن يُجيبَ ، فقيل له : يُحبس عطاؤك . قال : وكان يُعطى في كل شهر ألف درهم . فقال ﴿ **وفي السماء رزقكم وما تُوعدون** ﴾ فلما رجع إلى داره عذله نساؤه ومَن في داره ، قال : وكان في داره نحو أربعين إنسانًا ، فدقّ عليه داقٌّ الباب ، فدخل عليْه رجل شبّهتُه بسمّان أو زيّات ، ومعه كيس فيه ألف درهم ، فقال : يا أبا عثمان ، ثبّتك الله كما ثبَّتَّ الدِّين ، وهذا في كل شهر[(٢)] .

أخي ، « اعلم أنه إذا هذّب الآمر نفسَه ، أثّر قولُه إما في زوال المنكر ، أو في انكسار المذنب ، أو إلقاء الهيبة له في القلوب .

خرج إبراهيم الخوّاص لإنكار منكر فنبح عليه كلبٌ ، فما قَدر على الوصول إلى مكان المنكر ، فرجع إلى مسجده وتفكّر ساعةً ، ثم قام ، فجعل

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/٢٤٤ ، وتاريخ بغداد ١٢/٢٧١ .

(٢) تاريخ بغداد ١٢/٢٧١ - ٢٧٢ ، والسير ١٠/٢٤٥ .

الكلب يتبصْبَص حوله ولا يُؤذيه ، حتى أزال المنكر ، فسئل عما جرى له ، فقال : إنما نبح عليّ لفسادٍ دخل عليّ في عقدٍ بيني وبيْن الله عز وجل ، فلما رجعتُ ذكرته ، فاستغفرت »[1].

عبد الله بن مرزوق :

« لما قدِم المهدي مكة ، لبث بها ما شاء الله ، فلما أخذ في الطّواف نحّى الناس عن البيت ، فوثب عبد الله بن مرزوق ، فلبّبه بردائه ، ثم هزّه وقال له : انظر ما تصنع ! مَن جعلك بهذا البيت أحقّ ممن أتاه من البُعْد ، حتى إذا صار عنده حُلْتَ بينه وبينه ؟! وقد قال الله تعالى : ﴿ **سواءً العاكِف فيه والبَاد** ﴾ مَن جعل لك هذا ؟ فنظر في وجهه - وكان يعرفه لأنه ابن مواليهم - فقال : أعبدُ الله بن مرزوق ؟ قال : نعم . فأُخذ فجيء به إلى بغداد ، فكرِه أن يعاقبه عقوبة يُشنّع بها عليه في العامّة ، فجعله في إصطبل الدوابّ ليَسُوسَ الدوابَّ ، وضمّوا إليه فرسًا عضوضًا سيّيء الخُلُق ، ليعْقره الفرس ، فليّن الله تعالى له الفرس . قال : ثم صيّروه إلى بيْت وأُغلق عليه ، وأخَذَ المهدي المفتاح عنده ، فإذا هو قد خرج بعد ثلاثٍ إلى البستان يأكل البقْل ، فأوذِن به المهدي ، فقال له : مَن أخرجك ؟ فقال : الذي حبسني . فضجّ المهدي وصاح ، وقال : ما تخاف أنْ أقتلك ؟ فرفع عبد الله إليه رأسه يضحك وهو يقول : لو كنتَ تملك حياة أو موتًا . فما زال محبوسًا حتى مات المهدي ثم خلوا عنه ، فرجع إلى مكة . قال : وكان قد جعل على نفسه نذْرًا ، إن خلصه الله مِن أيديهم أن ينحر مائة بدَنة ، فكان يعمل في ذلك ، حتى نحرها »[2].

---

(١) التبصرة ٢/٣٣٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ٢/٣٤٣ - ٣٤٤ .

بِشر بن الحارث الحافي :

« قال فتح بن شخرف : تعلَّق رجل بامرأةٍ ومعه سكين ، لا يدنو منه أحد إلّا عَقَره ، وكان شديد البدن ، فبينا الناس كذلك والمرأة تصيح ، مرّ بشر بن الحارث فدنا منه ، وحكّ كتفه بكتف الرجل ، فوقع الرجل إلى الأرض ، ومرّت المرأة ومَرّ بشر ، فدَنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا ، فسألوه : ما حالك ؟ فقال : ما أدري ولكن حاكّني شيخ وقال : إن الله عز وجل ناظرٌ إليك وإلى ما تعمل . فضَعُفْتُ لقوله وهِبْتُه هيبةً شديدة ؛ لا أدري مَنْ ذلك الرجل . فقالوا له : ذاك بشر بن الحارث . فقال : واسَوْأتاه ، كيف ينظر إليّ بعد اليوم ! وحُمَّ من يومه ذاك . ومات يوم السابع »[1] .

الإمام أحمد بن حنبل :

ومَنْ في الناس كأحمد ، وكل موقفٍ يتضاءل دون موقفه وثباته في فتنة خلْق القرآن ... ويكفِي أن يصدع بالحق الخليفة ويقول : « ايتُوني بشيءٍ من كلام الله أو سُنَّة رسوله ﷺ » .

وكان رحمه الله أمْرًا بالمعروف ونهْيًا عن المنكر يمشي على الأرض .

« قال صالح بن أحمد : كان رجل يختلف إلى عفان ، يقال له : أحمد ابن الحكم العطار ، فختن بعض ولده ، فدعا يحيى وأبا خيثمة وجماعة من أصحاب الحديث ، وطلب إلى أبي أن يحضر ، فمضوا ومضى أبي بعدهم وأنا معه ، فلمَّا دخل أُجلس في بيت ومعه جماعة من أصحاب الحديث ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ، هاهنا آنية من فضة . فالتفت فإذا كرسي ، فقام فخرج ، وتبعه من كان في البيت ، وأُخبر الرجل فخرج فلحق أبي ، وحلف أنه ما علم بذلك ، ولا أمر به ، وجعل يطلب إليه فأبى ، وجاء

---

(١) التبصرة ٢/٣٣١ .

عفان فقال له الرجل : يا أبا عثمان ، اطلب إلى أبي عبد الله يرجع . فكلّمه عفان فأبى أن يرجع ، ونزل بالرجل أمر عظيم .

وعن علي بن أبي صالح السّوّاق قال : كنّا في وليمة باب القبر قال : فجاء أحمد بن حنبل ، فلمّا دخل نظر إلى كرسي عليه فضة فخرج ، فلحقه صاحب المنزل ، فنفض يده في وجهه وقال : زيّ المجوس ، زي المجوس . وخرج »[1].

* * *

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣٤٨ - ٣٤٩ .

□ مواقف الربانيين تُحيي الأمة □
« قد مات في حديدهم أقوام »

حين يَدْلَهِمُّ الخطب ، ويجلُّ الأمر ، ويظهر الفساد ، ويشيع الظلم في كثير من البلدَان التي نَحّت الحكم بما أنزل الله ، حينئذ يخشى الناس على أنفسهم وأولادهم وذويهم ، فيُضطرون إلى الانزواء بعيدًا عن معترك الأحداث ، بل ويخضعون لهذا الواقع المظلم ، ويستسلمون له بعد أن ألجمتْ ألسنتَهم تلك الأوضاع ، فنجدهم قد رضُوا أن يتجرعوا مرارة الصبر ، وربما شربوا كؤوس الذلِّ والمهانة ، لكن الظالم ينسى - حين بغيه وجبروته - تدبير الخالق العزيز الجبار ، وأنه له بالمرصاد ، فيتمادى في بغيه ويزيد في طغيانه ، ولكن يأبى الله إلا أن ينصر دينه ويتمَّ نوره ، ويدحض الباطل ، ويعلي الحق ، فيقيِّض لتلك الشعوب الذليلة المنكسرة من يخرجها من خُنوعها وذلتها ، ويبعث فيها روح العزة والكرامة ، وذلك حين يضحي العلماء والدعاة بأنفسهم ، حينما يقعون تحت سِياط الجلادين وسيوف الجبارين وأعواد المشانق ؛ لأنهم لا يخافون في الله لومة لائم ليقولوا للناس : إن الموت في سبيل الله خير من الموت جبنًا وذلًا . ويقيض الله كذلك لأولئك الظلمة الطغاة من يرهب قلوبهم ، ويزلزل كراسيهم بالصدع بكلمة الحق ابتغاء مرضاة الله ، بعد أن يتخذوا كل الوسائل المتاحة والمشروعة لذلك ، وبعد أن يصرَّ الظالم على ظلمه ، ويقف من شرع الله موقف المعارض ، ويقف من الدعاة إلى الله موقف المعادي والمحارب .

إن إحياء الأمة من مواتها ، وبعثها من غفوتها ونومها ، وإخراجها من عبادة غير الله ، وقيادتها إلى ربها وسوْقها إليه سوقًا جميلًا ، وحمْل هذا الدين والسعي به والجهاد في سبيله - إن هذا وغيره هو من سمات العلماء الفحول عبر تاريخنا المجيد . ونستعرض هنا صورًا من مواقف أولئك العلماء ، لعلها

تكون إحياءً للغافلين ، ورهبة للظالمين ، إذ ضحوا بأرواحهم في سبيل إعلاء دين الله سبحانه ، وهي العزاء لكل مسلم يسوؤه تلك التصرفات الجائرة ضد الدين ودعاته .

ولو استرجعنا التاريخ لوجدنا الأمر لا يكاد يختلف ، بل يسجل التاريخ تلك الحقيقة الجليَّة ألا وهي الصراع بين حزب الرحمٰن وحزب الشيطان ، ولن تموت أمثال هذه الكلمات الصادقة : « ولأموتنَّ في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم ... » !!

فإلى أولئك الذين يسقطون ظلمًا وعدوانًا في الدفاع عن الإسلام ودعوته ؛ ليعلموا أنه قد سبقهم أقوام على الطريق نفسه ، وإليك أخي صورًا من تلك المواقف : ﴿ **سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلًا** ﴾ [الأحزاب : ٣٨] ﴿ **ولن تجد لسنة الله تحويلًا** ﴾ [فاطر : ٤٣] :

الإمام البويطي[1] :

هو العلّامة ، سيّد الفقهاء ، يوسف أبو يعقوب بن يحيى المصري البويطي . صاحَب الشافعيَّ ولازمه مدة ، وفاق الأقران ، وكان إمامًا في العلم قدوة في العمل ، زاهدًا ربانيًا متهجدًا ، دائمَ الذكر .. سعى به أصحابُ ابن أبي دُؤاد ، حتى كتب فيه ابن أبي دُؤاد إلى والي مصر ، فامتحنه - أي في محنة خلق القرآن - فلم يُجب ، وكان الوالي حسن الرأي فيه ، فقال له : قل فيما بيني وبينك . قال : إنه يقتدي بي مائة ألف ، ولا يدرون المعنى !! فأمر به أن يُحمل إلى بغداد .

قال الربيع بن سليمان : رأيته على بغلٍ في عنقه غُلٌّ ، وفي رجليه قيدٌ ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢ / ٥٨ .

وبينه وبين الغلّ سلسلة فيها لَبِنَةٌ- طوبة- وزنها أربعون رطلًا ، وهو يقول: «إنما خَلَقَ الله الخلْق بـ « كن » ، فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقًا خُلق بمخلوق ، ولئن دخلت عليه لأصْدُقَنَّه - يعني الواثق - ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم » .

وتوفي رحمه الله في قيده مسجونًا بالعراق ، في سنة إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة .

الإمام نعيم بن حماد[1] :

هو العلّامة صاحب التصانيف ، وكان شديدًا في الرد على الجهمية ، حُمل إلى العراق في إبّان تلك الغيمة مع البويطي مقيدَيْن .

وكان يقول : « من شبّه الله بخلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف به نفسه فقد كفر ، وليس في ما وصف اللهُ به نفسه ورسولُه تشبيه » .

قال ابن يونس : حُمل على القول بتلك الفرية ، فامتنع أن يجيب ، فسجن ، ومات في سجنه سنة تسع وعشرين ومائتين ، وجُرّ بأقياده ، فأُلْقي في حفرة ، ولم يكفَّن ، ولم يُصلَّ عليه .. وأوصى نُعيمُ بن حماد أن يدفن في قيوده . وقال : « إني مخاصم » .

الإمام الخزاعي[2] :

هو أبو عبد الله أحمد بن نصر الخزاعي ، كان أمّارًا بالمعروف ، قوّالًا بالحق ، من أكابر العلماء العاملين ، ومن أهل العلم والديانة .

حُمل من بغداد إلى سامرّاء مقيدًا ، وجلس له الواثق ، فقال له :

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠ / ٦١٠ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١١ / ٦٧ ، والبداية والنهاية ١٠ / ٣١٨ .

ما تقول في القرآن ؟ قال : كلام الله . قال : أفمخلوق هو ؟ قال : كلام الله . قال : فترى ربك يوم القيامة ؟ قال : كذا جاءتِ الرواية . قال : ويحك ! يُرى كما يُرى المحدود المتجسم ، ويحويه مكان ، ويحصره ناظر ؟! أنا كفرتُ بمن هذه صفته . ما تقولون فيه ؟ فقال قاضي الجانب الغربي : هو حلال الدَّم . ووافقه فقهاءٌ . قال الواثق : ما أراه إلا مؤديًا لكفره ، قائمًا بما يعتقده . ودعا بالسيف ، وقام ، وقال : إني لأحتسب خُطاي إلى هذا الكافر . فضرب عنقه ، بعد أن مدُّوا له رأسَه بحبل ، وهو مقيد .

قال الحسن بن محمد الحربي : سمعت جعفر الصائغ يقول : رأيت أحمد بن نصر - حين قُتل - قال رأسه : لا إلٰه إلا الله . والله أعلم .

وعُلّق في أذن أحمد بن نصر ورقة فيها : هذا رأس أحمد بن نصر ، دعاه الإمام إلى القول بخلْق القرآن ، ونفي التشبيه ، فأبى إلا المعاندة ؛ فجعله الله إلى ناره . وبقي رأسه منصوبًا ببغداد ، والبدن مصلوبًا بسامراء ، وفي رجليه زوج قيود .

هذه صور لابتلاء العلماء على مرِّ التاريخ من الظَّلَمة والطواغيت ، والنتيجة أن أولئك العلماء يُترحم عليهم حتى الآن ، أمَّا أولئك الظلمة المحادُّون لله ولرسوله ولشريعته . فإنهم محلُّ المقت والكراهية .. ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلَب ينقلبون** ﴾ [الشعراء : ٢٢٧][1] .

شيخٌ شاميٌّ يُلقِم كبيرَ المعتزلة حجرًا :

مَنْ أوتي بصيرة في كتاب الله لم يحتج في مناقشة أهل الضلال إلى

---

(١) « مواقف العلماء تحيي الأمة » لحسن قطامس مقال في مجلة البيان عدد ٧٤ شوال ١٤١٤ هـ .

علم الكلام ، ومنطق اليونان ، وعلم الفلسفة ؛ ففي كتاب الله غنًى ، كيف لا ، وهو كتاب الله الذي وضّح الدلائل ، وبيّن المسائل ، ونفى الضلال والباطل ؟! وإذا قَصُر الناس في الاستدلال من القرآن ، وطلبوا الحجة من غيره ؛ فلقصور في عقولهم ، وضعف في بصائرهم . وقد ذكر علماء التاريخ مناقشة أحد علماء السنة لقادة فتنة القوْل بخلْق القرآن ، فألقمهم حجرًا ، وأخزى حقُّه باطلَهم ، وقد اعتمد في حِجَاجه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وهو حِجاجٌ قريب المأخذ ، يدركه الناس بسهولة ويسر ، وتستمع إليه فيأسرك روعةُ الاستدلال ، وقوة الحجة .

حكى المسعودي عن علي بن صالح قال : « حضرت يومًا من الأيام جلوس المهتدي للمظالم ، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي ، فيما يتظلم به إليه - ما استحسنته ، فأقبلتُ أرمُقه ببصري إذا نظر في القصص ، فإذا رفع طرْفه إليَّ أطرقت ، فكأنه علِم ما في نفسي . فقال لي : يا صالح ، أحسب أنَّ في نفسك شيئًا تحب أن تذكره . قال : قلت : نعم يا أمير المؤمنين . فأمسك ، فلما فرغ من جلوسه أمر أن لا أبرح ، ونهض ، فجلست جلوسًا طويلًا ، فقمت إليه ، وهو على حصير الصلاة ، فقال لي : أتحدثني بما في نفسك ، أمْ أحدثك ؟ فقلت : بل هو من أمير المؤمنين أحسن . فقال : كأنني بك وقد استحسنت مِن مجلسنا . فقلت : أيُّ خليفة خليفتنا ، إن لم يكن يقول بقوْل أبيه ، من القول بخلْق القرآن ! فقال - أي الخليفة - : قد كنت على ذلك برهة من الدهر ، حتى أُقدِم عَلَى الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من « أذنه » من الثغر الشامي ، مقيدًا طوالًا ، حسن الشيبة ، فسلّم غيرَ هائب ، ودعا فأوجز ، فرأيت الحياء منه في حماليق عينَي الواثق ، الرحمةَ عليه . فقال : يا شيخ ،

أجبْ أحمد بن أبي دؤاد عما يسألك عنه . فقال : يا أمير المؤمنين ، أحمد يصغُر ، ويضعف ، ويقلُّ عند المناظرة . فرأيت الواثق ، وقد صار مكان الرحمة ، غضبًا عليه . فقال : أبو عبد الله يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك ؟! فقال : هوّن عليك يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في كلامه ؟ فقال الواثق : قد أذنتُ لك . فأقبل الشيخ على أحمد ، فقال : يا أحمد إلامَ دعوت الناس ؟ فقال أحمد : إلى القوْل بخلق القرآن . فقال له الشيخ : مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها ، من القول بخلق القرآن أداخلة في الدين ، فلا يكون الدين تامًّا إلَّا بالقوْل بها ؟ قال : نعم . قال الشيخ : فرسول الله ﷺ دعا الناس إليها أم تركهم ؟ قال : لا . قال له : يعلمُها أم لم يعلمها ؟ قال : عَلِمَهَا . قال : فلمَ دعوتَ إلى ما لم يدعهم رسول الله ﷺ إليه ، وتركهم منه ؟ فَأَمْسَكَ . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، هذه واحدة .

ثم قال له : أخبرني يا أحمد ، قال الله في كتابه العزيز : ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ الآية [المائدة : ٣] ، فقلتَ أنت : الدين لا يكون تامًّا إلَّا بمقالتك بخلق القرآن ، فالله تعالى - عز وجل - صدق في تمامه وكماله ، أم أنت في نقصانك ؟! فَأَمْسَكَ . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثانية .

ثمَّ قال بعد ساعة : أخبرني يا أحمد ، قال الله عز وجل : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ الآية [المائدة : ٦٧] ، فمقالتك هذه التي دعوتَ الناس إليها ، فيما بلَّغه رسول الله ﷺ إلى الأمّة أم لا ؟ فأمسك . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثالثة .

ثمَّ قال بعد ساعة : خبِّرني يا أحمد ، لمّا علم رسول الله ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها ، أتّسع له عن أن أمسك عنها أم لا ؟ قال أحمد :

بل اتَّسع له ذلك . فقال الشيخ : وكذلك لأبي بكر ، وكذلك لعمر ، وكذلك لعثمان ، وكذلك لعلي رحمة الله عليهم ؟ قال : نعم . فصرف وجهه إلى الواثق ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إذا لم يتَّسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه فلا وسَّع الله علينا . فقال الواثق : نعم ، لا وسَّع الله علينا ، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه ، فلا وسع الله علينا . ثمَّ قال الواثق : اقطعوا قيوده ، فلما فُكَّت ، جاذب عليها . فقال الواثق : دعُوه ، ثم قال : يا شيخ،لِمَ جاذبْتَ عليها ؟ قال : لأني عقَدتُّ في نيتي أن أجاذب عليها ، فإذا أخذتُها أوصيتُ أن تُجعل بين يدَي كفني ، ثمَّ أقول : يا ربي ، سَلْ عبدك : لِمَ قيدني ظلمًا ، وارتاع بي أهلي ؟ فبكى الواثق ، والشيخ ، وكلُّ مَنْ حضر . ثمَّ قال له : يا شيخ ، اجعلني في حِلٍّ . فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خرجت من منزلي حتى جعلتُك في حلٍّ ، إعظامًا لرسول الله ﷺ ، ولقرابتك منه . فتهلل وجه الواثق وسُرَّ . ثمَّ قال له : أَقِمْ عندي آنسُ بك . فقال له : مكاني في الثغر أنفع ، وأنا شيخ كبير ، ولي حاجة . قال : سَلْ ما بدا لك . قال : يأذن لي أمير المؤمنين في رجوعي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم . قال : قد أذنت لك . وأمر له بجائزة ، فلم يقبلْها .

قال المهتدي : فرجعتُ من ذلك الوقت عن تلك المقالة ، وأحسب - أيضًا - أن الواثق رجع عنها »[1].

ابن الجوزي والمستضيء بالله :

عبد الرحمٰن بن الجوزي وعظ المستضيء بالله، فقال له: يا أمير المؤمنين،

---

(١) الاعتصام ١ / ٣٢٤ .

إنْ تكلمتُ خفتُ منك ، وإن سكتُّ خفت عليك . فأنا أُقدِّم خوفي عليك من خوفي منك ؛ لمحبتي دوامَ أيامِك . وأن أقدم قول القائل : اتق الله . خيرٌ من قول القائل : إنكم أهل بيت مغفورٌ له . وكان عمر بن الخطاب يقول : إذا بلغني عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ، ولم أغيِّره فأنا الظالم . يا أمير المؤمنين ، كان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط ؛ لئلا يَنسىٰ الجياع . وكان عمر يضرب بطنه عامَ الرمادة ويقول : قرْقِري إن شئت أوْ لا ، والله ، لا شبعْتِ والمسلمون جياع . فترتب على هذه الموعظة أن أطلق أمير المؤمنين المستضيء بالله المحابيس ، وتصدق صدقات كثيرة ، وأشبع الجياع[1] .

الغزالي والسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي :

« في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان » :

كان مما كتبه الإمام الغزالي للسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي : « ويجب أن تعلم أن صلاح الناس في حُسْن سيرة الملك ، فينبغي للملِك أن ينظر في أمور رعيته ، ويقف على قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيرها ، لا يشارك رعيته في الأفعال المذمومة ، ويجب عليه احترام الصالحين ، وأن يثبت على الفعل الجميل ، ويمنع من الفعل الرديء الوبيل ، ويعاقب من ارتكاب القبيح ، ولا يحابي مَنْ أصر على القبيح ؛ ليرغِّب الناس في الخيرات ويحذَرُوا من السيئات ، ومتىٰ كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهىٰ المُفْسِد عن فساده ويتركه على مراده ، أفسد سائر أموره في بلاده . وقال الحكماء : إن طباع الرعية نتيجة طباع الملك ؛ لأن العوامّ إنما يبخلون ، ويركبون الفساد ، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بمُلوكهم ، فإنهم يتعلمون منهم ،

---

(١) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي .

ويلزمون طباعهم ، ألا ترى أنه قد ذُكر في التاريخ أن الوليد بن عبد الملك - من بني أمية - كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة . وكان سليمان بن عبد الملك همّته في كثرة الأكل ، وتطييب الطعام ، وقضائه الأوطار ، وبلوغ الشهوات . وكانت همّة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة . قال محمد بن علي بن الفضيل : ما كنتُ أعلم أمور الرعية تجري على عادة ملوكها ، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكُرْم والبساتين ، واهتموا ببناء الدور ، وعمارة القصور . ورأيتهم في زمان سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام ، حتى كان الرجل يسأل صاحبه : أيَّ لون اصطنعتَ ، وما الذي أكلتَ ؟ ورأيتُهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة ، وتفرغوا لتلاوة القرآن ، وأعمال الخيرات ، وإعطاء الصدقات . لتعلم أن في كلّ زمان تقتدي الرعية بالسلطان ، ويعملون بأعماله ، ويقتدون بأفعاله : من القبيح والجميل ، واتباع الشهوات ، وإدراك الكمالات ، كما يُقال »[1] .

البخاري وأمير بُخارى :

« إني لا أُذِلُّ العلمَ » :

بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي - والي بخارى - إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إليّ كتابَ الجامع والتاريخ ؛ لأسمع منك . فقال محمد بن إسماعيل لرسوله : قل له : إني لا أُذِلُّ العلم ، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين ، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فلْيحضِرني في مسجدي ، أو في داري ، فإن لم يعجبْك هذا فأنت سلطان ، فامنعني من المجلس ؛ ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة : أني لا أكتم العلم ؛ فكان سبب الوحشة ....

---

(١) التبر المسبوك .

بينهما[١] .

النّــوريّ :

صَحِبَ السري ، وكان الجنيد يعظمه ، لكنه في الآخر رقّ له وعذره ، لما فسد دماغُه .

ولما مات قال الجنيد : « ذهب نصف العلم بموته »[٢] .

قال أبو بكر بن الجلّاد : كان النوريّ إذا رأى منكرًا غيّره ، ولو كان فيه تَلَفُه . نزل يومًا ، فرأى زورقًا فيه ثلاثون دَنًّا ، فقال للملّاح : ما هذا ؟ قال : ما يلزمك ؟ فألحّ عليه . قال : أنت - والله - صوفي كثير الفضول ، هذا خمر للمعتضد . قال : أعطني ذلك المِدْرى . فاغتاظ ، وقال لأجيره : ناولْه حتى أُبصر ما يصنع ، فأخذه ، ونزل ، فكسَّرها - كلها - غير دَنٍّ ، فأُخذ وأُدخل إلى المعتضد ، فقال : من أنت ، ويلك ؟ قال : مُحْتَسِب ، قال : من ولّاك الحِسْبة ؟ قال : الذي ولّاك الإمامة يا أمير المؤمنين ، فأطرق ، وقال : ما حملك على فعْلك ؟ قال : شفقة منِّي عليك . قال : كيف سَلِم هذا الدَّنُّ ؟ فذكر أنه كان يكسِّر الدّنان ونفسه مخلصَة خاشعة ، فلما وصل إلى هذا الدَّنِّ ، أعجبته نفسه ، فارْتاب فيها ، فتركه[٣] .

شيخ الإسلام ، المحدِّث الإمام ، أبو الحسن بنانُ الحمّال .

« من يُضرب بعبادته المثَلُ . وقد امتحِن في ذات الله فصبر ، وارتفع شأنه . فنقل أبو عبد الرحمن السلمي في « مِحَن الصوفية » أن بنانًا الحمّال

(١) مقدمة فتح الباري .
(٢) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٧٠ ، ٧٣ .
(٣) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٧٦ .

قام إلى وزير خُمارويه صاحب مصر - وكان نصرانيا - فأنزله عن مركوبه ، وقال : لا تركبِ الخيل وغَيِّر ، كما هو مأخوذ عليكم في الذمة . فأمر خُمارويه بأن يُؤخذ ويُوضع بين يدي سَبُع ، فطُرح ، فبقي ليلةً ، ثم جاءوا والسبع يلحسه وهو مستقبِلٌ القبلة ، فأطلقه خُمارويه واعتذر إليه .

قال أبو علي الروذباري : كان سبب دخولي مصر حكاية بنان الحمال ؛ وذلك أنه أمر ابن طولون بالمعروف ، فأمر به أن يُلقى بين يدي سبع ، فجعل السبُع يشمه ولا يضرُّه ، فلما أُخرج من بين يدي السبع ، قيل له : ما الذي كان في قلبك حيث شمَّك ؟ قال : كنت أتفكر في سؤر السباع ولُعابها »[١] .

لله درُّه مِن سيد مِن سادات المسلمين .. حتى الأُسد الضواري تعرف منزلته ، وتتأدب معه ... خافوا الله وقاموا بحقه ، فخافتهم الأُسد وقاموا بحقهم .

شيخ الإسلام ابنُ الحطيئة ، أبو العباس أحمد بن عبد الله اللخمي :

قال شجاع المدلجي - وكان من خيار عباد الله - : كان شيخنا ابن الحطيئة شديدًا في دين الله ، فظًّا غليظًا على أعداء الله ، لقد كان يحضر مجلسه داعي الدعاة[٢] مع عِظَم سلطانه ، ونفوذ أمره ، فما يحتشمه ، ولا يكرمه ، ويقول : أحمق الناس في مسألة كذا وكذا : الروافض ؛ خالفوا الكتاب والسنة ، وكفروا بالله . وكنتُ عنده يومًا في مسجده بشرق مصر ، وقد حضره بعض وزراء المصريين - أظنه ابن عباس - فاستسقى في مجلسه ، فأتاه بعض غلمانه بإناءٍ فضّةً ، فلما رآه ابن الحطيئة وضع يده على فؤاده ، وصرخ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤ / ٤٨٨ - ٤٨٩ .

(٢) قاضي الخليفة العاضد .

صرخة ملأت المسجد ، وقال : واحَرّها على كبدي ، أَتشربُ في مجلس يُقرأ فيه حديث رسول الله ﷺ في آنية الفضة ؟! لا ، والله لا تفعل ، وطرد الغلام ، فخرج ، وطلب الشيخ كوزًا ، فجيء بكوزٍ قد تثلّم ، فشرب واستحيى من الشيخ ، فرأيتُه - والله - كما قال الله : ﴿ **يتجرَّعُه ولا يكاد يُسيغه** ﴾[1] [إبراهيم : ١٧] .

شيخ الإسلام الهَرَوي الأنصاري ، أبو إسماعيل : عبد الله بن محمد بن علي :

قال تلميذه المؤتمن : كان يدخل على الأمراء والجبابرة ، فما يبالي .

قال عنه الذهبي في السِّير (١٨ / ٥٠٩) : « كان سيفًا مسلولًا على المتكلمين ، له صولةٌ وهيبة واستيلاء على النفوس ببلده ، يعظمونه ، ويتغالون فيه ، ويبذلون أرواحهم فيما يأمر به . كان عندهم أطوع وأرفع من السلطان بكثير ، وكان طوْدًا راسيًا في السُّنة ، لا يتزلزل ولا يلين ، وقد امتُحن مرات ، وأُوذيَ ، ونُفي من بلده .

قال ابن طاهر : سمعتُه يقول : عُرضتُ على السيف خمسَ مرات ، لا يُقال لي : ارجع عن مذهبك . لكن يُقال لي : اسكت عمّن خالفك . فأقول : لا أسكت »[2] .

هذا - والله - الثبات على الحق ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !

« قال الحافظ أبو النضر الفامي : كان شيخ الإسلام أبو إسماعيل بِكْر الزمان ، وواسطة عِقد المعاني ، وصورة الإقبال في فنون الفضائل وأنواع

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٣٤٦ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥٠٩ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٤ .

المحاسن ، منها نُصرةُ الدين والسنة ، من غير مداهنة ولا مراقبةٍ لسلطان ولا وزير . وقد قاسىٰ بذلك قصد الحُسّاد في كلّ وقت ، وسعَوا في رُوحه مرارًا ، وعَمدوا إلى إهلاكه أطوارًا ، فوقاه الله شرَّهم ، وجعل قصدهم أقوى سببٍ لارتفاع شأنه » .

قال ابن طاهر : « حكىٰ لي أصحابنا أن السلطان ألب أرسِلان قَدِمَ هراة ومعه وزيره نظام الملك ، فاجتمع إليه أئمة الحنفية ، وأئمة الشافعية للشكوى من الأنصاري ، ومطالبته بالمناظرة ، فاستدعاه الوزير ، فلما حضر قال : إن هؤلاء قد اجتمعوا لمناظرتك ، فإنْ يكن الحق معك رجعوا إلى مذهبك ، وإن يكن الحق معهم رجعت ، أو تسكت عنهم . فوثب الأنصاري وقال : أناظر على ما في كُمّي . قال : وما في كمِّك ؟ قال : كتاب الله - وأشار إلى كمِّه الأيمن - وسنة رسول الله ، وأشار إلى كمِّه اليسار ، وكان فيه « الصحيحان » ، فنظر الوزير إليهم مستفهمًا لهم ، فلم يكن فيهم مَنْ ناظره من هذا الطريق . وسمعت خادمه أحمد بن أميرجه يقول : حضرتُ مع الشيخ ؛ للسلام على الوزير نظام الملك ، وكان أصحابنا كلّفوه الخروج إليه ، وذلك بعد المحنة ، ورجوعه إلى وطنه بلخ - يعني أنه كان قد غُرِّب - قال : فلما دخل عليه أكرمه وبجّله ، وكان هناك أئمة من الفريقين ، فاتفقوا على أن يسألوه بين يدي الوزير ، فقال العلوي الدبوسي : يأذن الشيخ الإمام أن أسأل ؟ قال : سَلْ . قال: لِمَ تلعن أبا الحسن الأشعري ؟ فسكتَ الشيخ ، وأطرق الوزير ، فلما كان بعد ساعة قال الوزير : أجبْه . فقال : لا أعرف أبا الحسن ، وإنما ألعن من لم يعتقد أن الله في السماء ، وأن القرآن في المصحف ، ويقول : إن النبي ﷺ اليوم ليس بنبيٍّ . ثم قام وانصرف . فلم يُمكن أحدًا أن يتكلم من هَيْبته ، فقال الوزير للسائل : هذا أردتم ! أن نسمع ما كان يذكره بهراة بآذاننا ، وما عسى أن أفعل

به ؟ ثم بعث إليه بصلة وخِلَع فلم يقبلها ، وسافر من فوْره إلى هراة »[١].

قال خادمه : وسمعت أصحابنا بهراة يقولون : لما قدم السلطان ألب أرسلان في بعض قدماته ، اجتمع مشايخ البلد ورؤساؤه ، ودخلوا على أبي إسماعيل ، وسلَّموا عليه ، وقالوا : ورد السلطان ونحن على عزْمٍ أنْ نخرج ونُسلّم عليه ، فأحببنا أن نبدأ بالسلام عليك ، وكانوا قد تواطؤوا على أن حملوا معهم صنمًا من نحاس صغيرًا ، وجعلوه في المحراب تحت سجادة الشيخ ، وخرجوا ، وقام الشيخ إلى خلْوته ، ودخلوا على السلطان واستغاثوا من الأنصاري ، وأنه مجسِّمٌ ، وأنه يترك في محرابه صنمًا ، يزعم أن الله تعالى على صورته ، وإنْ بعث السلطان الآن يجده ، فعظُم ذلك على السلطان ، وبعث غلامًا وجماعة ، فدخلوا ، وقصدوا المحراب ، فأخذوا الصنم ، فألقى الغلام الصنم ، فبعث السلطان مَن أحضر الأنصاري ، فأتى فرأى الصنم والعلماء ، وقد اشتدَّ غضب السلطان ، فقال له السلطان : ما هذا ؟ قال : صنم يُعمل من الصُّفر شبه اللعبة . قال : لستُ عن ذا أسألك . قال : فعمّ يسألني السلطان ؟ قال : إن هؤلاء يزعمون أنك تعبد هذا ، وأنك تقول : إن الله على صورته . فقال شيخ الإسلام - بصولة وصوت جَهْوري -: سبحانك! هذا بهتان عظيم. فوقع في قلب السلطان أنهم كذبوا عليه ، فأمر به ، فأُخرج إلى داره مكرمًا ، وقال لهم : اصدقوني . وهددهم ، فقالوا : نحن في يد هذا في بليّة من استيلائه علينا بالعامة ، فأردنا أن نقطع شرّه عنا ، فأمر بهم ، ووكّل بهم ، وصادرهم ، وأخذ منهم ، وأهانهم[٢].

ما يضيرُ البحرَ أمسىٰ زاخِرًا أنْ رمىٰ فيهِ غلامٌ بِحَجَرْ

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥١١ - ٥١٢ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٧ - ١١٨٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥١٢ ، وتذكرة الحفاظ ٣ / ١١٨٨ - ١١٨٩ .

ولله در القائل :

يَا نَاطِحَ الجبـلِ العـالي لتُكْلِمَهُ ... أشفقْ على الرأْس لا تُشفق عَلى الجبلِ

الحافظ الأثري عبد الغني المقدسي :

« قال الضِّياء : أخبرني خالي موفق الدين ، قال : كان الحافظ عبد الغني جامعًا للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصِّبا ، وفي طلب العلم ، وما كنا نستبق إلى خير إلَّا سبقني إليه ، إلا القليل ، وكمّل الله فضيلته بابتلائه بأذى أهل البدعة وعداوتهم .

قال الضياء : كان لا يرى منكرًا إلَّا غيّره بيده أو بلسانه ، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم . قد رأيته مرة يهريق خمرًا ، فجبذ صاحبه السيف فلم يَخَفْ منه ، وأخذه من يده ، وكان قويًّا في بدنه ، وكثيرًا ما كان بدمشق ينكر ويكسر الطنابير والشَّبابات . قال خالي الموفق : كان الحافظ لا يصبر عن إنكار المنكر إذا رآه ، وكنّا مرة أنكرنا على قومٍ وأرقنا خمرهم وتضاربنا ، فسمع خالي أبو عمر ، فضاق صدره ، وخاصمنا ، فلما جئنا إلى الحافظ طيّب قلوبنا ، وصوّب فعلنا ، وتلا ﴿ **وانْهَ عن المنكر واصبرْ على ما أصابك** ... ﴾ [لقمان : ١٧] .

وسمعت أبا بكر بن أحمد الطحان ، قال : كان بعض أولاد صلاح الدين قد عُمِلَتْ لهم طنابير ، وكانوا في بستان يشربون ، فلقي الحافظ الطنابيرَ فكسَّرها . قال : فحدثني الحافظ ، قال : فلما كنتُ أنا وعبد الهادي عند حمَّام كافور ، إذا قوم كثير معهم عِصِيٌّ فخفّفتُ المشي ، وجعلت أقول : « حسبي الله ونعم الوكيل » ، فلما صرت على الجِسر لحقوا صاحبي ، فقال : أنا ما كسرت لكم شيئًا ، هذا هو الذي كسر ، قال : فإذا فارس يركض فترجَّل ، وقبّل يديّ ، وقال : الصبيان ما عرفوك . وكان قد وضع الله

لهُ هيبة في النفوس »[١].

هذه واللهِ أحلىٰ مذاقًا منَ العسل ...

« قال فضائل بن محمد المقدسي : سمعتُهم يتحدثون بمصر أن الحافظ كان قد دخل على العادل فقام له ، فلما كان اليوم الثاني جاء الأمراء إلى الحافظ ، مثل سركس وأزكش ، فقالوا : آمنا بكرامتك يا حافظ . وذكروا أن العادل قال : ما خِفْتُ من أحدٍ ما خفتُ من هذا . فقلنا : أيُّهَا الملك هذا رجل فقيه . قال : لما دخل ما خُيِّل إليّ إلّا أنه سَبُع . وبلغني - بعدُ - عنه أنه قال : ما رأيتُ بالشام ولا مصر مثل فلان ، دخل عليّ فَخُيِّل إليّ أنه أسد .

قال الضياء : كانوا قد أوغروا عليه صدر العادل ، وتكلموا فيه ، وكان بعضهم أرسل إلى العادل يبذل في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار »[٢].

قال الذهبي في السير : جرّ هذه الفتنة نشر الحافظ أحاديث النزول والصفات ، فقاموا عليه ورمَوْه بالتجسيم ، فما دارى كما كان يداريهم الموفق .

وحكىٰ الأمير درباس أنه دخل مع الحافظ إلى الملك العادل ، فلما قضىٰ الملك كلامه مع الحافظ ، جعل يتكلم في أمر (ماردين) وحصارها ، فسمع الحافظ فقال : أيش هـذا ، وأنت بعدُ تريد قتال المسلمين ، ما تشكر الله فيما أعطاك ، أمَا ... أمَا ؟! قال : فما أعاد ولا أبدى . ثم قام الحافظ وقمتُ معه ، فقلت : أيش هذا ؟ نحن كنا نخاف عليك من هذا ،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١ / ٤٥٣ - ٤٥٥ .

(٢) السير ٢١ / ٤٥٥ .

ثم تعمل هذا العمل ؟! قال : أنا إذا رأيتُ شيئًا لا أقدر أصبر .

وسمعتُ أبا بكر بن الطحان ، قال : كان في دولة الأفضل جعلوا الملاهي عند الدَّرج - يعني درج جيرون - فجاء الحافظ فكسّر شيئًا كثيرًا ، ثم صعد المنبر يقرأ الحديث ، فجاء رسول القاضي يأمره بالمشي إليه ليناظره في الدُّفّ والشبابة ، فقال : ذاك عندي حرام ، ولا أمشي إليه . ثم قرأ الحديث ، فعاد الرسول ، فقال : لا بُدّ من المشي إليه ، أنت قد بطّلتَ هذه الأشياء على السلطان . فقال الحافظ : ضرب الله رقبته ورقبة السلطان . فمضى الرسول وخفنا . فما جاء أحد[1] .

قال الحافظ عبد الغني : سألت الله أن يرزقني مثل حال الإمام أحمد ، فقد رزقني صلاته . قال : ثم ابتُلي بعد ذلك وأوذي .

ولقد ناظر الفقهاءَ ، وثبت على عقيدة أهل السنة أمام الأشاعرة ، وصدع بها فوشوا به إلى الحكام والسلاطين ، وبدّعوه وكفّروه ، وهمُّوا أن يقتلوه . رحمه الله .

ولقد أُمِرَ الحافظ أن يكتب اعتقاده ، فكتب : أقول كذا ، لقول الله كذا . وأقول كذا ؛ لقول الله كذا ، ولقول النبي ﷺ كذا . حتى فرغ من المسائل التي يخالفون فيها ، فلما رآها الكامل قال : أيش أقول في هذا ، يقول بقوْل الله ، وقول رسوله ﷺ ؟!

ناظره القاضي محيي الدين ، والخطيب ضياء الدين ، وجماعة ، فصعدوا إلى القلعة ، وقالوا لواليها : هذا قد أَضلّ الناس ، ويقول بالتشبيه . وارتفعت الأصوات ، فقال والي القلعة الصَّارم برغش : كلّ هؤلاء على

---

(١) السير ٢١ / ٤٥٥ - ٤٥٦ .

ضلالة وأنت على الحق ؟ قال : نعم . فأمر بكسر منبره .

رحم الله الحافظ عبد الغني ، فقد كان سيدًا من سادات أهل الدين والعلم ، والتألُّه ، والصدْع بالحق .

العماد المقدسي « جوهرة عصره » :

قال عنه الضياء المقدسي : ما علمت أنه دخل إلى سلطان ولا والٍ ، وكان قويًّا في أمر الله ، ضعيفًا في بدنه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، أمّارًا بالمعروف ، لا يرى أحدًا يُسيء صلاته إلا قال له ، وعلَّمَه .

قال : وبلغني أنه أتى فُسَّاقًا ، فكسّر ما معهم ، فضربوه حتى غُشي عليه ، فأراد الوالي ضربَهم ، فقال : إنْ تابوا ولازموا الصلاة فلا تُؤْذِهم ، وهُم في حِلٍّ . فتابوا[١].

أسد الشَّام اليونيني ، عبد الله بنُ عثمان بن جعفر :

قال الشيخ علي القصار : كنت أَهَابه كأنه أسد .

وقال الذهبي : كان أمّارًا بالمعروف لا يهاب الملوك .

قيل : إن العادل أتى والشيخ يتوضأ ، فجعل تحت سجادته دنانير ، فردّها وقال : يا أبا بكر،كيف أدعو لك والخمور دائرة في دمشق ، وتبيع المرأة وقية ، يؤخذ منها قراطيس ؟! فأبطل ذلك .

وقيل : جلس بين يديه المعظم وطلب الدعاء منه ، فقال : يا عيسى ، لا تكن نحسًا مثل أبيك ، أظهر الزغل[٢] ، وأفسد على الناس ....

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ٤٩ - ٥٠ .

(٢) العملة المغشوشة .

المعــاملة[١] .

البربهاري شيخ الحنابلة القدوة الإمام أبو محمد الحسن بن علي :

كان قوّالًا بالحق ، داعيةً إلى الأثر ، لا يخاف في الله لومة لائم . وكان له - رحمه الله - مجاهداتٌ ومقامات في الدين ، وكانت له المنزلة الرفيعة في قلوب الناس .

وكان له أصحاب كثيرون ، ثم لم تزل المبتدعة توحش قلب الراضي عليه ، حتى نُودي في الناس : لا يجتمع اثنان مـن أصحاب البربهـاري . فاختفى ، وتوفي مستترًا ، فدفن بدار أخت توزون .

سلطان العلماء ، وبائع الملوك والأمراء : أبو محمد عِزُّ الدين عبد العزيز ابن عبد السلام بن أبي القاسم :

« شيخ الإسلام والمسلمين ، وأحد الأئمة الأعلام ، سلطان العلماء ، إمام عصره بلا مدافعة ، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه ..... لم ير مثل نفسه ، ولا رأى من رآه مثلَه ، علمًا وورعًا وقيامًا في الحق ، وشجاعة وقوةَ جنانٍ ، وسلاطة لسان »[٢] .

وقال عنه ابن حجر : « كان عالي الهمة ، بعيد الغوْر في فهم العلوم ..... وكان قائمًا بالأمر بالمعروف ، لا يخاف في ذلك كبيرًا ولا صغيرًا »[٣] .

وذكر اليافعي أن الإمام العزَّ كان جبل إيمان ، لا يخشى سلطانًا ، ولا يهاب سَطوة الملك ، بل يعمل بما أمر الله ورسوله به ، وما يقتضيه الشرع

(١) سير أعلام النبلاء ٢٢ / ١٠١ - ١٠٢ .
(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٠٩ .
(٣) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر ٢ / ٣٥١ .

المطهـر[١].

أمرُه بالمعروف ونهيُه عن المنكر للملك الأشرف موسىٰ بن الملك العادل ابن أيوب :

دخل سلطان العلماء على الملك الأشرف في مرضِ موْته ، فقبَّل الأشرف يده ، وقال له : ادعُ الله لي ، وأوصني وانصحني . فقال له عزّ الدين : أمّا دعائي للسلطان ، فإني أدعو له في كثير من الأحيان ؛ لما في صلاحه من صلاح المسلمين والإسلام ، والله تعالى يُبَصِّر السلطان فيما يبيِّض به وجهه يوم يلقاه ، وأما وصيتي ونصيحتي للسلطان،فقد وجبت وتعيّنت لقبوله وتقاضيه ، وكان قُبَيْل مرضه قد وقع بينه وبين أخيه السلطان - الملك - الكامل واقع ووحشة ، وأمر وهو في ذلك المرض بنصْب دِهليزه إلى صوْب مصر ، وضرب منزلة تُسمّىٰ : الكُسوة[٢] ، وكان في ذلك الزمان قد ظهر التَّتُرُ بالمشرق ، فقال الشيخ للسلطان - الملك - الكامل : أخوك الكبير وَرَحِمُكَ ، وأنت مشهور بالفتوحات والنصر على الأعداء ، والتَّتُرُ قد خاضوا بلاد المسلمين ، تترك ضرْب دهليزك إلى أعداء الله وأعداء المسلمين ، وتضربه إلى جهة أخيك ! فينقل السلطان دهليزه إلى جهة التتار ، ولا تقطعْ رَحِمَك في هذه الحالة ، وتنوي مع الله نصر دينه وإعزاز كلمته ؛ فإنْ مَنَّ الله بعافية السلطان رجوْنا من الله إدالته على الكفار ، وكانت في ميزانه هذه الحسنة العظيمة ، فإنْ قضىٰ الله تعالى بانتقاله إليه كان السلطان في خفارة نِيَّته . فقال له : جزاك الله خيرًا عن إرشادك ونصيحتك . وأَمَر - والشيخ حاضر - في الوقت بنقل دهليزه إلى الشرق ، إلى منزلة يُقال لها : القُصير[٣] ، فنُقل

(١) مرآة الجنان لليافعي ٤ / ١٥٥ .

(٢) أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر .

(٣) هذه المنزلة هي القرية التي تُسمّىٰ اليوم باسم : الجعافرة . إحدىٰ قرى مركز =

في ذلك اليوم . ثم قال له : زدني من نصائحك ووصاياك . فقال له : السلطان في مثل هذا المرض ، وهو على خطر ، ونُوّابُه يُبيحون فروج النساء ، ويُدمنون الخمور ، ويرتكبون الفجور ، ويتنوَّعون في تمكيس المسلمين ، ومن أفضل ما تلقى الله به أن تتقدم بإبطال هذه القاذورات ، وبإبطال كلِّ مَكْسٍ ، ودفْع كلِّ مظلمة . فتقدم رحمه الله - للوقت - بإبطال ذلك كله ، وقال له : جزاك الله عن دينك وعن نصائحك ، وعن المسلمين خيرًا ، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنِّه وكرمه . وأطلق له ألف دينار مصرية فردَّها عليه ، وقال : هذه اجتماعةٌ لله لا أكدِّرها بشيء من الدنيا ، وودَّع الشيخ السلطان ، ومضى إلى البلد ، وقد شاع عند الناس صورة المجلس ، وتبطيل المنكرات ، وباشَرَ الشيخ بنفسه تبطيلَ بعضها »[1] .

إنكارُه على مَلِك دمشق التَّنازُل عن ديار المسلمين ، وعقْد الصُّلح مع الفرنجة الصليبيين المعتدين :

« لما تحالف الصالح إسماعيل - المعروف بأبي الخبيش ، حاكم دمشق - مع الصليبيين ، وأسلمهم قلعة صَفْد ، وقلعة الشقيف ، وصيدا ، وبعض ديار المسلمين اختيارًا ؛ لينجدوه على الصالح نَجم الدين أيوب ، حاكم مصر ؛ لأنّ الصالح إسماعيل خاف منه فكاتب الفرنجة ؛ ليساعدوه ضد ابن أخيه حاكم مصر ، فدخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح ، ليقاتلوا المسلمين ، فشقّ ذلك على سلطان العلماء مشقةً عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح ، وعلى المتدينين من المتعيِّشين مِنَ السلاح ، فاستفتَوا الشيخ في مبايعة الفرنج السلاح ، فقال : يحرُم عليكم مبايعتُهم ؛ لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به

= فاقوس ، محافظة الشرقية .

(١) طبقات الشافعية ١٠ / ٢٤٠ - ٢٤١ .

إخوانكم المسلمين .

وترك عز الدين الدعاء للحاكم في الخطبة ، وجدّد دعاءه - في الجامع - الذي كان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين : « اللهم أبرِمْ لهذه الأمة أمرًا رشدًا تُعِزُّ فيه وليّك ، وتُذِلُّ فيه عَدُوّك ، ويُعمل فيه بطاعتك ، ويُنهى فيه عن معصيتك » والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين ، والنصر على أعداء الله الملحدين .

فكاتب أعوانُ الشيطانِ السلطانَ بذلك ، وحرّفوا القول وزخرفوه ، فجاء كتابه باعتقال الشيخ ، فبقي مدة معتقلًا ، ثم وصل الصالح إسماعيل ، وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات ، فأقام مدةً بدمشق ، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس ، فوافاه الملك الناصر داود في الفوْر ، فقطع عليه الطريق وأخذه ، وأقام عنده بنابلس مدة ، وجرت له معه خطوبٌ ، ثم انتقل إلى بيت المقدس وأقام به مدة ، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور - صاحب حمص - وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسيّر الصالح إسماعيل بعض خواصّه إلى الشيخ بمنديله ، وقال له : تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطُّف وتستنزله ، وتعِدُه بالعوْد إلى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك تدخل به عليّ ، وإنْ خالفك فاعتقلْه في خيمة إلى جانب خيمتي . فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرَع في مُسايسته وملاينته ، ثم قال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان ، وتقبِّل يده لا غيره »[1] . وهنا قال سلطان العلماء كلماته النَّيِّرة ، وهي كلمات للحياة ، فيها استعلاءُ أهل العلم وعزَّة العقيدة ، خرَّ من هوْل هذه الكلمات رسولُ الحاكم . قال

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

عز الدين : « والله يا مسكين ، ما أرضاه أن يُقبِّل يدي ، فضلًا أن أُقبِّل يدَه . يا قوم ، أنتم في وادٍ ، وأنا في وادٍ ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به »[1].

عزةُ سلطان العلماء بربه .. يصون يده المتوضِّئة عن ملامسة عميل للصليبيين ، وإن كان سلطانَ دمشق .. يصون يده التي تكتب العلم وتسجد لمولاها .

لَوْ كَانَ فيهِمْ مَنْ عَراهُ غرامُ ... ما عنّفوني في هواهُ ولامُوا[2]
لكنَّهم جهِلُوا لَذاذةَ حُسْنِهِ ... وعلمْتُها ولذَا سَهِرْتُ ونامُوا
لَوْ يعلمُونَ كَمَا علمتُ حقيقةً ... جَنحُوا إلى ذاك الجَنَابِ وهامُوا
أوْ لَوْ بدتْ أنوارُهُ لعُيونِهمْ ... خَرُّوا ولم تثبُتْ لهم أقدامُ
مولايَ عِزَّ الدين عَزّ بكَ العُلا ... فَخَرًا فدونَ حِذاكَ مِنْهُ الْهامُ
جاوزتَ حدَّ المدْح حتى لم يُطِقْ ... نظْمًا لفضلِكَ في الورىٰ النَّظَّامُ
فعليكَ يا عبدَ العزيز تحيةٌ ... وعليكَ يا عبدَ العزيز سَلامُ[3]

يقول الشيخ شرف الدين عبد اللطيف ولد الشيخ سلطان العلماء ، فيما حكاه السُّبكي في « طبقات الشافعية » بعد مقولة الشيخ لرسول السلطان :

« فقال له : قد رسم لي إنْ لم توافق على ما يُطلب منك وإلا اعتقلتك . فقال : افعلوا ما بدا لكم . فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خَيْمة السلطان . وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه ، فقال يومًا لملوك

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .
(٢) هذا البيت لسلطان العلماء ، وما بعده لتلميذه عمر بن عبد العزيز الأسواني قاضي أسوان .
(٣) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٦ - ٢٤٧ .

الفرنج : تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ قالوا : نعم . قال : هذا أكبر قُسُوس المسلمين ، وقد حبستُه لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلتُه عن الخطابة بدمشق وعن مناصبه ، ثم أخرجتُه فجاء إلى القدس ، وقد جدّدتُ حبسه واعتقاله لأجْلِكم . فقالت له ملوك الفرنج : لو كان هذا قِسِّيسَنا لغسَلْنَا رجليه ، وشربنا مرقتها »[١].

لله ما أحلىٰ هذه الكلمة وأطيبها ... « صَدَقَكَ وهو كذوب » ... ونور الحق لا يخفىٰ ، وجمال الشيخ وهيبته ، وحسن موقفه يشهدُ به الأعداء .. وهذه شهادة الكفار في حقّه .. فما بالُ أذنابهم ؟!

قَدْ تُنكرُ العيْنُ ضَوْءَ الشمسِ مِنْ رَمَدٍ   ويُنكرُ الفمُ طَعْمَ الماءِ مِن سقَمِ

« ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله تعالى الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج ، ونجّى الله سبحانه وتعالى الشيخ ، فجاء إلى الديار المصرية ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب رحمه الله ، وولّاه خطابة مصر وقضاءَها ، وفوّض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة ، واتفق له في تلك الولايات عجائبُ وغرائبُ » .

عالم تَهابُهُ المبتدعة والملوك :

« كان رحمه الله سيفًا ذا حدَّيْن : حدٌّ سلّه على ترف الملوك ولهْوهم ولعبِهم ومنكرهم ، وآخر على بِدَع العوامّ ، بجرأة لا نظير لها ، ولو كان وراء ذلك السجنُ أو الموتُ ، فيُمْضي اللهُ كلمته في الملك والمملوك . وترجم ذلك قولًا وعملًا[٢] ، فكان يقول :

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٤ .

(٢) صفحات مطويّة من حياة سلطان العلماء بقلم سليم بن عيد الهلالي صـ ٦٥ - طبع دار ابن الجوزي .

طُوبى لمن تولَّى شيئًا من أمور المسلمين ، فأعان على إماتة البدع ، وإحياء السنن[1] .

وأبطل بدعًا كثيرة منها : صلاة الرغائب المبتدَعة ، وصلاة ليلة النّصف من شعبان ، ودقّ المنبر بالسيف .

ولله درُّه حين يقول في نُصرة الحق : « ينبغي لكلِّ عالم إذا أُذل الحقُّ ، وأُخمل الصوابُ أن يبذل جهده في نصرهما ، وأن يجعل نفسه بالذلِّ والخمول أولى منهما ، وإنْ عزّ الحق فظهرَ الصوابُ ، أن يستظل بظلِّهما ، وأن يكتفيَ باليسير مِن رشاش غيرهما »[2] .

وقال رحمه الله في « الفتاوى » (٧١ - ٧٢) مُنَبِّهًا على خطورة البدع الزاعمة أن في الإسلام قشرًا ولُبابًا : « لا يجوز التعبير عن الشريعة بأنها قشرٌ ، مع كثرة ما فيها من المنافع والخير ، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشرًا ، وأنّ العلم الملَقّب بعلم الحقيقة جزءٌ من أجزاء الشريعة ؟! ولا يُطلق مثل هذه الألقاب إلا غبيٌّ شقيّ ، قليل الأدب . ولو قيل لأحدهم : إن كلام شيخك قُشورٌ ، لأنكَرَ ذلك غاية الإنكار ، ويطلق لفظ القشور على الشريعة ! وليست الشريعة إلا كتاب الله وسنة رسوله . فيعزَّر هذا الجاهل تعزيرًا يليق بمثل هذا الذنب .

وكان سلطان العلماء رحمه الله يقوم بإنكار المنكر وإبطال البدع بنفسه ، فقد اتفق أن الوزير فخر الدين عثمان ابن شيخ الشيوخ ، أستاذ دار الملْك - وهو الذي كان إليه أمر المملكة - عمد إلى مسجد بمصر ، فعمل على ظهره بناءً ....

---

(١) مساجلة علمية صـ ١٠ .

(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٥ .

لطبلخانات[١]، وبقيتْ تَضْرِبُ هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدْم البناء ، بل وذهب بنفسه وجماعته وهدَم البناء . ولما علم الوزير غضب لذلك ، فقام الشيخ بالإشهاد عليه ، وأسقط عدالته ، وحكم بفسْقه ، وعزل نفسه عن القضاء ، ولم تسقط بذلك منزلة الشيخ عند السلطان ، ولكنه لم يُعِدْه إلى الولاية ، وظنَّ فخر الدين أن هذا الحكم لا يتأثر به فخر الدين في الخارج .

العزُّ ونجم الدين أيوب :

وقد كانت له قصة - أيَّ قصة - مع نجم الدين أيوب سلطان مصر .

ونجم الدين هو نجم الدين ظلمًا وجبروتًا .

قال عنه صاحب النجوم الزاهرة : « كان كثير التخيُّل والغضب ، والمؤاخذة مع الذنب الصغير ، والمعاقبة على الوهْم ، لا يقيل عثْرةً ، ولا يقبل معذرة ، ولا يرعى سالف خدمةٍ ، السيئة عنده لا تُغتفر ، وكان جبارًا متكبرًا ، شديد السطوة ، كثير التجبُّر على أصحابه ونُدمائه وخواصِّه ، ثقيل الوطأة ، حتى إن خواصَّه لم يكونوا يأمنون سطوته ، ولا يقدرون على الاحتراز منه ، ولم يكن في خلقه الميْل لأحدٍ من أصحابه ولا أهله ولا أولاده ، ولا المحبة لهم ، ولا الحنوُّ عليهم على ما جرت به العادة »[٢].

قال أبو الحسنْ الباجي تلميذ العز : « طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفِّين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قَوْمِه في زينته ، على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذتِ الأمراءُ تقبّل الأرض بين

---

(١) أي : دار لهوٍ وغناء .

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦ / ٣٣٥ .

يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه : يا أيوب .. ما حجتك عند الله ، إذا قال لك : يا أيوب ألم أُبَوِّئ لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟! فقال : هل جرى هذا ؟ قال : نعم ، الحانة الفلانية تُباع فيها الخمور ، وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة - يناديه بأعلى صوته ، والعساكر واقفون - فقال : يا سيدي ، هذا ما أنا عملته ، هذا من زمان أبي . فقال : أنت من الذين يقولون:﴿ **إنا وجدْنا آباءَنا على أمَّة** ... ﴾ [الزخرف : ٢٢] فَرَسَمَ السلطان بإبطال تلك الحانة .

يقول الباجي : فسألتُ الشيخ لمَّا جاء من عند السلطان ، وقد شاع هذا الخبر : يا سيدي ، كيف الحال ؟ فقال : يا بنيَّ ، رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه ؛ لئلا تَكْبُر عليه نفسه فتؤذيه . فقلت : يا سيدي ، أما خفتَه ؟ فقال : واللهِ يا بني استحضرت هَيْبة الله تعالى ، فصار السلطان قُدّامي كالقط »[(١)].

لله ما أعطرَ هذا الكلام .. وإنْ شئتَ فهناك ما هو أحلى وأعطرَ :

« **أمـراءُ للبَيْع** » :

حكى السُّبكي والسيوطي أنه « لما تولَّى الشيخ عزُّ الدين القضاء تصدّى لبيْع أمراء الدولة مِنَ الأتراك ، وذكر أنه لم يثبتْ عنده أنهم أحرار ، وأن حكم الرِّق مستصحبٌ عليهم لبيْت مال المسلمين ، فبلغهم ذلك ، فعظُم الخَطْب عندهم ، واضَّرم الأمر ، والشيخ مصمِّم لا يصحِّح لهم بَيْعًا ولا شراءً ولا نكاحًا ، وتعطلتْ مصالحهم لذلكْ ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثار غضبًا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : نعقد لكم مجلسًا ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عِتقُكم بطريق شرعي ، فرفعوا الأمر

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢١١ ، وطبقات المفسرين للداودي ١ / ٣١١ .

إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجعْ ، فجَرَتْ من السلطان كلمة فيها غِلظة ، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر وأنه لا يتعلق به ، فغضب الشيخ وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمار آخر ، ومشىٰ خلفهم خارجًا مِنَ القاهرة قاصدًا نحو الشام ، فلم يصل إلى نحو نصف بريد إلا وقد لحقه غالبُ المسلمين ، لم تكدِ امرأة ولا صبي ولا رجل لا يُؤْبَه إليه يتخلف ، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له : متىٰ راح ذهب ملكُك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه ، فرجع ، واتفقوا معهم على أنه يُنادَى على الأمراء ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالمُلاطفة فلم يُفِدْ ، فانزعج النائب ، وقال : كيف ينادي علينا هذا الشيخ ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ؟! والله لأضربنَّه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ ، والسيف مسلول في يده ، فطرَق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، وشرح له الحال فما اكترث لذلك ، وقال : يا ولدي أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله . ثم خرج ، فحين وقع بصره على النائب يُبِسَتْ يد النائب ، وسقط السيف منها ، وأرعدتْ مفاصلُه ، فبكىٰ ، وسأل الشيخ أن يدعو له ، وقال : يا سيدي ، أيش تعمل ؟ قال : أنادي عليكم ، وأبيعكم . قال : ففيمَ تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين . قال : وَمَن يقبضه ؟ قال : أنا ، فتمّ ما أراد ، ونادىٰ على الأمراء واحدًا واحدًا ، وغالىٰ في ثمنهم ، ولم يبِعْهم إلا بالثمن الوافي ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير ، وهذا ما لم يُسمع بمثله عن أحد . رحمه الله تعالى »[1] .

ولقوة الشيخ في الحق وجرأته في بيانه ، وأمره بالمعروف ونهيه عن

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ٢ / ١٦٢ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٢١٦ .

المنكر ، لا يهاب أحدًا إلا الله ، ولا يخشى مِن دونه شيئًا . رُوي عن الملك الظاهر بيبرس أنه لما توفي الإمام العز ، ومرَّت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك كثرة الخلق الذين معها ، قال لبعض خواصّه : « اليوم استقر أمري في الملك ؛ لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس : اخرجوا عليه . لانتزع الملك مِني »[١] .

وبرغم هذا ، فقد كان الملك الظاهر بيبرس يجلّ سلطان العلماء ، « ولم يبايع بيبرس واحدًا من الخليفة المستنصر والحاكم إلا بعد أن تقدمه الشيخ عزّ الدين للمبايعة ، ثم بعده السلطان ، ثم القضاة . ولما مات حزن عليه كثيرًا حتى قال : لا إلٰه إلا الله ، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي ، وشيّع أمراءه وخاصته وأجناده لتشييع جنازته ، وحَملَ نعشَه ، وحضر دفنه »[٢] .

فاتفق أن جهّز السلطان الملك الصالح رسولًا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلما وصل الرسول إلى الديوان ووقف بين يدي الخليفة ، وأدّىٰ الرسالة خرج إليه وسأله : هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال : لا ، ولكن حمّلنيها عن السلطان فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ داره . فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته ، فرجع الرسول إلى السلطان حتى شافهه بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد وأدّاها[٣] .

بأبي وأمي من يحكمون ، ويخضع لحكمهم الخلفاء والسلاطين .

---

(١) طبقات الشافعية لابن قاضي شبة ٢ / ١٣٩ ، وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ٢١٥ ، وطبقات المفسرين للداودي ١ / ٣١٦ .

(٢) طبقات الشافعية ٨ / ٢٤٥ .

(٣) طبقات الشافعية بتصرف ٨ / ٢١٠ - ٢١١ .

أمره بالمعروف أيام قطز :

« لما دَهَم التتار البلاد عُقَيْبَ واقعة بغداد ، جَبُنَ أهل مصر عنهم ، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض ، استشاروا الشيخ عزّ الدين رحمه الله ، فقال : اخرجوا ، وأنا أضمن لكم على الله النصر . فقال السلطان له : إن المال في خزانتي قليل ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار . فقال له الشيخ عز الدين : إذا أحضرتَ ما عندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحليّ الحرام ، وضربتَه سكّة ونقدًا ، وفرّقته في الجيش و لم يقمْ بكفايتهم ذلك الوقت ، اطلبِ القرْض ، وأمّا قبل ذلك فلا . فأحضر السلطان والعسكر - كلهم - ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة ؛ بحيث لا يستطيعون مخالفته ، فامتثلوا أمره ، وانتصروا »(١) .

ابن دقيق العيد :

قال السبكي في «طبقات الشافعية» (٩/ ٢١٢) عن شيخ الإسلام ابن دقيق العيد : « كان يخاطب عامّة الناس ، السلطان فمَن دونه ، بقوله : يا إنسانُ . وإن كان المُخاطَب فقيهًا كبيرًا قال : يا فقيه . وتلك كلمة لا يسمحُ بها إلا لابن الرفعة ، ونحوه . وكان يقول للشيخ علاء الدين الباجي : يا إمام . ويخصُّه بها »(٢) .

هذا الإمام العظيم الأمّار بالمعروف الذي كانت تَهابه الملوك ، وكان سلطانُ مصر إذا رآه من على البعد قام له ، فإذا وصل عنده قبّل السلطان يده ، فيقول له شيخ الإسلام : هذا خير لك ، هذا ينفعك .

هذا هو العالم الرباني .. أما علماء السوء ، فأصدق وصفٍ للفرد منهم

---

(١) طبقات الشافعية ٨ / ٢١٥ .

(٢) طبقات الشافعية ٩ /

قول الشاعر :

يرمـرِمُ مِـنْ فُتات الكُفر قُـوتًا ... ويشـربُ مِنْ كُؤوسِهِمُ الثّمالَهْ
يُقَبِّـلُ راحَـةَ الطاغـوتِ حِينًا ... وَيَلْثَمُ دُونمـا خجـلٍ نِعَـالَهْ

الإمام النَّـووي :

كان مواجِهًا للملوك والجبابرة بالإنكار ، ولا تأخذه في الله لومةُ لائم ، وكان إذا عجز عن المواجهة ، كتب الرَّسائل ، وتوصل إلى إبلاغها ، فممَّا كتبه وأرسلني في السعي فيه وهو يتضمَّن العدل في الرعيَّة . وإزالة المكوس عنهم ، وكَتَبَ معه في ذلك شيخُنا شيخ الإسلام أبو محمد عبد الرحمٰن بن الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة ، وشيخنا العلّامة قدوة الوقت أبو محمد عبد السلام بن عليّ بن عمر الزواوي شيخ المالكية ، وشيخنا العلّامة ذو العلوم أبو بكر محمد بن أحمد الشريشي المالكي ، وشيخنا العارف القدوة أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ العارف ولي الله عبد الله ، عُرِفَ بابن الأرمني ، وشيخنا المفتي أبو حامد محمد بن العلَّامة أبي الفضائل عبد الكريم بن الحرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها ، وجماعة آخرون ، ووضعها في ورَقة كتبها إلى الأمير بَدْر الدِّين بيْلبك الخَزنْدَار بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان الظاهر التُّركي ، وهذه صورتها :

بسم الله الرحمٰن الرحيم .

من عبد الله يحيىٰ النَّواوي .

سلام الله ورحمته وبركاته على المولىٰ المُحْسِن ملكِ الأمراء بدر الدين ، أدام الله الكريم له الخيرات ، وتولّاه بالحسنات ، وبلَّغه من خيرات الآخرة والأولى كلَّ آماله ، وبَارَكَ له في جميع أحواله ، آمين .

وَيُنْهَى إلى العلوم ....

الشريفة[1] أنَّ أهل الشام في هذه السنة في ضيقِ عيشٍ ، وَضَعْف حالٍ ، بسبب قلّة الأمطار ، وغلاء الأسعار ، وقلّة الغلّات والنبات ، وهلاك المواشي ، وغير ذلك . وأنتم تعلمون أنّه تجب الشفقةُ على الرعيّةِ والسُّلطان ، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم ؛ فإنَّ الدِّين النَّصيحة .

وقد كتبَ خدَمَةُ الشَّرعِ ، الناصحون للسّلطان ، المحبُّون له ، كتابًا بتذكيره النَّظَر في أحوال رعيَّتِهِ ، والرفق بهم ، وليس فيه ضررٌ ، بل هو نصيحةٌ مَحْضَةٌ ، وشفقةٌ تامةٌ ، وذكرىٰ لأولي الألباب .

والمسئول من الأمير - أيّده الله تعالىٰ - تقديمه إلى السلطان ، أدام الله له الخيرات ، ويتكلّم عليه من الإشارة بالرِّفق بالرعيَّة بما يجدُهُ مُدَّخَرًا له عند الله ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ** ﴾ الآية [آل عمران : ٣٠] .

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانةٌ ونصيحةٌ للسلطان - أعزَّ الله أنصاره - والمسلمين كلّهم في الدُّنيا والآخرة ، فيجب عليكم إيصالُهُ للسُّلطانِ - أعزَّ الله أنصاره - وأنتُم مسئولون عن هذه الأمانة ، ولا عُذْرَ لكم في التأخُّرِ عنها ، ولا حُجَّةَ لكم في التَّقصِيرِ فيها عند الله تعالى ، وتُسألون عنها ﴿ **يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ** ﴾ ، ﴿ **يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ [عبس : ٢٤ - ٢٧] .

أنتم بحمد الله تحبُّون الخير ، وتحرِصون عليه ، وتسارعون إليه ، وهذا

(١) أي نرفع إلى علْمِكم الشريف .

من أهم الخيرات ، وأفضل الطَّاعات ، وقد أُهِّلْتُم له ، وساقه الله إليكم ، وهو مِنْ فضلِ الله ، ونحن خائِفون أن يزداد الأمر شدَّةً إن لم يَحْصُلِ النَّظَرُ في الرِّفْقِ بهم . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة : ١١٥] .

والجماعة الكاتِبون منتظرون ثمرةَ هذا ، مما إذا فَعَلْتُمُوهُ ، وَجَدتُّموه عند اللهِ ؛ ﴿ **إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل : ١٢٨] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فلما وصْلتِ الورقتان إليه ؛ أوقفَ عليهما السُّلطان ، فلما وقف عليها ؛ ردَّ جوابَها جوابًا عنيفًا مؤلمًا ، فتنكَّدَت خواطرُ الجماعة الكاتبون ، وغيرهم ، فكتب - رحمه الله - جوابًا لذلك الجواب :

بسم الله الرحمـٰن الرحيم .
الحمدُ لله رب العالمين .
اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد وسلِّم .

من عبد الله يحيىٰ النواوي : يُنْهَىٰ أنَّ خَدَمَةَ الشَّرْعِ كانوا كتبوا ما بلغ السلطان - أعزَّ الله أنصاره - فجاء الجوابُ بالإنكارِ والتَّوبيخ والتَّهديد ، وَفَهِمْنَا منه أنَّ الجهادَ ذُكِرَ في الجواب على خِلاف حكْم الشَّرع ، وقد أَوْجَبَ الله إيضاحَ الأحكامِ عند الحاجة إليها ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ الآية [آل عمران : ١٨٧] فوجبَ علينا حينئذ بيانُهُ ، وحَرُمَ علينا السكوتُ ؛ قال الله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا**

يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩١] .

وَذُكِرَ في الجوابِ أنَّ الجهادَ ليسَ مختصًّا بالأجنادِ ، وهٰذَا أمرٌ لم نَدَّعِهِ ، ولكنَّ الجهادَ فرضُ كفايةٍ ، فإذا قَرَّرَ السُّلطانُ له أجنادًا مَخْصوصينَ ، ولهم أخباز[1] معلومةٌ مِن بيت المال ، كما هو الواقع - تفرَّغَ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزِّراعة ، والصَّنائع ، وغيرهم ، الذي يحتاجُ الناسُ كلُّهم إليها ، فجهادُ الأجنادِ مُقابِل الأخبازِ المقرَّرَةِ لهم ، ولا يَحِلُّ أنْ يُؤْخَذَ مِنَ الرَّعِيَّةِ شيءٌ مَا دَامَ في بيتِ المالِ شيءٌ مِن نَقْدٍ ، أو متاعٍ ، أو أرضٍ ، أو ضِياعٍ تباع ، أو غير ذٰلك . وهٰؤلاء علماءُ المسلمينَ في بلاد السلطان - أعزَّ الله أنصاره - مُتَّفِقونَ على هٰذا ، وبيتُ المال - بِحَمْدِ الله - معمورٌ ، زَادَهُ الله عمارةً وَسَعَةً ، وخيرًا وبركةً في حياة السلطانِ المقرونةِ بكمالِ السعادةِ له ، والتَّوفيقِ والتَّسديد والظُّهورِ على أعداء الدين ، ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ** ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ، وإنما يُسْتَعَانُ في الجهادِ وغيرِهِ بالافتقارِ إلى الله تعالىٰ ، واتِّباع آثار النبي ﷺ ، ومُلازمةِ أحكام الشرع .

وجميعُ ما كتَبْناهُ أوَّلًا وثانيًا هو النصيحةُ التي نعتَقِدُهَا ، ونَدِينُ اللهَ بها ، ونسألُهُ الدَّوام عليها حتىٰ نَلْقَاه . والسُّلطانُ يعلمُ أنَّها نصيحةٌ له وللرَّعيَّة ، وليس فيها ما نُلامُ عليه ، ولم نكتُب هٰذا للسلطان ؛ إلا لِعِلْمِنَا أنَّه يُحِبُّ الشَّرْعَ ، ومتابعَتَهُ أخلاقَ النبيِّ ﷺ ، في الرِّفْقِ برعيَّتِهِ ، والشفقةِ عليهم ، وإكرامِهِ لآثَارِ النبيِّ ﷺ ، وكلُّ ناصحٍ للسلطانِ موافِقٌ على هٰذا الذي

---

(١) الأخباز واحدها : الخبزة أي النصيب ، وهي الرواتب والجرايات التي تعطىٰ شهريًّا ، أو تبعًا للمواسم الزراعية ، أو عند الحملات الحربية .

كَتَبْنَاهُ . وأما ما ذُكِرَ في الجواب مِن كَوْنِنَا لم نُنْكِر على الكُفَّارِ حين كانوا في البلاد ، فكيف يُقَاسُ ملوكُ الإسلامِ ، وأهلُ الإيمان والقرآنِ بطُغَاةِ الكفَّارِ ؟! وبأيِّ شيءٍ كُنَّا نُذَكِّرُ طُغَاةَ الكفَّارِ وَهُم لا يَعْتَقِدُونَ شيئًا مِن دِينِنَا ؟!

وأما تهديدُ الرعيةِ بسبب نصيحَتِنَا ، وتهديدُ طائفةٍ ، فليس هو المَرْجُوّ مِن عَدْلِ السلطانِ ، وَحِلْمِهِ ؛ وأيُّ حِيلةٍ لضعفاءِ المسلمين المفرَّقين في أقطار ولايةِ السلطان في كتابٍ كَتَبَهُ بعضُ المسلمين النَّاصحينَ نصيحةً للسلطان ولهُم ، ولا عِلْمَ لَهُمْ بِه ؟! وكيفَ يؤاخَذونَ بِهِ لو كانَ فيهِ ما يُلامُ عليه ؟!

وأمَّا أنا في نفسي ، فلا يضرُّني التهديدُ ، ولا أكبرُ منه ، ولا يمنَعُني ذلك من نصيحة السُّلطان ، فإنِّي أعتَقِدُ أنَّ هـٰذا واجبٌ عليَّ وعلىٰ غيري ، وما ترتَّبَ على الواجبِ ، فهو خيرٌ وزيادةٌ عند الله تعالى ، ﴿ **إنَّما هـٰذِهِ الحياةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرارِ** ﴾ [غافر : ٣٩] ، ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعِبَادِ** ﴾ [غافر : ٤٤] ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول بالحق حيثما كنا ، وأن لا نخافَ في اللهِ لومَةَ لائمٍ .

ونحنُ نُحِبُّ للسلطانِ معالِيَ الأمورِ ، وأكمَلَ الأحوالِ ، وما ينفعُهُ في آخرتِهِ ودُنْياه ، ويكونُ سببًا لدوامِ الخيراتِ له ، ويَبْقىٰ ذِكْرُهُ له على مرِّ الأيام ، ويخلُدُ في سننه الحسنة ، ويجد نفعَهُ ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

وأما ما ذُكِرَ من تمهيد السلطانِ البلادَ ، وإدامته الجهاد ، وفتْح الحصون ، قَهْر الأعداء ، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصَّةُ والعامَّة ، وسارَتْ في أقطارِ الأرض ، ولله الحمد ، وثواب ذلك مُدَّخَرٌ

للسلطان إلى ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

ولا حُجَّةَ لنا عند اللهِ تعالى إذا تَرَكْنا هذه النَّصيحَةَ الواجبَةَ علينا .
والسلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته .
الحمدُ لله رب العالمين(١).

ومما كتبه لمَّا احتيطَ على أملاكِ دمشق - حرسها الله تعالى - بعد إنكاره مواجهةَ السلطان الظاهر ، وعدم إفادته وقبوله :

بسم الله الرحمٰنِ الرحيم .
الحمدُ لله ربِّ العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيْثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ [آل عمران : ١٨٧] .

وقَال تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة : ٢] وقد أوجبَ الله على المكلَّفين نصيحةَ السلطانِ - أعزَّ الله أنصارَه - ونصيحَةَ عامَّةِ المسلمين ؛ ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الدِّينُ النَّصيحةُ ؛ للهِ ، ولكتابِهِ ، ورسولِهِ ، وأَئمَّةِ المسلمين ، وعامَّتِهم »(٢). وَمِن نصيحة السلطان - وفَّقه الله لطاعته ،

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين لابن العطار صـ ١٠١ - ١٠٨ .
(٢) أخرجه مسلم في « الصحيح » (١ / ٧٥) ، والنسائي في « المجتبى » (٢ / ١٧٨) ، وأبو داود في « السنن » (٥ / ٢٢٣) ، والحميدي في « المسند »=

وتولَّاه بكرامته – أن تُنْهى[1] إليهِ الأحكام إذا جرتْ على خِلافِ قواعدِ الإسلام .

وأوجبَ الله تعالى الشَّفَقَةَ على الرعيَّةِ ، والاهتمامَ بالضَّعَفَةِ ، وإزَالَةَ الضَّررِ عنهم . قال الله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحِجْر : ٨٨] .

وفي الحديث الصحيح : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّمَا تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ بِضعفائِكم »[2] .

وقال ﷺ : « مَنْ كَشَفَ عن مسلم كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا ، كَشَفَ الله عنهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، واللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ ....

= (٢/ ٣٦٩) ، وأحمد في « المسند » (٤/ ١٠٢) ، والبخاري في « التاريخ الصغير » (٢ / ٣٥) ، وابن نصر في « تعظيم قدر الصلاة » (رقم ٧٤٧ و٧٤٩ و٧٥٠ و٧٥١) ، وبيَّن أن محمد بن عجلان أدخل إسنادًا في إسناد ، فجعل الحديث من مسند أبي هريرة . والصحيح أنه من حديث تميمٍ الدَّاري . وانظر حوْل هذا الأمر : « فوائد الليث بن سعد » (ص ٥١ – ٥٥) ، وكلام محققه عليه .

(١) أي : تُرفع إليه وتبلُغ مسامعَه .

(٢) أخرجه البخاري في « الصحيح » (٦ / ٨٨) ، والنسائي في « المجتبىٰ » (٦ / ٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٣ / ٣٤٥) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٤ / ٢٦٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥ / ١٠ ، ٢٦ و٨ / ٢٩٠) ، والدَّوْرَقي في « مسند سعد بن أبي وقاص » (رقم ٥١) ، والهيثم الشاشي في « مسنده » (ورقة ١٠ / أ) . وأبو طاهر المخلِّص ، وأبو القاسم التيْمي في « الترغيب » ، كما في « النكت الظراف » (٣/٣١٩) .

أخيهِ »[1].

وقال ﷺ : « اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ المسلمينَ شيئًا ، فَرَفَقَ بِهِمْ ؛ فارْفُقْ بِهِ ، وَمَنْ شَقَّ عليهِم ، فاشْقُقْ عليهِ »[2].

وقال ﷺ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ »[3].

وقال ﷺ : « إِنَّ المُقْسِطِينَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَلَى يمينِ الرحمـٰنِ ، الذينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِم ، وأهليهِم ، وما وُلُّوا »[4].

وقد أنعم الله تعالى علينا ، وعلى سائِر المسلمين بالسلطان - أعزّ الله أنصارهُ - فقد أقامَه لنُصْرَةِ الدِّين والذَّبِّ عن المسلمين ، وأذلَّ بِهِ الأعداءَ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ ، وفتحَ عليهِ الفتوحاتِ المشهورةَ في المدةِ اليسيرةِ ، وأوْقَعَ الرُّعْبَ منه في قلوب أعداءِ الدين وسائر الماردين ، ومَهَّدَ له البلادَ والعبادَ ، وقَمَعَ بسببِهِ أهلَ الزَّيْغِ والفساد ، وأمدَّهُ بالإعانةِ واللُّطْفِ والسَّعَادَةِ .

---

(١) أخرجه مسلم في « الصحيح » (٤ / ٢٠٧٤ ، رقم ٢٦٩٩) ، وأبو داود في « السنن » رقم ٤٩٤٦) ، والترمذي في « الجامع » رقم ١٤١٥ ، ١٩٣٠) ، وابن ماجه في « السنن » (رقم ٢٢٥) ، وأحمد في « المسند » (٢ / ٢٥٢ ، ٢٩٦ ، ٥٠٠ ، ٥١٤) ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في « الصحيح » (رقم ١٨٢٨) ، وأحمد في « المسند » (٦ / ٦٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠) ، وغيرهما .

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح والأدب المفرد ، ومسلم ، والنسائي ، والترمذي ، وعبد الرزاق ، وأبو داود وأبو عوانة وابن الجارود في المنتقى ، وأحمد ، والطبراني في الكبير .

(٤) أخرجه مسلم ، وأحمد ، والبخاري في التاريخ ، والنسائي ، والحميدي في المسند ، والبغوي في شرح السنة ، وعبد الرزاق في المصنف ، والبيهقي في « السنن الكبرى » .

فللهِ الحمدُ على هٰذه النعمِ المتظاهرةِ ، والخيراتِ المتكاثرةِ ، ونسألُ الله الكريمَ دوامَهَا له وللمسلمين ، وزيادَتَها في خير وعافية ، آمين .

وقد أوجبَ الله شكْرَ نِعَمِهِ ، وَوَعَدَ الزيادةَ للشَّاكرينَ ، فقال تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم ﴾ [إبراهيم : ٧] .

ولقد لَحِقَ المسلمين بسبب هٰذه الحَوْطَةِ على أملاكِهم أنواعٌ مِن الضَّـرَرِ ، لا يمكنُ التعبيرُ عنها ، وطُلِبَ منهُم إثباتٌ لا يلزَمُهُم ، فهٰذه الحَوْطَةُ لا تَحِلُّ عندَ أحدٍ مِنْ عُلَمَاءِ المسلمين ، بل مَن في يدهِ شيءٌ ، فهو مُلْكُه ، لا يَحِلُّ الاعتراضُ عليه ، ولا يُكَلَّفُ بإثباتِهِ .

وقد اشْتُهِرَ من سيرةِ السلطان أنَّه يُحِبُّ العملَ بالشرع ، ويُوصي نُوَّابَهُ به ، فهو أَوْلى مَنْ عَمِلَ به ، والمسئول إطلاق النَّاس من هٰذه الحَوْطَةِ ، والإفراج عن جميعِهم ، فَأَطْلِقْهُم ، أَطْلَقَكَ الله مِن كُلِّ مَكروهٍ ، فَهُم ضَعَفَةٌ ، وفيهم الأيتامُ ، والأراملُ ، والمساكينُ ، والضَّعَفَةُ ، والصَّالحونَ ، وبهِم نُنْصَرُ ، ونُغَاثُ ، ونُرْزَق ، وهم سُكَّان الشام المبارك ، جيرانُ الأنبياءِ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ، وسكَّانُ ديارِهم ، فلهُم حُرماتٌ مِن جهاتٍ . ولو رأى السُّلطانُ ما يلحَقُ الناسَ مِن الشَّدائِد ، لاشتَدَّ حُزْنُه عليهِم ، وأطلقَهُم في الحالِ ولم يُؤَخِّرْهُم ، ولكن لا تُنْهَىٰ الأمورُ إليهِ على وجْهِهَا .

فباللهِ ، أغِثِ المسلمين ، يُغِثْكَ الله ، وارْفقْ بِهِمْ ؛ يَرْفقِ الله بك ، وعَجِّلْ لَهُم الإفراجَ قبلَ وقوعِ الأمطارِ ، وتَلَفِ غَلَّاتِهِم ؛ فَإِنَّ أكثرَهُمْ وَرِثُوا هٰذه الأملاكَ مِن أسلافِهِم ، وَلَا يمكِنُهُم تحصيلُ كتبِ شراءٍ ، وقد نُهِبَتْ كُتُبُهم .

وإذا رفقَ السلطانُ بهِم ؛ حَصَلَ له دعاءُ رسولِ اللهِ ﷺ لمن رفق

بأمَّتِهِ ، ونصره على أعدائِهِ ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ **إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُم** ﴾[محمد : ٧] ، وَتَتَوَفَّرْ له من رعيَّتِهِ الدَّعوات ، وتظْهَرُ في مملكَتِهِ البركاتُ ، ويُبَارَكُ له في جميعِ ما يقصدُه من الخيرات .

وفي الحديثِ عن رسولِ اللهِ ﷺ قال : « مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً ؛ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يوم القيامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً ؛ فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلى يَوْمِ القِيَامَةِ »[١]. فنسأَلُ الله الكريم أن يوفِّقَ السلطانَ للسُّننِ الحسنةِ التي يُذكَرُ بها إلى يوم القيامة ، ويحميه مِن السُّنن السيِّئةِ .

فهٰذه نصيحَتُنَا الواجبةُ علينا للسُّلطانِ ، ونرجو مِن فضلِ اللهِ تعالى أن يُلْهِمَهُ الله فيها القَبولَ . والسلامُ عليكُم ورحمة الله .

الحمدُ لله رب العالمين ، وصلواتُه وسلامُه على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبِهِ[٢].

قال السخاوي : « وكان السبب في هذه الحوْطة - كما صرّح به صاحب البدر السّافر - : أن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار ، ونزوحهم عن البلاد ولّى وكالة بيت المال شخصًا من الحنفية ، فقال : إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولَوْا عليها ، فتملّكوها ، على مقتضى مذهب الإمام أبي حنيفة[٣] رحمه الله . فوضع السلطان يده عليها ، فقام جماعة من أهل العلم في ذلك ، وكان الشيخ فيهم.. (قلت) - أي

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي وغيرهما .

(٢) تحفة الطالبين صـ ١٠٨ - ١١٤ .

(٣) والجمهور علىٰ خلافه .

السخاوي -: بل هو أعظمهم . قال : فكلّم السلطان في ذلك كلامًا فيه غِلْظَة ، فظنَّ السلطان أنّ له مناصبَ يعزله عنها . فقيل له : ما له . انتهىٰ كلام البدر .

وقال الخطيب النونيني : إنه وَاقَفَ الظَّاهرَ غير مرة ، بدار العدل بسبب الحوْطة على بساتين دمشق وغير ذلك . وحُكي عن الظاهر أنه قال : أنا أفزع منه . أو ما هذا معناه . ولقد شاهدتُّه مرةً طلع إلى زاوية الشيخ خضر - بالجبل المشرِف على المزة - وحدَّثه في أمرٍ ، وبالغ معه وأغلظ له ، فسمع الشيخ خضر كلامًا مؤْلِمًا ، فأمر بعض مَنْ عنده بإخراجه ودفْعه ، فما تأثر لذلك في ذات الله - عز وجل - ولا رجع عن قَصْده ؛ لنفْع يجلِبُه لبعض المسلمين .

وقال العماد ابن كثير : إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطة ، لمّا أرادوا وضْع الأمْلاك على بساتينها ، فردّ عليهم ذلك ، ووقى اللهُ شرَّها ، بعدَ أن غضب السلطان وأراد البطش به ، ثم بعد ذلك أحبّه وعظّمه ، حتى كان يقول : أنا أفزع منه . انتهىٰ كلام ابن كثير »[1] .

ومما كتبه بسبب الفقهاء ، لما رُسِمَ[2] بأن الفقيه لا يكون منزلًا في أكثر من مدرسة واحدة ، وهٰذه صورته :

« بسم الله الرحمٰنِ الرحيم :

خَدَمَةُ الشَّرْع يُنْهونَ أَنَّ الله تعالى أمرَنا بالتَّعاوُنِ على البرِّ والتَّقوى ،

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام النووي ، للحافظ السخاوي صـ ٤٥ طبع جمعية النشر والتأليف بالأزهر .

(٢) أيْ : كُتب ، و « المرسوم » ما يُصدره رئيس الدولة كتابة في شأنٍ من الشئون ، فتكون له قوة القانون .

ونصيحَةِ وُلاةِ الأمورِ ، وعامَّةِ المسلمين ، وأخَذَ على العُلماءِ العهدَ بتَبْليغِ أحكامِ الدينِ ، ومناصحةِ المسلمين ، وحثَّ على تعظيمِ حُرُماتِهِ ، وإعظامِ شعائرِ الدينِ ، وإكرامِ العلماء وتُبَّاعِهِم .

وقد بلغَ الفقهاءَ بِأَنَّهُ رُسِمَ في حَقِّهِم بِأَنْ يُغَيِّروا عن وظائِفِهم ، ويُقْطَعوا عن بعضِ مدارِسِهِم ، فتنكَّدَتْ بذلك أحوالُهُمْ ، وتضرَّروا بهذا التضييقِ عليهم ، وهُم محتاجونَ ، ولهُم عِيالٌ ، وفيهِم الصَّالِحونَ ، والمشتغِلونَ بالعلومِ ، وإنْ كَانَ فيهِم أفرادٌ لا يَلْتَحِقُونَ بمراتِبِ غيرِهم ، فهم منتَسِبونَ إلى العلمِ ، ومشارِكُونَ فيهِ . ولا تَخْفَى مراتِبُ أهلِ العلمِ ، وفضلُهم ، وثناءُ الله تعالى عليهم ، وبيانُه مزيَّتهم على غيرِهم ، وأنَّهم وَرَثَةُ الأنبياءِ - صلواتُ الله وسلامُه عليهِم - وأَنَّ الملائِكَةَ - عليهم السلام - تضعُ أجْنِحَتَهَا لَهُم ، ويستَغْفِرُ لَهُم كُلُّ شيءٍ ، حتى الحيتانُ . واللائِقُ بالجَنابِ العالي إكرامُ هٰذه الطَّائِفَةِ ، والإحسانُ إليهِم ، ومُعاضَدَتُهُم ، ودفعُ المكروهاتِ عنهُم ، والنَّظَرُ في أحوالِهم ؛ بما فيهِ الرِّفقُ بهم ؛ فقد ثبت في « صحيح مسلم » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : « مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا ، فَرَفَقَ بِهِم ؛ فَارْفقْ بِهِ » .

وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنه كان يقول لطلبةِ العلم : مرحبًا بوصيةِ رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ رجالًا يأتونَكُم يَتَفَقَّهونَ في الدِّين ، فإذا أَتَوْكُمْ ؛ فاسْتَوْصوا بِهِمْ خَيْرًا »[1].

---

(١) أخرجه الترمذي ، وابن ماجه ، وعبد الرزاق في المصنف ، والرامهرمزي في المحدث الفاصل صـ ١٧٦ ، كلهم من طريق أبي هارون العبدي عمارة بن جُوَين كذبه بعضهم . انظر الميزان (٣ / ١٧٣) .

والمسئول أن لا يُغَيَّر على هذه الطائفةِ شيءٌ ، وتُستَجْلَب دعوتُهم لهذه الدولة القاهرة ، وقد ثبت في « صحيح البخاري » أن رسول الله ﷺ قال : « هل تُنْصَرُونَ وتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ » .

وقد أحاطتِ العلومُ بما أجاب بِهِ الوزيرُ نظامُ المُلْك ، حينَ أنْكَرَ عليهِ السلطانُ صرْفَ الأموالِ الكثيرةِ في جهةِ طلبةِ العلم ، فقال : « أَقَمْتُ لَكَ بِهَا جُنْدًا لَا تُرَدُّ سِهَامُهُم بالأَسْحارِ » . فاستَصْوبَ فِعْلَهُ ، وساعَدَهُ عليهِ .

والله الكريمُ يوَفِّقُ الجنابَ دائمًا لمرضاتِهِ ، والمسارعة إلى طاعاتِهِ .

والحمد لله ربِّ العالمين ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وله - رَحِمَهُ اللهُ تعالى - رسائِلُ كثيرةٌ في كُلِّياتٍ تتعلَّقُ بالمسلمين وجزئيات ، وفي إحياء سننٍ نيِّرات ، وفي إماتة بدع مظلماتٍ ، وله كلامٌ طويل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مواجهًا به أهل المراتب العاليات »[1] .

قال السخاوي مُعَقِّبًا : « قلت : منها رسالة إلى نائب السَّلطنة بدمشق يطلب جمْع الناس للاستسقاء ، كتبها في يوم الأحد ، حادي عشر جمادى الأولى ، سنة ثمانٍ وستين وستمائة » .

وقد ردّ فيها على من خذَّل في صلاة الاستسقاء ، وجاء فيها : « فهذا المخذِّل مخطئ جاهل ، بل إنِ اعتقد هذا ، كان كافرًا ؛ لأنّ ما فعله رسول الله ﷺ هو الحق والصواب الذي يجب على كلّ مكلّف

(١) تحفة الطالبين ١١٥ - ١١٨ ، وترجمة النووي للسخاوي صـ ٤٦ - ٤٧ .

الانقياد له ، والمسارعة إلى قبوله ، وانشراح الصدر له . قال الله تعالى : ﴿ **فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا ممّا قَضَيْتَ وَيسلِّموا تسليما** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **إنما كان قول المؤمنينَ إذا دُعوا إلى الله ورسوله لِيحكُم بيْنهم أن يقولُوا سمِعْنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

وكُلُّ ما خالف سنة رسول الله ﷺ فهو البدْعة والضلالة والغباوة والجهالة والسَّفاهة والرذالة ، بل هذه طريقة الكفَّار في مُدافعة دين الإسلام ، ويأبىٰ الله إلا أن يُتمّ نورَه ، ولو كرِه الكافرون ، ويجب على وليّ الأمر - وفقه الله لطاعته - إذا سمع كلام هذا الزاعم الجاهل الضّالّ الغاشم المتجاهل ، وغيره ممّن يقول نحوَ هذا القوْل في مدافعة الحق والاعتراض على سنن رسول الله ﷺ - أن يؤدّب تأديبًا بليغًا ينزجر به هو وأمثالُه ، ويُشهرَ أمْره ، لِيَنْكِفَ أهلُ الجهالة والضلالة عن مثل فعله ، ولِيعلم أن المراد بالاستسقاء امتثال أمر الله تعالى والاقتداء برسول الله ﷺ وهو مصلحة فاخرة ، وسعادة معجّلة ، ومِنة مِنَ الله تعالى ، يُشكر على التوفيق لها . وأمّا نزول المطر فهو إلى الله تعالى ، وليس المراد بالاستسقاء تيقُّن نزول المطر » .

وحثّ النّووي في رسالتِهِ نائبَ السلطنة أن يأمر الناس قبل الخروج للاستسقاء ، بالتوبة من المعاصي ومصالحة الأعداء ، والصدقة وصيام ثلاثة أيام ، والخروج في اليوم الرابع صيامًا . ولمّا وصلتِ الرسالة لوليّ الأمرِ ، أمَرَ مُحتَسِب البلد ، فنادىٰ - ساعته - في الناس بصيام ثلاثة أيام ، أوَّلُها يوم الإثنين الثاني عشر من جمادىٰ الأولى ، ثمّ خرج وليّ الأمر والناس يوْم الخميس ، الخامس عشر من الشهر المذكور واستسقَوْا ، ثم سُقوا بعد ذلك بسبعة أيّام سقيا عامة وترادفتْ أمطار كثيرة بعد أنْ حصل لكثير من الناس قنوطٌ ، فللَّه الحمد على نِعَمِهِ ، والتوفيق لإظهار شعائر دينه ، ومتابعة

رسوله ﷺ ، والاعتناء بسنتهِ .

وكتب ولي الأمر إلى نوابه في البلدان يأمرهم بالاستسقاء في اليوم الذي يستسقي فيه أهل دمشق ، فامتثلوا لأمْره في ذلك ، فسُقوا كلُّهم في بلدانهم في الوقت المذكور ، ثم وقعتْ في البلدان ثلوج كثيرة لم يُرَ في تلك السنين مثلُها ، وأبطل تضمين الخانات والخمور ، وأُريقتْ على كلّ مَنْ وُجدتْ عنده في دمشق وسائر بلاد الشام ، ورفعتِ المنكرات - ولله الحمد - رَفْعًا تامًّا بعد أن كانت شائعةً أفحش الشَّياع ، وذلك في ربيع الآخر من السنة . ثم جعل اللهُ الكريم في الغلات أنواعَ البركات ، وأخصبتِ الغلّات في جميع بلاد الشام إلى حدٍّ لم يُعهد مثلُه ، من نحو ثلاثين سنة ، ثم أعقب ذلك رُخْصًا لكثرة الغلات ، لم يُعهد مثلُه من نحو خمسَ عشْرة سنةً[1] .

بَيْنَ الإمام النَّووي وابنِ النّجار :

كان في دمشق شخصٌ - يُقال له : ابن النجار - « سَعَى في إحداث أمورٍ على المسلمين باطلةٍ ، فقام الشيخ - قدّس الله رُوحه - مع جماعة من علماء المسلمين فأزالوها بإذن الله تعالى ، ونصر الله الحقّ وأهله ، فغضب لذلك ؛ لكراهيته مصلحة المسلمين ونصيحة الدين ، وبعث إلى الشيخ يهدِّده ، ويقول : « أنت الذي تحزِّبُ العلماء على هٰذا » . فكتب إليه الشيخ - قدَّس الله روحه - كتابًا هذا صورته :

بسم الله الرحمٰن الرحيم .

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

---

(١) ترجمة النووي للسّخاوي ص ٤٧ - ٤٩ .

من يحيىٰ النووي .

اعلم أيُّها المقصرِّ في التأهُّب لمعادِه ، التاركُ مصلحَةَ نفسه في تهيئةِ جهازِهِ له وزادِه ، أنِّي كنتُ لا أعلمُ كراهَتَكَ لنُصْرَةِ الدين ، ونصيحةِ السلطان والمسلمين ؛ حمـلًا منِّي لك على ما هو شأنُ المؤمنين ، من إحسان الظنِّ بجميع الموحِّدين ، وربما كنتُ أسمعُ في بعض الأحيانِ مَنْ يذْكُرُكَ بِغِشِّ المسلمين ، فأُنْكِرُ عليه بلساني وبقلبي ، لأنها غيبةٌ لا أعلم صحَّتها ، ولم أزَلْ على هـٰذا الحال إلى هـٰذه الأيام . فجرىٰ ما جرىٰ من قوْل قائل للسُّلطان - وفَّقه الله لكريمِ الخيرات - : إنَّ هـٰذه البساتينَ يَحِلُّ انتزاعُها من أهلِها عندَ بعضِ العلماء . وهـٰذا مِنَ الافتراء الصريح ، والكذب القبيح ، فوجب عليَّ وعلى جميعِ مَن عَلِمَ هـٰذا من العلماء أن يُبَيِّنَ بُطلانَ هـٰذه المقالة ، وَدَحْضَ هـٰذه الشناعة ، وأنَّها خلافُ إجماع المسلمين ، وأنَّه لا يقـولُ بها أحـدٌ من أئمَّـةِ الدين ، وأن يُنْهوا[1] ذلك إلى سلطان المسلمين ؛ فإنَّه يجبُ على الناس نصيحته ؛ لقول النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح : « الدِّينُ النصيحة ، للهِ ، ولكتابه ، ولرسوله ، وأئمَّة المسلمين ، وعامَّتهم » .

وإمام المسلمين في هـٰذا العصـر هـو السلطان - وفَّقه الله تعالى لطاعته ، وتولَّاه بكرامته - ، وقد شاع بين الخواصِّ والعوامّ ، أنَّ السلطانَ كثيرُ الاعتناء بالشَّرْعِ ، ومحافظٌ على العملِ به ، وأنَّه بَنَىٰ المدرسة لطوائف العلماء ، ورتَّب القُضاة من المذاهب الأربعة ، وأمر بالجلوس في دار العدل ؛ لإقامة الشرع ، وغير ذٰلك ، مما هو معروف من اعتناء السُّلطان - أعزَّ الله أنصارَهُ - بالشرع ، وأنَّه إذا طلبَ طالبٌ منهُ العملَ بالشرعِ ؛

---

(١) أي : يرفعوا .

أمر بذٰلك ، ولم يخالفه .

فلما افترى هـٰذا القائلُ في أمرِ البساتين ما افتراه ، ودلَّس على السلطان ، وأظهر أن انتزاعها جائزٌ عند بعض العلماء ، وغشَّ السلطان في ذٰلك ، وبلَغ ذٰلك علماءَ البلد ؛ وجب عليهم نصيحةُ السلطان ، وتبيينُ الأمرِ له على وجهه ، وأنَّ هـٰذَا خلافُ إجماع المسلمين ، فإنَّه يجب عليهم نصيحةُ الدين ، والسلطانِ ، وعامَّةِ المسلمينَ . فوفَّقهم الله تعالى للاتفاقِ على كَتْبِ كتاب يتضمَّن ما ذكرتُه ؛ على جهةِ النَّصيحة ؛ للدين ، والسلطان ، والمسلمين ، ولم يذكروا فيه أحدًا بعينه ، بل قالوا : مَن زعم جوازَ انتزاعِهَا ، فقد كذب ، وكتب علماءُ المذاهب الأربعة خطوطَهم بذٰلك ؛ لِمَا يجب عليهم من النَّصيحةِ المذكورة ، واتَّفقوا على تبليغها وليِّ الأمرِ - أدامَ الله نِعَمَهُ عليه - لِيَنْصحوه ، ويُبَيِّنوا حكمَ الشرع .

ثم بلَّغني جماعاتٌ متكاثِراتٌ في أوقاتٍ مختلفاتٍ - حصل لي العلم بقوْلهم - أنك كرهت سعيَهم في ذلك ، وسارَعَتْ في ذمِّ فاعل ذلك ، وأسندت معظم ذٰلك كله إليَّ . ويا حبذا ذٰلك من صنيع . وبلَّغني عنك هـٰؤلاء الجماعات أنَّك قلت : قولوا ليحيىٰ : هو الذي سعىٰ في هـٰذا ، فينكفَ عنه ، وإلا أخذتُ منهُ دارَ الحديث .

وبلَّغني عنك هـٰؤلاء الجماعاتُ أنَّك حلَفتَ مراتٍ بالطلاق الثلاث أنَّك ما تكلَّمتَ في انتزاع هـٰذه البساتين ، وأنَّك تشتهي إطلاقَها .

فيا ظالم نفسه ، أمَا تستحي من هـٰذا الكلام المتناقض ، وكيف يصحُّ الجمع بين شهوتك إطلاقها وأنَّك لم تتكلم فيها ، وبين كراهتك السَّعيَ في إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين ؟!

ويا ظالمَ نفسهِ ، هل تعرَّض لك أحدٌ بمكروه ، أو تكلَّم فيك بعينِك ؟

وإنما قال العلماءُ : مَن قالَ هٰذَا للسلطان فقد كذب ودلَّس عليه ، وغشَّه ، ولم ينصحْه ؛ فإنَّ السلطانَ ما يفعلُ هٰذا إلَّا لاعتقادِهِ أنَّه حلالٌ عند بعضِ العلماء ، فبيِّنوا أنَّه حرامٌ عند جميعهم . وأنت قد قُلْتَ أنَّك لم تتكلم فيها . وحلفتَ على هٰذا بالطَّلاقِ الثلاث ، فأيُّ ضررٍ عليك في إبطال قولِ كاذبٍ على الشرع ، غاشٍّ مدلس على السلطان ، وقد قلتَ أنَّه غيرُك ؟! وكيف تكره السَّعْيَ على شيءٍ قد أجمعَ الناسُ على استحسانِهِ ، بل هو واجب على مَن قدر عليه ؟! وأنا - بحمد الله - من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت ، وأمّا نجاحُه ، فهو إلى الله تعالى ، مقلِّب القلوب والأبصار .

ثم إني أتعجَّب غايةَ العجب من اتِّخاذكَ إيَّاي خَصمًا ، ويا حَبَّذا ذٰلك من اتِّخَاذ ؛ فإنِّي - بحمد الله تعالىٰ - أُحِبُّ في الله تعالى ، وأُبْغِضُ فيه ، فأُحِبُّ مَنْ أطاعَهُ ، وأُبْغِضُ مَن خالفه ، وإذا أخبرتَ عن نفسكَ بكراهتِك السَّعْيَ في مصلحة المسلمين ، ونصيحة السلطان ؛ فقد دخلتَ في جملة المخالفين ، وصرتَ ممَّن نُبْغِضُهُ في الله ربِّ العالمين ؛ فإنَّ ذٰلك من الإيمان ؛ كما جاءت به الآثار الصحيحة ، المنقولة بأسانيد الأئمة الأخيار[1] .

ارْضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبَتَهُ ... فَـذَاكَ ذَنْـبٌ عِقَـابُـهُ فِيـهِ

ويا ظالمَ نفسه ، أنا خاصمتُك ، أو كالَمْتُكَ ، أو ذكرتُك ، أو بيني وبينك مخاصمة ، أو مُنازَعَة ، أو معاملةٌ في شيءٍ ؛ فما بالك تكره فعْل

---

(١) يشير الإمام النووي إلى حديث : « مَنْ أَحَبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » أخرجه أبو داود في « السنن » (رقم ٤٦٨١) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (رقم ٧٦١٣ و٧٧٣٧ و٧٧٣٨) . والبغوي في « شرح السنة » (١٣ / ٥٤) ، والبيهقي في « الاعتقاد » (ص ١٧٨ ، ١٧٩) بإسنادٍ حسنٍ .

خيرٍ يَسَّرني الله الكريمُ له ؟! ﴿ **وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ [البروج : ٨] .

بل أنت لسوءِ نَظَرِكَ لنفسك تتأذّى على نفسكَ ، وتُشْهِدُ الشهودَ بكراهة هٰذه النصيحة ، التي هي مصرِّحة بأنَّك أنت الذي تكلَّمتَ في هٰذه البساتين ، وأنَّ الطلاقَ واقعٌ عليكَ ، وما أبعدَ أن تكون شبيهًا بمن قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُم** ﴾ [محمد : ٣٠] .

ويا عدوَّ نفسِهِ ، أتُراني أكرَهُ مُعاداةَ مَن سَلَكَ طَرِيقَتِكَ هٰذه ؟! بل - واللهِ - أُحِبُّها ، وأوثِرها ، وأفعَلُهَا بِحَمْدِ الله تعالى ، فإنَّ الحُبَّ في الله ، والبُغْضَ فيهِ ، واجبٌ عليَّ وعليكَ ، وعلى جَميعِ المكَلَّفينَ ، ولستُ أَدْري أيَّ غرضٍ لك في حِرْصِكَ في الإنكارِ على السَّاعين في إعظام حُرُماتِ الدِّين ، ونصيحة السلطان والمسلمين . فيا ظَالِمَ نفسه ، انْتَهِ عن هٰذا ، وارْجِعْ عن طَرِيقةِ المباهتين المعاندين .

وأَعْجَبُ مِن هٰذا تَكْرِيرُكَ الإرسالَ إليَّ - بزعمك الفاسد - كالمتوعِّد : إنْ لم يَنْكَفَّ أخذتُ مِنهُ دارَ الحديث .

فيا ظالِمَ نفسِهِ ، وجاهِلَ الخير وتاركه ، أطَّلَعْتَ على قلبي أنِّي متهافِت عليها ، أو علمتَ أني منحَصِرٌ فيها ، أو تحقَّقْتَ أني معتمِدٌ عليها ، مستَنِدٌ إليها ، أو عَرَفْتَ أنِّي أعتقدُ انحصارَ رزقي فيها ، أوَما علمتَ - لو أنصفتَ - كيف كان ابتداءُ أمرها ؟! أوَ ما كنتَ حاضرًا ، مُشاهِدًا أَخْذي لها ؟! ولو فُرِضَ تهافُتي عليها ، أكنْتُ أوثِرُهَا علىٰ مصلحةٍ عامةٍ للمسلمين ، مشتملةٍ على نصيحة الله ، وكتابه ، ورسوله ﷺ ، والسُّلطان ، وعامة المسلمين ؟! هٰذا ما لم أَفْعَلْهُ ولا أفعله ، إن شاء الله تعالى .

وكيف تتوهم أنِّي أترك نصيحةَ الله ورسوله وسلطان المسلمين وعامَّتِهم ؛ مخافَةً مِن خيالاتك ؟! إن هـٰذه لغباوةٌ منك عظيمة .

ويا عجبًا منك ! كيفَ تقول هـٰذا ؟! أنتَ ربُّ العالمين ؟! بيدك خزائنُ السَّماوات والأرض ، وعليك رزقي ورزق الخلائق أجمعين ؟! أمْ أنت سلطان الوقت ؛ تحكم في الرَّعيَّة بما تُريد ؟!

فلو كنتَ عاقلًا ؛ ما تهَجَّمْتَ علىٰ التَّفوُّهِ بهـٰذا الذي لا ينبغي أن يقولَه إلا ربُّ العالمين ، أو سلطان الوقت ؛ مع أن سلطان الوقت منزَّهٌ عن قولك الباطلِ ، مرتفعُ المَحَلِّ عن فعْلِ ما ذكرتَ .

يا ظَالِمُ ، فإنْ كنت تقول هـٰذا استقلالًا منك ؛ فقد افتأَتَّ عليه ، واجْتَرَأْتَ علىٰ أمرٍ عظيم ، ونسبْتَه إلى الظُّلم عدوانًا ، وإنْ كنتَ تقوله عنه ، فقد كذبتَ عليه ؛ فإنَّه - بحمد الله - حَسَنُ الاعتقاد في الشَّرع ، وذٰلك من نِعَمِ الله تعالى عليه ، والسلْطان - بحمد الله وفضله - أكثرُ اعتقادًا في الشَّرْع مِن غيره ، ومعظم حُرُماته ، وليس هو ممن يقابلُ ناصِحَهُ بهذيانات الجاهلين ، وتُرَّهات المخالفين ، بل يقبلُ نصائِحَهُم ، كما أمره الله تعالى .

واعلم أيُّها الظالمُ نفسه ، أنِّي - والله الذي لا إلـٰه إلا هو - لا أترُكُ شيئًا أقْدِرُ عليه من السعْي في مناصحةِ الدين والسُّلطانِ والمسلمين في هـٰذه القضيَّة ، وإنْ رَغِمَتْ أنوفُ الكارِهين ، وإنْ كَرِهَ ذٰلِكَ أعداءُ المسلمين ، وفَرِقَ حزبُ المخذِّلين ، وسترىٰ ما أتكلَّم به ، إن شاء الله تعالى ، عند هـٰذا السلطان - وفَّقه الله تعالى لطاعته ، وتولَّاه بكرامته - في هـٰذه القضيةِ ، غيْرةً على الشرعِ ، وإعظامًا لحُرمات الله تعالى ، وإقامةً للدِّين ، ونصيحةً للسلطان وعامة المسلمين .

ويا ظالمَ نفسه ، أَجْلِبْ بِخَيْلِكَ وَرجلِكَ إنْ قَدَرْتَ ، واسْتَعِنْ بأهلِ المشرقَيْنِ وما بين الخافقَيْن ؛ فإني - بحمد الله - فيَّ كِفايَةٌ تامَّةٌ ، وأرجو من فضلِ الله تعالى أنَّك لا تَقْوىٰ لمنابذةِ أقلِّ الناس مرتبةً ، وأنا - بحمد الله تعالى - مِمَّن يَوَدُّ القتلَ في طاعةِ الله تعالى .

أَتَقْوى يا ضعيف الحِيَلِ لمنابذتي ؟! أَبَلَغَكَ يا هٰذا أنِّي لا أؤمِنُ بالقدر ، أو بلغكَ أنِّي أعتَقِدُ أنَّ الآجالَ تَنْقُصُ ، وأنَّ الأَرْزَاقَ تَتَغَيَّرُ[1] ؟! أما تفكِّرُ في نفسك في قبيحِ ما أَتَيْتَهُ من الفعالِ ، وسوء ما نَطَقْتَ بهِ من المقالِ ؟!

أيا ظالمَ نفسه ، مَن طلب رضا اللهِ تعالى تردُّه خيالاتُك ، وتمويهاتُك ، وأباطِيلُكَ ، وتُرَّهاتُك ؟!

وبعد هٰذا كله ، أنا أرجو من فضل الله تعالى أنَّ الله يوفق السلطان - أدام الله نِعَمَهُ عليه - لإطلاقِ هٰذه البساتين ، وأن يفعَلَ فيها ما تقرُّ به أعيُنُ المؤمنين ، ويُرْغِمُ أنفَ المخالِفِينَ ، فإن الله تعالى قال : ﴿ **والعَاقِبَةُ للمُتَّقِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

والسُّلْطانُ - بحمدِ الله تعالى - يفعل الخيراتِ ، فما يترُكُ هذه القضيَّةَ تفوتُه .

واعلَمْ أنك عندي - بحمد الله تعالى - أقلُّ ممَّن أهتم بشأنك ، أو ألتفتُ إلى خيالاتِك وبطلانِك ، ولكنِّي أردتُ أن أعرِّفَكَ بعضَ أمري ؛

---

(١) انظر رسالة « إرشاد ذوي العرفان لما للعمر من الزيادة والنقصان » للشيخ مرعي الحنبلي . نشر دار عمار ، و« تنبيه الأفاضل على ما ورد في زيادة العمر ونقصانه من الدلائل » للشوكاني - نشر دار ابن حزم تحقيق: مشهور حسن سليمان .

لتدخلَ نفسكَ في منابذةِ المسلمين بأسرِهم ، ومنابذةِ سلطانِهم - وفَّقه الله تعالى - على بصيرةٍ منك ، وترتفع عنك جهالةُ بعضِ الأمر ؛ ليكون دخولُك بعد ذٰلك معاندةً لا عذرَ لك فيها .

ويا ظالِم نفسهِ ، أتتوهَّمُ أنَّه يَخْفَىٰ عليَّ وعلى مَن سَلَكَ طريقَ نصائحِ المسلمين وولاةِ الأمرِ وحُماةِ الدين أنَّا لا نَعْتَقِدُ صِدْقَ قَوْلِ اللهِ تعالى : ﴿ **والعاقِبَةُ للمُتَّقِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

وقولِهِ تعالى : ﴿ **وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلَّا بأهْلِهِ** ﴾ [فاطر : ٤٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ **إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم** ﴾ [محمد : ٧] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمِنِينَ** ﴾ [الروم : ٤٧] .

وقول النبيِّ ﷺ في الحديث الصحيح : « لا تزالُ طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحق ، لا يضرُّهم خذلان من خذلهم »[١].

والمراد بِهٰذه الطائفة أهل العلم ؛ كذا قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أولي النُّهى والفهم .

وقوله ﷺ : « والله في عونِ العبدِ مَا كَانَ العبدُ في عونِ أخيهِ » .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، وغيرهما بنحوه ، من حديث المغيرة بن شعبة ، والحديث وارد عن جمع من الصحابة ، بلغ عددهم ستة عشر نفسًا مِنَ الصحابة . وعدّه ابن تيمية من الأحاديث المتواترة .

هٰذا فِيمَنْ كَانَ فِي عَوْنِ واحدٍ مِنَ النَّاس ، فكيفَ الظَّنُّ بِمَنْ هُو في عَوْنِ المسلمين أجمعينَ ؛ مع إعظامِ حُرُمَاتِ الشَّرْعِ ، ونصيحة السلطان ، وموالاته ، وبذْل النَّفس في ذٰلك ؟!

وَاعْلَمْ أنِّي واللهِ لَا أتعرَّضُ لك بمَكْرُوهٍ سوىٰ أنِّي أُبغِضُكَ للهِ تعالى ، وما امتناعي عن التعرُّض لك بمكروهٍ عن عَجْزٍ ، بل أخافُ اللهَ ربَّ العالَمين من إيذاءِ مَنْ هُوَ مِن جملةِ الموحِّدين .

وقد أخبرني مَن أثِقُ بخبرِهِ وصلاحِهِ ، وكراماتِهِ وفَلاحِهِ ، أنَّكَ إنْ لم تُبَادِرْ بالتَّوْبَةِ ، حلَّ بك عقوبةٌ عاجلةٌ ، تكونُ بها آيةً لِمَن بعدكَ ، لا يَأْثَمُ بِهَا أحدٌ مِنَ النَّاسِ ، بل هو عدلٌ مِنَ الله تعالى ، يوقِعُهُ بِكَ ؛ عِبرةً لِمَنْ بَعْدَكَ ، فَإنْ كنتَ ناظرًا لِنَفسِكَ ، فَبَادِرْ بالرُّجوعِ عن سوءِ فعالِك ، وَتَدَارَكْ ما أسْلَفْتَهُ مِنْ قَبيحِ مقالِكَ ، قبلَ أنْ يَحِلَّ بِكَ مَا لَا تُقَالُ فيهِ عَثرَتُكَ ، ولا تغترَّ بسلامَتِك وثروتِكَ ووصلتِكَ ، وأفْكِر في قول القائل :

قَدْ نَادَتِ الدُّنْيَا عَلَىٰ نَفْسِهَا ... لَوْ كَانَ فِي العَالَمِ مَنْ يَسْمَعُ
كَمْ وَاثِقٍ بِالعُمْرِ وَارَيْتُهُ ... وَجَامِعٍ بَدَّدتُّ مَا يَجْمَعُ

والسَّلام على مَنِ اتَّبَعَ الهدىٰ ، والحمد لله رب العالمين[1] .

شَيخ الإسلام ابن تيمية :

شيخ المسلمين ، ودرَّة الموحدين وبقيَّة السلف العاملين ، سيرته تحتاج لمجلدات ضِخام ، ولكن :

قليلٌ منكَ يَكفيني ولكنْ ... قليلُكَ لَا يُقَالُ له قليلُ

(١) تحفة الطالبين صـ ١١٩ - ١٢٠ ، وترجمة النووي للسخاوي صـ ٣٦ ، ٥٠ - ٥٥ .

حديث ابن تيمية مع قازان :

لما ظهر قازان على دمشق المحروسة ، جاءه ملك الكُرج ، وبذل له أموالًا كثيرة جزيلة على أن يُمَكِّنه مِنَ الفتْك بالمسلمين من أهل دمشق ، ووصل الخبر إلى ابن تيمية ، فخرج ورجالٌ من وجوه دمشق وكبرائهم وذوي الأحلام منهم ، في يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هجرية إلى حضْرة قازان ، فلما رآهم السلطان قال : مَنْ هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق . فأذِنَ لهم ، فحضروا بين يديه ، فتقدم الشيخ رضي الله عنه أوَّلًا ، فلما أن رآه أوقع الله له في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدْناه وأجلسه ، وأخذ الشيخ في الكلام معه أوَّلًا في عكس رأيه عن تسليط المخزول ملك الكُرج على المسلمين ، وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكّره ووعظه ، فأجابه إلى ذلك طائعًا ، وحُقنتْ بسببه دماء المسلمين ، وحُميت ذراريهم ، وصِين حريمُهم .

يقول الحافظ عمر بن البزار في « الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية » : حدثني من أثق به ، عن الشيخ وجيه الدين بن المنجّا قدس الله روحه ، قال : كنتُ حاضرًا مع الشيخ حينئذٍ ، فجعل - يعني الشيخ - يحدّث السلطان بقوْل الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان في أثناء حديثه ، حتى جثا على ركبتيه ، وجعل يقرب منه في أثناء حديثه ، حتى لقد قرب أن تُلاصِق ركبتُه ركبةَ السلطان ، والسلطان مع ذلك مُقبلٌ عليه بكُلّيته ، مصْغٍ لما يقول ، شاخصٌ إليه ، لا يُعرض عنه ، وإن السلطان من شدة ما أوْقَعَ الله في قلبه من المحبة والهيبة ، سأل من يخصّه من أهل حضرته : مَنْ هذا الشيخ ؟ وقال ما معناه : إني لم أرَ مثله ولا أثبت قلبًا منه ، ولا أوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعْظَمَ انقيادًا مني لأحد منه . فأُخبرَ بحاله ، وما هو عليه من العلم والعمل . فقال الشيخ للترجمان : قلْ

لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذّنون – على ما بلغنا – فغزوْتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين ، وما عملا الذي عملت ، عاهدَا فوفَّيا ، وأنت عاهدت فغدرتَ ، وقلتَ فما وفَّيت ، وجُرْتَ .

وسأله : إن أحببتَ أن أُعمِّر لك بلد آبائك حَرّان ، وتنتقل إليه ، ويكون برسمك ؟ فقال : لا والله ، لا أرغب عن مهاجر إبراهيم ﷺ ، وأستبدل به غيره . فخرج من بين يديْه مُكرمًا مُعزَّزًا ، قد صنع له الله بما طوىٰ عليه نيَّته الصالحة من بذْله نفسَه في حقن دماء المسلمين ؛ **فبلّغه** ما أراده .

وكان ذلك أيضًا سببًا لتخليص غالب أُسارىٰ المسلمين من أيديهم وردِّهم على أهلهم ، وحفظ حريمهم[1] .

بل خلّص أهل الذمَّة من النصارىٰ واليهود ؛ لأن التتار ومن معهم من ملوك النصارى كانت لهم عداوة مع أبناء دينهم ، وكان بعضهم يفتك بالبعض الآخر ، فقال ابن تيمية للقائد (بولاي) ، وكان قد التحق مع **قازان** : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل ذمتنا ، فإنا نفكهم ولا ندع أسيرًا ، لا من أهل الملّة ، ولا من أهل الذمة .

يقول ابن تيمية : **وقدِ أطلقنا من النصارىٰ مَن شاء الله . فهذا عملنا** وإحساننا والجزاء على الله .

قال ابن تيمية : لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرضٍ في قلبه ؛ فإن رجلًا شكا إلى أحمد بن حنبل خوفَه من بعض الولاة . فقال : لو صَحَحْتَ لم تخفْ أحدًا .

---

(١) الأعلام العَليَّة صـ ٦٩ – ٧٢ .

فابن تيمية الخائف الوجِل الذي يهاب ربَّه تهابُه الملوكُ .

وقد قصَّ - أيضًا - هذه القصة الشيخ الصالح محمد بن أبي بكر ابن قوام البالسي ، وكان يومَ قازانَ في جملةِ مَن كان مع الشيخ تقي الدين ابن تيمية لمّا تكلم مع قازان ، فحكى عن كلام شيخ الإسلام تقي الدين لقازانَ ، وشجاعته وجرأته عليه ، وأنه قال لتُرْجمانه : قلْ لقازان : أنت تزعم أنك مسلم ، ومعك مؤذِّنون وقاضٍ وإمام وشيخ - على ما بلغنا - فغزوتَنَا ، وبلغتَ بلادنا على ماذا ؟! وأبوك وجدُّك (هولاكو) كانا كافرين ، وما غزوَا بلاد الإسلام ، بل عاهدوا قومنا ، وأنت عاهدتَّ فغدرت ، وقلت فما وفَّيت . قال : وجرَتْ له مع قازان وقطلوشاه وبولاي أمور ونُوَب ، قام ابن تيمية فيها كلّها لله ، وقال الحقَّ ، ولم يخشَ إلا الله عز وجل . قال : وقرّب إلى الجماعة طعامًا فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له : ألا تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامكم وكلّه مما نهبتُم من أغنام الناس ، وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ! قال : ثم إن قازان طلب منه الدعاء ، فقال في دعائه : اللهمَّ إن كان هذا - عبدك محمود - إنما يقاتل لتكون كلمتك هي العليا ، وليكون الدين كلُّه لك ، فانصرْه وأيّده ، وملِّكه البلاد والعباد ، وإن كان إنما قام رياءً وسمعة وطلبًا للدنيا ، ولتكون كلمته هي العليا ، وليذلَّ الإسلام وأهله ، فاخذله وزلْزِلْه ، ودمِّره واقطع دابره . قال : وقازان يؤمِّن على دعائه ، ويرفع يديه . قال : فجعلنا نجمع ثيابنا خَوْفًا من أن تتلوث بدمه إذا أمر بقتله . قال : فلما خرجنا من عنده ، قال له قاضي القضاة نَجم الدين بن صرصري وغيره : كِدتَّ أن تُهلكنا وتُهلك نفسك ، والله لا نصحبُك من هنا . فقال : وأنا والله لا أصحبكم . قال : فانطلقنا عُصبةً ، وتأخَّر هو في خاصَّةِ نفسه ، ومعه جماعة من أصحابه ، فتسامعتْ به الخواقِين والأمراء من أصحاب قازان ، فأتَوْه يتبرَّكون

بدعائه ، وهو سائر إلى دمشق ، وينظرون إليه ، قال : والله ما وصل إلى دمشق إلا في نحو ثلثمائة فارسٍ في ركابه ، وكنت أنا من جملة مَن كان معه ، وأمَّا أولئك الذين أَبَوْا أن يصحبُوه ، فخرج عليهم جماعة من التَّتر ، فشلَّحوهم عن آخرهم(١).

قال ابن كثير في « البداية والنهاية » في تاريخ سنة « أربع وسبعمائة » :

« وفي رجب أُحضر إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية شيخٌ كان يلبس دلقًا كبيرًا متَّسعًا جِدًّا ، يُسمَّى : المجاهد إبراهيم القطان ، فأمر الشيخ بتقطيع ذلك الدلق ، فتناهبه الناسُ من كلّ جانبٍ وقطّعوه ، حتى لم يدعُوا فيه شيئًا ، وأمَرَ بحلْق رأسه ، وكان ذا شعر ، وقلّم أظفاره ، وكانوا طوالًا جدًّا ، وحَفّ شاربه المُسبَل على فمه ، المخالف للسنة ، واستتابه من كلامه الفَحِش وأكْل ما يغيّر العقل ، من الحشيشة وما لا يجوز من المحرّمات وغيرها ، وبعدَه استحضر الشيخُ محمدَ الخباز البلاسي فاستتابه - أيضًا - عن أكْل المحرمات ومخالطة أهل الذمة ، وكتبَ عليه مكتوبًا أن لا يتكلم في تعبير المنامات ، ولا في غيرها بما لا عِلْمَ له به . وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد التاريخ ، وأمر أصحابه ومعهم حجّارون بقطع صخرةٍ كانت - بنهر قلوط - تُزار ويُنذر لها ، فقطعها وأراح المسلمين منها وَمِنَ الشِّرك بها ، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرُّها عظيما ، وبهذا وأمثاله حسدوه ، وأبرزوا له العداوة ، وكذلك بكلامه بابن عربي وأتباعه ، فحُسد على ذلك وعُودي ، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم ، ولا بالى ، ولم يصِلُوا إليه بمكروه ، وأكثر ما نالوا به الحبْس ، مع أنه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام ، ولم يتوجه لهم عليه ما

(١) البداية والنهاية (١٤ / ٩١ - ٩٢) .

يَشِينه ، وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه ، وإلى الله إيابُ الخلق وعليه حسابُهم .

وفي مستهَلِّ ذي الحجة رَكِبَ الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجَرَد والكسروانيين ، ومعه نقيبُ الأشراف زيْن الدين ابن عدنان ، فاستتابوا خلقًا منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ، ورجع مؤيَّدًا منصورًا »[1] .

وعن أحداث سنة تسعٍ وسبعمائة يقول ابن كثير : « استهلَّتْ وخليفةُ الوقت المستكفي أمير المؤمنين ... وسلطان البلاد ، الملك المظفر ، ركْن الدين بيبرس الجاشنكير . وفي ليلةِ سلَخَ صفرُ توجّه الشيخ تقي الدين ابن تيمية مِنَ القاهرة إلى الإسكندرية بصحبة أمير مقدَّم ، وكان دخوله إلى الإسكندرية يوم الأحد ، وبعد عشرة أيام وصل خبره إلى دمشق ، فحصل عليه تألُّم ، وخافوا عليه غائِلة الجاشنكير وشيخه المنبجي ، فتضاعف له الدعاء ؛ وذلك أنهم لم يُمكّنوا أحدًا من أصحابه أن يخرج معه إلى الإسكندرية ، فضاقتْ له الصدور ، وذلك أنه تمكن منه عدوُّه نصر المنبجي ، وكان سبب عداوته له أن الشيخ تقي الدين كان ينال من الجاشنكير ومن شيخه نصر المنبجي ، ويقول : زالت أيامه ، وانتهت رياسته ، وقرُب انقضاءُ أجلِهِ . ويتكلم فيهما ، وفي ابن عربي وأتباعه ، فأرادوا أن يُسيّروه إلى الإسكندرية - كهيئة المنفىٰ - لعلّ أحدًا من أهلها يتجاسَرُ عليه فيقتله غيْلَةً ، فما زاد ذلكِ الناسَ إلا محبة فيه ، وقربًا منه ، وانتفاعًا به ، واشتغالًا عليه ، وحُنُوًّا وكرامة له .

وجاء كتابٌ من أخيه يقول فيه : إن الأخ الكريم نزل بالثَّغْر المحروس على نية الرِّباط ؛ فإنّ أعداء الله قصدُوا بذلك أمورًا يَكيدونه بها ، ويَكيدون

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٦ - ٣٧ .

الإسلام وأهله ، وكانت تلك كرامةً في حقنا ، وظنوا أن ذلك يُؤدي إلى هلاك الشيخ ، فانقلبتْ عليهم مقاصدُهم الخبيثة ، وانعكستْ من كلّ الوجوه ، وأصبحوا وأمسَوْا ، وما زالوا عند الله وعند الناس العارفين سُودَ الوجوه ، يتقطعون حَسَراتٍ وندمًا على ما فعلوا . وانقلب أهل الثغر أجمعين إلى الأخ مُقْبلين عليه مُكرمين له ، وفي كل وقتٍ ينشر من كتاب الله ، وسنة رسوله ما تَقَرُّ به أعين المؤمنين ، وذلك شجًى في حُلُوق الأعداء .

واتُّفق أنه وَجَد بالإسكندريةِ إبليس[1] قد باض فيها وفرّخ ، وأضلّ بها فِرَق السبعينية والعربية ، فمزّق الله بقدومه عليهم شملهم ، وشتَّتَ جموعَهم شَذَرَ مَذَرَ ، وهتك أستارهم وفضحهم ، واسْتتاب جماعةً كثيرةً منهم ، وتوّب رئيسًا من رؤسائهم ، واستقر عند عامّة المؤمنين وخواصّهم من أميرٍ ، وقاضٍ وفقيه ، ومُفتٍ وشيخ ، وجماعة المجتهدين - إلَّا من شَذّ من الأغمار الجهّال ، مع الذلة والصَّغار - محبةُ الشيخ وتعظيمهُ وقبولُ كلامه ، والرجوع إلى أمره ونهيه ، فَعَلَتْ كلمةُ الله بها على أعداء الله ورسوله ، ولُعِنوا سرًّا وجهرًا ، وباطنًا وظاهرًا في مجامع الناس بأسمائهم الخاصَّة بهم ، وصار ذلك عند نصر المنبجي المقيم المقعد ، ونزل به من الخوْف والذل ما لا يُعَبَّر عنه »[2].

ابن تيمية والأحمدية الرفاعية :

عَنْ سَنة خمسٍ وسبعمائة يقول ابن كثير : « وفي يوم السبت تاسِع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة مِنَ الفقراء الأحمدية إلى نائب السلطنة بالقصر الأبلق ، وحضر الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، فسألوا مِن نائبِ

---

(١) كُنية إبليس : الشيخ أبو مرَّة .

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٥١ - ٥٢ .

السَّلْطنة بحضرة الأمراء أن يكُفَّ الشيخ تقي الدين إمارَته عنهم ، وأن يُسلم لهم حالهم ، فقال لهم الشيخ : هذا ما يمكن . لا بد لكلِّ أحدٍ أن يدخل تحت الكتاب والسنة قولًا وفعلًا ، ومن خرج عنهما وجب الإنكار عليه . فأرادوا أن يفعلوا شيئًا من أحوالهم الشيطانية التي يتعاطونها في سماعاتهم ، فقال الشيخ : تلك أحوالٌ شيطانية باطلة ، وأكثر أحوالهم مَن باب الحِيَل والبهتان ، ومَن أراد منهم أن يدخل النار ، فليدخل أولًا إلى الحمّام ولْيغسل جسدَه غسلًا جيدا ، ويدلِّكه بالخلّ والأُشنان ، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إنْ كان صادقًا ، ولو فُرض أنّ أحدًا من أهل البدع دخل النار بعد أن يغتسل ، فإن ذلك لا يَدلّ على صلاحه ولا على كرامته ، بل حاله من أحوال الدجاجلة المخالِفة للشريعة إلا إذا كان صاحبها على السنة ، فما الظن بخلاف ذلك . فابتدر شيخ المنيبع ، الشيخ صالح وقال : نحن أحوالنا إنما تَنْفَق عند التّتر ، ليست تنفق عند الشرع . فضبط الحاضرون عليه تلك الكلمة ، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد من رقابهم ، وأنّ من خرج عن الكتاب والسنة ضُربت عنقُه .

وصنّف الشيخ جزءًا في طريقة الأحمدية ، وبيّن فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيُّلاتهم ، وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب ، وأظهر الله السنة على يديْه ، وأخمد بدعتهم ، ولله الحمد والمنَّة »[1].

ويحلو لنا أن نبسُط هذه القصة بقلم ابن تيمية نفسه :

ابن تيمية يُخزي دَجَاجِلَة البطائحية :

ظهرت في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية جماعة تسمى بالبطائحية ،

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٣٨ .

وهم الأحمدية الرفاعية(١) ، وينتسبون إلىٰ الزهد والتصوف ، ويدَّعون التأله والتعبد ، ولكنهم يقومون بأعمالٍ شركية ، ويُظهرون بدَعًا ما أنزل الله بها من سلطان ، ويحتالون لنيْل أغراضهم بالكذب والتلبيس على الناس ، ويُظهرون أعمالًا وخوارقَ يدلّلون بها على أن طريقهم حقٌّ وصدق ، كالدخول في النار ، وملامسة الحيَّات ، وإظهار الدم واللَّاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك ، وقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية في وجهِ باطِلِهم ، وأنكر عليهم ما خالفوا فيه أحكام الإسلام ، وسنَّة الرسول ﷺ ، وجَرَت بينه وبين رجالهم وزعمائهم مراجعاتٌ ومحاوراتٌ ، فأقام عليهم الحجة ، وكشف باطلهم ، ثمَّ ناقشهم في مَحفلٍ عامٍّ ، حضر فيه الأمراء والقوَّاد والعلماء ، وكثير من أهل دمشق وغيرهم ، وسنذكر طَرَفًا مما جرىٰ بينه وبينهم مما ذكره شيخ الإسلام نفسه(٢) .

فمن ذلك أن شيخًا منهم استدل على باطله بأنَّه كان عند بعض أمراء التَّتر بالمشرق ، وكان له صنم يعبده ، فقال له الأمير التتري : هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كلَّ يوم ، ويبقىٰ أثر الأكل في الطعام بيِّنًا يُرىٰ فيه . فأنكر الشيخ ذلك ، فقال له الأمير التتري : إنْ كان يأكل ، فأنت تموت . فقال الشيخ : نعم . قال : فأقمت عنده إلى نصف النهار ، ولم يظهر في الطعام أثر ، فاستعظم ذلك التتري ، وأقسم بأيْمانٍ مغلَّظة أنه كلَّ يوم يَرىٰ فيه أثر الأكل ، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك . فقال شيخ الإسلام : أنا أبيِّن لك سبب ذلك ؛ ذلك التتري كافر مشرك ، ولصنمه شيطان يغويه بما يُظهره من الأثر في الطعام ، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله

(١) الشيخ أحمد الرفاعي بريء منهم ؛ لأنه من شيوخ أهل السنة والجماعة ، أثنى عليه ابن تيمية ، والحافظ الذهبي في السير ، وكفىٰ بهذا تعديلًا له .

(٢) مجموع فتاوىٰ ابن تيمية ١١ / ٤٤٥ - ٤٤٧ .

تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك ، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك ، فالتتري وأمثاله سُودٌ ، وأهل الإسلام المحْض بيضٌ ، وأنتم بلَق ، فيكم سواد وبياض . فأعجب هذا المثل من كان حاضرًا .

نهي الشيخ لهم عن التعبُّد بما لم يشرعه الله :

قال شيخ الإسلام : جاءني جماعة منهم مع شيخ لهم من شيوخ البر ، مطوَّقين بأغلالِ الحديد في أعناقهم ، وهو وأتباعه معروفون بأمور ، وكان يحضر عندي مرّاتٍ فأخاطبه بالتي هي أحسن ؛ فلما ذكر الناس ما يُظهرونه من الشعار المبتدَع الذي يتميزون به عن المسلمين ، ويتخذونه عبادة ودينًا يوهمون به الناس أن هذا سرٌّ من أسرارهم ، وأنه سِيمَاء أهل الموهبة الإلـٰهية السالكين طريقهم – أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه – خاطبتُه في ذلك في المسجد الجامع ، وقلت : هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعَل ذلك أحدٌ من سلف هذه الأمة ، ولا من المشايخ الذين يقتدىٰ بهم ، ولا يجوز التعبُّد بذلك ، ولا التقرُّب به إلى الله تعالى ؛ لأنَّ عبادة الله بما لم يشرعْه ضلالة ، ولباسُ الحديدِ على غير وجه التعبد قد كَرِهَه مَن كرهه مِن العلماء ؛ للحديث المرويّ في ذلك وهو أن النبي ﷺ رأى على رجل خاتمًا من حديد فقال : « ما لي أرىٰ عليك حِلية أهل النار ؟ » . وقد وصف الله تعالى أهل النار بأنَّ في أعناقهم الأغلال ، فالتشبه بأهل النار من المنكرات ، وقال بعض الناس : قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ في حديث الرؤيا ، قال في آخره : « أحبُّ القيْد وأكره الغُلَّ . القيْد ثبات في الدين » . فإذا كان مكروهًا في المنام فكيف في اليقظة ؟!..

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحوًا منه مع زيادة . وخوَّفته مِن عاقبة الإصرار على البدعة . وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله ،

ونحو ذلك مِنَ الكلام الذي نسيتُ أكثره لبعْد عَهدي به . وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبُّد بها - باتفاق المسلمين - ولا التقرب بها إلى الله ، ولا اتخاذها طريقًا إلى الله وسببًا لأَنْ يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيرًا عند الله وقربةً إليه ، ولا أن يُجعل شعارًا للتائبين المريدين وجهَ الله ، الذين هم أفضل ممن ليس مثلَهم .

التقرُّب إلى الله بفعل المباح والمكروه والحرام :

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أنَّ المباحات إنَّما تكون مباحة إذا جُعلت مباحاتٍ ، فأمَّا إذا اتُخذت واجباتٍ أو مستحباتٍ كان ذلك دينًا لم يشرعه الله ، وجعْلُ ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعْل ما ليس من المحرمات منها ، فلا حرام إلا ما حرّمه الله ؛ ولا دِين إلا ما شرعه الله ؛ ولهذا عظُمَ ذمُّ الله في القرآن لمن شرع دينًا لم يأذنِ الله به ، ولمن حرّم ما لم يأذنِ الله بتحريمه . فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات ؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر ، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم ، لم يجب عليه فعْله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه ، بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل ، عند أحمد وغيره . وعند آخرين لا شيء عليه ، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة طاعةً وعبادةً .

العهود التي تؤخذ على الناس مخالفة للكتاب والسنَّة :

ونحو ذلك العهود التي تُتَّخذ على الناس لالتزام طريقةِ شيخٍ معيَّنٍ ، كعهود أهل « الفُتُوَّة » ، و« رُمَاة البنْدق » ، ونحو ذلك ، ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدِّين والطاعة لله إلَّا ما كان دِينًا وطاعةً لله ورسوله في شرع الله . لكن قد يكون عليه كفارة عند الحِنْثِ في ذلك ؛

ولهذا أمرتُ غيرَ واحد أن يعدِلَ عما أُخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحةٍ ، أو مشتملة على أنواعٍ من البدع ، إلى ما هو خيرٌ منها من طاعة الله ورسوله ﷺ ، واتباع الكتاب والسنَّة ؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل : إنَّه قربة وطاعة وبرٌّ ، وطريق إلى الله ، واجب أو مستحب إلَّا أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ ؛ وذلك يُعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك ، وما عُلم باتفاق الأمّة أنَّه ليس بواجب ولا مستحبٍّ ، ولا قربة؛لم يَجُز أن يُعتقد ، أو يُقال : إنَّه قربة وطاعة .

فكذلك هم متفقون على أنَّه لا يجوز قصْد التقرب به إلى الله ، ولا التعبُّد به ، ولا اتخاذه دينًا ، ولا عَمَلُه من الحسنات ، فلا يجوز جعْله من الدين لا باعتقاد وقول ، ولا بإرادة وعمل . وبإهمال هذا الأصل غلط خلْق كثير من العلماء ، يروْن الشيء إذا لم يكن محرَّمًا لا يُنهىٰ عنه ، بل يقال : إنه جائز . ولا يفرقون بين اتخاذه دينًا وطاعة وبرًا ، وبين استعماله كما تُستعمل المباحات المحضة ، ومعلوم أن اتخاذه دينًا بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما ، أو بالقوْل أو بالعمل أو بهما - من أعظم المحرّمات وأكبر السيئات ، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يُعلم أنها مَعَاصٍ وسيئات .

نفاق ومداهنة :

فلما نهيْتُهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ، ومَضَتْ على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين ، وإظهار ما يخالف شِرْعة المسلمين ، ويطلبون الإيقاع بهم ، وأنا أسلك مسلك الرِّفق والأَنَاة ، وأنتظر الرجوع والفيْئة ، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع . وكان قد كتب إلَيَّ كتابًا بعد كتابٍ ، فيه احتجاج واعتذار ،

وعتبٌ وآثار ، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة ، بل إمَّا أحاديث موضوعة ، أو إسرائيليات غير مشروعة ، وحقيقة الأمر الصَّدُّ عن سبيل الله ، وأكْل أموال النَّاس بالباطل .

شيخ الإسلام يطلب شيخهم للمناظرة :

فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب ؛ فإن جوابَ مثلِ هذا الكتاب لا يتم إلَّا بذلك . وحضر عندنا منهم شخصٌ فنزعنا الغُلَّ من عنقه . وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ** ﴾ [القصص : ٥٠] ؛ ولهذا غَالِبُ وجدِهم هوًى مطلقٌ ، لا يدرون من يعبدون ، وفيهم شَبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ [المائدة : ٧٧] ؛ ولهذا كان السلف يُسَمُّونَ أهلَ البدع :أهلَ الأهواء .

رَفْضُهم للحِجَاج وإظهارهم الدَّجَل والتَّهريج :

فَحَمَلَهم هواهُم على أن تجمَّعوا تجمُّع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب ، بالأحوال التي يعدونها للغلاب . فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله ﷺ ، ونتفق على اتباع سبيله ، فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة ، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مَطلوبهم ، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو – على ما ذكر لي – وهم من الصِّياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العُجاب . فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعْذِرة ، وطلبًا للبيان والتبصرة ، ورجاءَ المنفعة والتذكرة . فعمدوا إلى القصرة مرة ثانية ، وذكر لي أنهم قدِموا

من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد ، واضطراب الرؤوس والأعضاء ، والتقلُّب في نهر بَرَدَى ، وإظهار التَّولُّه الذي يُخيِّلون به على الورىٰ ، وإبراز ما يدَّعونه من الحال والمُحَال ، الذي يسلمه إليهم مَن أضلوا من الجهال .

بين البطائحية والأمير :

فلما رأى الأمير ذلك هالَه ذلك المنظر . وسأل عنهم ، فقيل له : هم مشتَكُون ، فقال : ليدخلْ بعضُهم . فدخل شيخهم ، وأظهر من الشكوىٰ عليَّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلامًا كثيرًا لم يبلغني جميعه ، لكن حدثني مَن كان حاضرًا أنَّ الأمير قال لهم : فهذا الذي يقوله مِنْ عنده ، أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ ؟ فقالوا : بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ . قال فأيّ شيء يُقال له ؟ قالوا : نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا . قال : فنسمع كلامه ، فمَن كان الحق معه نصرناه . قالوا : نريد أن تشدَّ منا . قال : لا ، ولكن أشدُّ من الحقِّ ، سواء كان معكم أو معه . قالوا : ولا بدَّ من حضوره ؟ قال : نعم . فكرَّروا ذلك ، فأمر بإخراجهم . فأرسل إليَّ بعضَ خواصّه مِن أهل الصدق والدين ممن يَعرفُ ضلالَهم ، وعَرَّفني بصورة الحال ، وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

نُصْح شيخ الإسلام لهم :

فلمّا علمتُ ذلك أُلقي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين ، وكشْف حال أهل النفاق المبتدعين ، لانتشارهم في أقطار الأرضين ، وما أحببتُ البغْي عليهم والعدوان ، ولا أن أسلك معهم إلَّا أبلغ ما يمكن من الإحسان ، فأرسلت إليهم من عَرَّفهم بصورة الحال ، وإني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال ، وكثُر فيكم القيل والقال ، وإن من قعد أو قام قُدَّامَ رماحِ أهل الإيمان ، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان . فاجتمعوا ،

وأشار عليهم شيوخُهم بإظهار موافقة الشريعة ، والخروج عما يُنكر عليهم من البدع . وقال لهم شيخهم : أحوالنا تَظْهر عند التتار ، لا عند شرع محمد بن عبد الله ، ونزعوا الأغلال من الأعناق ، وأجابوا إلى الوفاق .

الأمير يُصرُّ على كشْف باطلهم :

ولكن الأمير أصرّ على عقْد المناظرة ، لكشْف باطلهم ، وألزَمَهم بالحضور .

شيخ الإسلام يستنْصِرُ ربَّه :

قال رحمه الله : فاستخرتُ الله تعالى تلك الليلة ، واستعنته واستنصرته واستهديته ، وسلكتُ سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى أُلقيَ في قلبي أن أُدخل النَّار عند الحاجة إلى ذلك[1] ، وأنها تكون بَرْدًا وسلامًا على من اتَّبع ملةَ الخليل ، وأنها تحرق أشباهَ الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل . وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم - إمامِ الحنفاء - بنواحي البطائح منضمين إلى مَن يُضاهيهم مِن نصارىٰ الدَّهماء .

وَبَيْنَ الصابئة وَمَن ضَلَّ مِن العباد المنتسبين إلى هذا الدين نَسَبٌ يعرفه مَن عرف الحق المبين . فالغالية من القرامطة والباطنية ، كالنصيرية والإسماعيلية ، يخرجون إلى مُشابَهَة الصابئة الفلاسفة ، ثم إلى الإشراك ، ثم إلى جحود الحق تعالى . ومن شركهم الغلوُّ في البَشَر ، والابتداع في العبادات ، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك ، بحسب ما هو به لائق ، كالملحدين من أهل الاتحاد ، والغالية من أصناف العباد .

---

(١) يقول الشيخ عمر الأشقر معلِّقًا في كتابه « جَوْلَةٌ في رياض العلماء » صـ ١٨٩ : رحمه الله ، ما كان أسخاه بنفسه في سبيل إظهار دين الله .

استثارتُهم للناس وجَمْعُهم الأعوانَ والأنصار :

فلما أصبحنا ذهبتُ للميعاد ، وما أحببت أن أستصحب أحدًا للإسعاد ، لكن ذهب أيضًا بعض من كان حاضرًا من الأصحاب ، واللهُ هو المسبِّبُ لجميع الأسباب . وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء ، وقالوا أنواعًا مما جرتْ به عادتُهم من التلبيس والافتراء ، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء ، مثل زَعْمهم أنّ لهم أحوالًا لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء ، وأنّ لهم طريقًا لا يعرفها أحد من العلماء . وأن شيخهم هو في المشايخ كالخليفة ، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المَنِيفة ، وأن المُنْكِر عليهم هو آخذٌ بالشرع الظاهر ، غيرُ واصل إلى الحقائق والسرائر ، وأن لهم طريقًا وله طريق ، وهم الواصلون إلى كُنْهِ التحقيق . وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق .

سببُ انتشارِهم في ديار الإسلام :

وكانوا لِفَرْط انتشارهم في البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ؛ لخفاء نور الإسلام ، واستبدالِ أكثر الناس بالنورِ الظلامَ ، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار ، ودروس حقيقةِ الإسلام في دولة التتار - لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقوْل قائل .

أنصار الباطل :

قال المخبرُ : فغدا أولئك الأمراءُ الأكابر ، وخاطبوا فيهم نائبَ السلطان بتعظيم أمرهم الباهر . وَذَكَر لي أنواعًا من الخطاب ، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب ، والأمير مستشعر ظهورَ الحق عند التحقيق ، فأعاد الرسولَ إليّ مرة ثانية فبلغتُه أنّا في الطريق . وكان كثير من أهل البدع الأضّداد - كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد - مُجدِّين في نصْرهم بحسب مقدورهم ،

مجهزين لمن يُعينهم في حضورهم . فلما حضرتُ وجدتُّ النفوس في غاية الشوْق إلى هذا الاجتماع ، متطلعين إلى ما سيكون ، طالبين للاطلاع .

كذِبُهم على الشيخ ، وفضْح الشيخ لهم ، وكشْفُه لباطلهم :

فلما وصل الشيخ ذكر له نائب السلطان وغيره أنهم قالوا : إن الشيخ طلبهم للامتحان ، وأن يُحْموا الأطواقَ نارًا ويَلبسونها . فأَكْذَبَ ذلك ، وقال للأمير : نحن لا نستحلُّ أن نأمر أحدًا بأن يدخل نارًا ، ولا تجوز طاعة مَن يأمر بدخول النَّار ، وفي ذلك الحديث الصحيح . وهؤلاء يكذبون في ذلك ، وهم كذَّابون مبتدعون ، قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم . وذكرت تلبيسَهم على طوائف من الأمراء ، وأنَّهم لبَّسوا على الأمير المعروف بالأيدمري ، وعلى قفجق نائب السلطنة ، وعلى غيرهما ، وقد لبَّسوا أيضًا على الملك العادل - كتغا - في مُلكه ، وفي حالة ولاية حماة ، وعلى أمير السلاح ، أجلِّ أمير بديار مصر . وضاق المجلس عن حكاية جميعِ تلبيسهم ، فذكرتُ تلبيسهم على الأيدمري ، وأنَّهم كانوا يُرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق المُكاشفة ، ووعدوه بالمُلْك ، وأنهم وعدوه أن يُروه رجالَ الغيْب ، فصنعوا خُشبًا طوالًا ، وجعلوا عليها مَن يمشي كهيئةِ الذي يلعب بأكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة ، وذاك يَرىٰ مِن بعيدٍ قومًا يطوفون على الجبل ، وهم يرتفعون عن الأرض ، وأخذوا منه مالًا كثيرًا ، ثم انكشف له أمرهم .

قلت للأمير : وولدُه هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك ، وهو ممن حدثني بهذه القصة ، وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلًا في القبر يتكلم ، وأوْهموه أن الموتىٰ تتكلم ، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجلٍ زعموا أنَّه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ، ولم يُقربوه منه ، بل مِن بعيد ؛ لتعود عليه بركته ، وقالوا : إنه طلب منه جملةً من المال . فقال قفجق : الشيخ

يكاشف ، وهو يعلم أنَّ خزائني ليس فيها هذا كله . وتَقرَّب قفجق منه وجذَب الشَّعَرَ ، فانقلع الجِلْد الذي ألصقوه على جلده من جلْد الماعز . فذكرت للأمير هذا ؛ ولهذا قيل لي : إنه لما انقضى المجلس ، وانكشف حالهم للناس ، كتب أصحاب قفجق إليه كتابًا ، وهو نائب السلطنة بحماة يخبره بصورة ما جرىٰ .

وذكرتُ للأمير أنهم مُبتدِعون بأنواعٍ من البدع ، مثل الأغلال ونحوها ، وأنَّا نهيْناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة . فذكر الأمير حديث البدعة ، وسألني عنه ، فذكرت حديث العِرْباضِ بن سَارِيَة ، وحديث جابر ابن عبد الله ، وقد ذكرتُهما بعد ذلك بالمجلس العامّ ، كما سأذكره .

الشيخ مستعد لدخول النار لكشْف باطِلهم :

قلت للأمير : أنا ما امتحنتُ هؤلاء ، لكن هم يزعمون أنَّ لهم أحوالًا يدخلون بها النَّار ، وأنَّ أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك ، ويقولون لنا : هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشّرع ، ليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يُسلَّم إلينا ما نحن عليه ، سواء وافق الشرع أو خالفه . وأنا قد استخرتُ الله سبحانه أنهم إنْ دخلوا النار أَدخل أنا وهم ، ومن احترقَ منّا ومنهم فعليه لعنة الله وكان مغلوبًا ، وذلك بعد أن نغسل جسومَنا بالخَلّ والماء الحارّ .

حِيلة دخول النار :

فقال الأمين : ولِمَ ذاك ؟ قلت : لأنهم يَطْلُون جسومَهم بأدوية يصنعونها من دُهْن الضفادع ، وباطنِ قشْر النارنج ، وحجرِ الطلق ، وغير ذلك من الحِيل المعروفة لهم . وأنا لا أطلي جلدي بشيء ، فإذا اغتسلتُ أنا وهم بالخَلّ والماء الحار ، بطُلتْ الحيلة وظهر الحق . فاستعظم الأميرُ هجومي على النار ، وقال : أتفعل ذلك ؟ فقلت له : نعم ، قد استخرت الله

في ذلك ، وألقى في قلبي أن أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء ؛ فإنَّ خوارق العادات إنما تكون لأمَّة محمد ﷺ ، المتبعين له باطنًا وظاهرًا - لحُجَّةٍ أو حاجةٍ ، فالحجة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بد منه ، من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله . هؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتِهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تُبطل دين الله وشرعه ، وجب علينا أن ننصر الله ورسوله ﷺ ، ونقوم في نصر دين الله وشريعته ، بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذٍ أن نعارض ما يُظهرونه مِن هذه المخاريق ، بما يؤيدنا الله به من الآيات .

ولْيُعلمْ أن هذا مثلُ معارضة موسى للسحرة ، لمّا أظهروا سحرهم أيَّد الله موسى بالعصا التي ابتلعتْ سحرهم . فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السّماط بذلك ، وفرح بذلك ، وكأنهم كانوا قد أوهموه أنَّ هؤلاء لهم حال لا يقدر أحدٌ على ردِّه . وسمعتُه يخاطب الأمير الكبير الذي قَدِم من مصر (الحاج بهادر) - وأنا جالسٌ بينهما على رأس السّماط - بالتركي ، ما فهمتُه منه إلَّا أنه قال : اليوم ترىٰ حربًا عظيمًا . ولعل ذاك كان جوابًا لمن كان خاطبه فيهم ، على ما قيل .

الأمير يُصرُّ على البيان :

وحضر شيوخُهم الأكابر ، فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح ، وإطفاءَ هذه القضية ، ويترفقون ، فقال الأمير : إنما يكون الصُّلح بعد ظهور الحق . وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر ، أنا وهو وبَهادر ، فسمعتُه يذكر له أيُّوب الحمّال بمصر ، والمُولَهين ونحو ذلك ، فدلَّ ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظَّمة ، وأن لهم فيهم ظنًّا حسنًا ، والله أعلم بحقيقة الحال ؛ فإنه ذكر لي .

وكان الأمير أحبَّ أن يُشهد (بهادرَ) هذه الواقعة ليتبيَّن له الحقّ ،

فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده ، وقد قدِم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه ، فأمر ببساط يُبسط في الميْدان . وقد قدم البطائحية ، وهم جماعة كثيرون ، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية ، من الإزباد والإرغاء ، وحركة الرؤوس والأعضاء ، والطفر والحبْو والتقلُّب ، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات ، والحركات الخارجة عن العادات ، المخالِفة لما أمَر به لقمان لابنه في قوله تعالى : ﴿ **وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ** ﴾ الآية . [لقمان : ١٩] . فلما جلسنا وقد حضر خَلْق عظيم من الأمراء والكتّاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم ، وحضر شيخهم الأوَّلُ المشتكي ، وشيخ آخر يُسمي نفسه : خليفةَ سيِّده أحمد ، ويركب بعلمين ، وهم يسمُّونه : عبد الله الكذَّاب . ولم أكن أعرف ذلك . وكان من مدةٍ قد قدِم عليَّ منهم شيخٌ بصورةٍ لطيفة ، وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيتُه طلْبَتَه ، ولم أتفطّنْ لكذبه ، حتى فارقني ، فبقي في نفسي أنَّ هذا خفيَ عليَّ تلبيسُه إلى أن غاب ، وما يكاد يخفى عليَّ تلبيسُ أحدٍ ، بل أُدركه في أول الأمر ، فبقي ذلك في نفسي ، ولم أره قطُّ إلى حين ناظرتُه ، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديمًا ، فتعجبتُ من حسْن صنْع الله ، أنه هتكه في أعظم مشهد يكون ، حيث كتم تلبيسَه بيني وبينه .

فلما حضروا تكلّم منهم شيخٌ - يقال له : حاتم - بكلامٍ مضمونه طَلَبُ الصلح ، والعفو عن الماضي والتوبة ، وأنّا مُجيبون إلى ما طلب من ترْك هذه الأغلال وغيرها من البدع ، ومُتّبعون للشريعة . فقلت : أما التوبة فمقبولة . قال الله تعالى : ﴿ **غَافِرِ ٱلذَّنبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ** ﴾ الآية [غافر : ٣] هذه إلى جنب هذه . وقال تعالى : ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ** ﴾ [الحجر : ٤٩ - ٥٠] .

ردُّ الشيخ عليهم في بدعةِ لُبْسِ أطواق الحديد :

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للُبسهم الأطواق ، وذكر أن وَهْبَ بنَ مُنبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابدٌ ، وأنه جعل في عنقه طَوْقًا ، في حكاية من حكايات بني إسرائيل ، لا تثبت . فقلت لهم : ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا ؛ قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله ، أن النبي ﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة ، فقال : « أَمُتَهوِّكونَ يا ابن الخطاب ؟! لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى حيًّا ، ثم اتبعتموه وتركتموني لَضللْتم ». وفي مراسيل أبي داود أن النبي ﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئًا من كتب أهل الكتاب ، فقال : « كفى بقومٍ ضلالة أنْ يتبعوا كتابًا غيرَ كتابهم ، أُنزل إلى نبي غير نبيهم » ، وأنزل الله تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ** ﴾ الآية . [العنكبوت : ٥١] .

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى ، فيما علمنا أنَّه أُنزل عليهما من عند الله ، إذا خالف شرعنا ، وإنَّما علينا أن نتَّبع ما أُنزل علينا من ربنا ، ونتّبع الشرعة والمِنْهاج الذي بعث الله به إلينا رسولَنا . كما قال تعالى : ﴿ **فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ الآية [المائدة : ٤٨] . فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تُعلَم صحتها ؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل ؟! ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [البقرة : ١٤١] . هاتِ ما في القرآن ، وما في الأحاديث الصِّحاح ، كالبخاري ومسلم . وذكرتُ هذا وشبهه بكيفية قوية .

لا يجوز الخروج على الشريعة بحال :

فقال هذا الشيخ منهم ، يخاطب الأمير : نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قومٌ شافعية . فقلت له : هذا غير مستحبٍّ ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين ؛ بل كلُّهم يَنهى عن التعبُّد به ويَعُدُّه بدعة . وهذا الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني مفتي الشافعية دعوتُه ، وقلت : يا كمال الدين ، ما تقول في هذا ؟ فقال : هذا بدعة غير مستحبة ، بل مكروهة . أو كما قال . وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوطُ طائفةٍ من العلماء بذلك . وقلت : ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد ﷺ ، ولا الخروج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ . وأشكُّ هل تكلمتُ هنا في قصة موسى والخضر ، فإنِّي تكلمتُ بكلام بَعْدَ عهدي به .

الباطن والظاهر محكومٌ بالكتاب والسنَّة :

فانتدبَ ذلك الشيخُ عبد الله ورفع صوته ، وقال : نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يُوقف عليها . وذكر كلامًا لم أضبط لفظَه ، مثل المجالس والمدارس ، والباطن والظاهر ، ومضمونُه : أنَّ لنا الباطن ولغيرنا الظاهر ، وأن لنا أمرًا لا يقف عليه أهل الظاهر ، فلا يُنكرونه علينا .

فقلتُ له - ورفعت صوتي وغضبت - : الباطن والظاهر والمجالس والمدارس ، والشريعة والحقائق ، كلّ هذا مردود إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، لا من المشايخ والفقراء ، ولا من الملوك والأمراء ، ولا من العلماء والقُضاة وغيرهم ؛ بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ . وذكرت هذا ونحوه .

إدِّعَاءُ الخوارق :

فقال - ورفع صوته - : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا . وادعى

الأحوال الخارقة كالنار وغيرها ، واختصاصهم بها ، وأنهم يستحقون تسليمَ الحال إليهم لأجْلها .

فقلت - ورفعتُ صوتي وغضبت - : أنا أخاطب كلّ أحمديّ من مشرق الأرض إلى مغربها ، أيّ شيء فعلوه في النار ، فأنا أصنع مثل ما تصنعون ، ومن احترقَ فهو مغلوبٌ - وربما قلت : فعليه لعنة الله - ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخلّ والماء الحار . فسألني الأمراء والناس عن ذلك ، فقلت : لأن لهم حِيَلًا في الاتصال بالنار ، يَصنْعُونها من أشياء من دُهن الضفادع ، وقشر النارنج ، وحجر الطلق . فضجَّ الناس بذلك ، فأخذ يُظهر القدرة على ذلك ويقول : أنا وأنت نلف في بارية ، بعد أن تُطلىٰ جسومُنا بالكِبْريت . فقلت : فقم . وأخذتُ أكرر عليه في القيام إلى ذلك ، فمدَّ يده يُظهر خَلْع القميص ، فقلت : لا ، حتى تغتسل في الماء الحارّ والخلّ . فأظهر الوهم على عادتهم ، فقال : من كان يحب الأمير فليُحضرْ خشبًا . أو قال : حزمة حطبٍ . فقلت : هذا تطويلٌ وتفريق للجمع ، ولا يحصل به مقصود بل قنديل يُوقد ، وأُدخل أُصبعي وأُصبعَك فيه بعد الغسْل ، ومنِ احترقت أصبعُه فعليه لعنة الله ، أو قلت : فهو مغلوب . فلما قلت ذلك تغيَّر وذَلّ . وذكر لي أنَّ وجهه اصفر .

الخوارق ليست دليل الصَّلاح والتُّقىٰ :

ثم قلت لهم : ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة ، ولو طِرتُم في الهواء ، ومشيْتم على الماء ، ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدلّ على صحة ما تدَّعونه من مخالفة الشرع ، ولا على إبطال الشرع ؛ فإنَّ الدَّجال الأكبر يقول للسماء : أمطري . فتمطر ، وللأرض : أنبتي . فتنبت ، وللخربة : أَخرجي كنوزَكِ . فتُخرج كنوزها تتبَعُه ؛ ويقتل رجلًا ثم يمشي بين شِقَّيْه ، ثم يقول له : قُمْ . فيقوم ، ومع هذا فهو دجَّالٌ كذّاب

ملعون ، لعنه الله . ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقْعٌ عظيم في القلوب .

وذكرتُ قوْل أبي يزيد البسْطامي : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ، ويمشي على الماء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي . وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنَّه قال للشافعي : أتدري **ما قال صاحبنا ؟- يعني الليث بن سعد - قال : لو رأيتَ صاحب هوًى** يمشي على الماء ، فلا تغتر به . فقال الشافعي : لقد قصر اللَّيث ، لو رأيتَ صاحب هوًى يطير في الهواء فلا تغتر به . وتكلمتُ في هذا ونحوه بكلامٍ بعُد عهدي به . ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح . وجعلتُ أُلحُّ عليه في إظهـار ما ادَّعـوه من النار مـرةً بعـد مـرةٍ ، وهم لا يُجيبون ، وقد اجتمع عامّة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم ، وهم عدد كثير ، والناس يضجون في الميدان ، ويتكلمون بأشياء لا أضبطها .

وقع الحقُّ وبطَل ما كانوا يعملون :

فذكر بعض الحاضرين أنَّ النَّاس قالوا ما مضمونه : ﴿ **فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ** ﴾ وذكروا أيضًا أنَّ هذا الشيخ يُسمَّى : عبد الله الكذاب . وأنَّهُ الذي قصَدك مرة فأعطيتَه ثلاثين درهمًا . فقلت : ظهر لي - حين أخذ الدراهم وذهب -- أنه مُلَبِّس ، وكان قد حكى حكاية عن نفسه ، مضمونها أنَّه أَدخل النَّار في لحيته قُدّام صاحب حَماة ، ولما فارقني وقع في قلبي أنَّ : لحيته مدهونة ، وظهر عجزهم وكذبهم وتلبيسهم .

استخدام القوة إن لم تنفع الحُجّة :

فقال : فبأي شيء تبطل هذه الأحوال ؟ فقلت : بهذه السِّياط الشرعية . فأعجب الأمير وضحك ، وقال : إيْ والله ، بالسِّياط الشرعية تبطل هذه

الأحوال الشيطانية . كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ، ومن لم يُجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية . وأمسكتُ سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه ، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ ، فمن خرج عن كتاب الله وسنَّة رسوله ضربناه بسيف الله . وأعاد الأمير هذا الكلام .

لا يُقَرُّ أحدٌ على إظهار المنكر في ديار الإسلام :

وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يُقَرُّون ولا نُقَرُّ نحن ؟!. فقلت : اليهود والنصارى يُقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دُورهم ، والمبتدِع لا يُقَرُّ على بدعته . فأُفحموا بذلك .

وحقيقة الأمر أن مَن أظهر منكرًا في دار الإسلام لم يُقَرَّ على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يُقَر ، ولا يُقَر مَن أظهر الفجور ، وكذلك أهل الذّمة لا يُقَرون على إظهار منكرات دينهم ، ومَن سواهم فإنْ كان مسلمًا أخذ بواجباتِ الإسلام وترك محرماتِه ، وإن لم يكن مسلمًا ولا ذِميًا ، فهو إما مرتدٌّ وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة .

ذمُّ المبتدِعَة :

وذكرت ذمَّ المبتدعة ، فقلت : روى مسلم في صحيحه عن جعفر ابن محمد الصادق ، عن أبيه أبي جعفر الباقر ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته : « إنَّ أصدق الكلام كلام الله ، وخيرَ الهدي هدي محمد ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وفي السنن عن العرباض بن سارية ، قال : خطَبَنَا رسول الله ﷺ خطبةً ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مُودِّعٍ ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بالسمع والطاعة ،

فإنه من يَعِش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسّكوا بها ، وعضّوا عليها بالنواجذ ، وإيّاكم ومُحدَثات الأمور ؛ فإنَّ كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » . وفي رواية : « وكل ضلالة في النار » .

البدعة شرٌّ من الزنا والمعاصي :

فقال لي : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثًا في ذمّ الزنا . فقلت : هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، والزنا معصية ، والبدعة شرٌّ من المعصية ، كما قال سفيان الثوري : البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية ؛ فإنَّ المعصية يُتاب منها ، والبدعة لا يُتاب منها . وكان قد قال بعضهم : نحن نُتَوِّب الناس ، فقلت : من ماذا تتوبونهم ؟ قال : من قطْع الطريق ، والسرقة ، ونحو ذلك . فقلت : حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم ؛ فإنهم كانوا فُسّاقًا يعتقدون تحريم ما هم عليه ، ويرجون رحمة الله ، ويتوبون إليه ، أو ينْوُون التوبة ، فجعلتموهم بتتويبكم ضالّين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما يُبْغضه الله ويُبغضون ما يحبه الله . وبيّنتُ أنَّ هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شرٌّ مِنَ المعاصي .

قلت مخاطبًا للأمير والحاضرين : أمّا المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلًا كان يدعى حمارًا ، وكان يشرب الخمر ، وكان يُضحك النبي ﷺ ، وكان كلما أُتي به النبي ﷺ جلده الحدَّ ، فلعنه رجل مرةً ، وقال : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي ﷺ !. فقال النبي ﷺ : « لا تلعنْه فإنه يحبُّ الله ورسوله » . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر ، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله ، شهد له النبي ﷺ بذلك ، ونهى عن لعْنه .

وأما المبْتَدِع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب ،

وعن أبي سعيد الخدري وغيرهما - دخل حديث بعضهم في بعض - أن النبي ﷺ كان يَقْسِم ، فجاءه رجل ناتِئُ الجبين ، كَثُّ اللحية ، محلوقُ الرأس ، بين عينيه أثر السجود ، وقال ما قال ، فقال النبي ﷺ : « يخرج من ضِئْضِيء هذا قوم يحقر أحدكم صلاتَه مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءَته مع قراءتهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرُقون **من الإسلام كما يمرُق السهم من الرَّمِيَّة ؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتلَ عاد »** وفي رواية : « لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل » ، وفي رواية : « شرُّ قتلى تحت أديم السماء ، خيرُ قتلى من قتلوه » .

قلت : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم ، وما هم عليه من العبادة والزهادة أمَرَ النبي ﷺ بقتلهم ، وقَتَلهم عليّ بن أبي طالب ومَن معه من أصحاب النبي ﷺ ؛ وذلك لخروجهم عن سُنَّة النبي وشريعته ، وأظن أني ذكرتُ قول الشافعي : لَأَن يُبتَلَى العبد بكلّ ذنبٍ ما خلا الشرك بالله خيرٌ من أن يُبْتَلى بشيء من هذه الأهواء . فلما ظهر قُبْح البدع في الإسلام ، وأنها أظلمُ من الزنا والسرقة وشرْب الخمر ، وأنهم مبتدعون بدَعًا منكرة ، فيكون حالهم أسوأ مِن حال الزاني والسارق وشارب الخمر ، أخذ شيخهم عبد الله يقول : يا مولانا ، لا تتعرض لهذا الجَناب العزيز . يعني أتباع أحمد بن الرفاعي . فقلتُ منكِرًا بكلام غليظ : ويحك ؛ أيّ شيء هو الجَناب العزيز ، وجَناب من خالفه أولى بالعزِّ يا ذا الزرجنة ، تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله ؟! فقال : يا مولانا ، يحرقك الفقراء بقلوبهم . فقلت : مثل ما أحرقني الرافِضَةُ لما قصدتُ الصُّعود إليهم ، وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرِّهم ، ويقول أصحابهم : إن لهم سرًّا مع الله ، فنصر الله وأعان عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بَرَكة ما

يسَّره الله في أمْر غزو الرافضة بالجبل ، أكذب الطوائف ، حتى قيل فيهم : لا تقولوا : أكذبُ من اليهود على الله . ولكن قولوا : أكذب من الأحمدية على شيخهم . وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿ **فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ** ﴾ [هود : ٥٥] .

ولما رددتُّ عليهم الأحاديث المكذوبة ، أخذوا يَطلبون مِنِّي كتبًا صحيحة ليهتدوا بها فبذلتُ لهم ذلك ، وأُعيد الكلام : أنه مَن خرج عن الكتاب والسنَّة ضربتُ عنقه ، وأعاد الأمير هذا الكلام ، واستقر الكلام على ذلك . والحمد لله الذي صدق وعْده ، ونصر عبده ، وهزَمَ الأحزاب وحده .

وقلت لهم : يا شبه الرافضة ، يا بيْت الكَذِب . فإن فيهم من الغلوّ والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم ، وفيهم مِنَ الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك ، أو يساوونهم ، أو يزيدون عليهم » . اهـ .

ابن تيمية والملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون :

لمّا عاد الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى المُلْك ، وزالت دولة المظفر الجاشنكير وخُذل ، وخُذل شيخه نصر المنبجي الاتحادي الحلولي « دخل السلطان إلى مصر يوم عيد الفطر ، ولم يكن له دأْب إلَّا طلب الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الإسكندرية معزَّزًا مكرَّمًا مبجَّلًا ... ولما قَدِمَ عليه الشيخ تقي الدين نهض قائمًا للشيخ أوَّلَ ما رآه ، ومشى له إلى طرف الإيوان ، واعتنقا هناك هُنَيْهة ، ثم أخذ معه ساعة إلى طبقة فيها شباك إلى بستانٍ ، فجلسا ساعةً يتحدثان ، ثم جاء ويَدُ الشيخ في يد السلطان ، فجلس السلطان وعن يمينه ابن جماعة قاضي مصر ، وعن يساره ابن الخليلي الوزير ، وتحته ابن صصرى ، ثم صدْر الدين علي الحنفي ، وجلس الشيخ تقي الدين بين يدي السلطان

على طرف طراحته ، وتكلّم الوزير في إعادة أهل الذِّمَّة إلى لُبْس العمائم البيض بالعلائم ، وأنهم قد التزموا للديوان بسبعمائة ألفٍ في كلّ سنة زيادةً على الحالية ، فسكت الناس وكان فيهم قضاة مصر والشام ، وكبار العلماء من أهل مصر والشام ، من جملتهم ابن الزملكاني . قال ابن القلانسي : وأنا في مجلس السلطان إلى جنب ابن الزملكاني ، فلم يتكلم أحدٌ من العلماء ولا مِنَ القُضاة ، فقال لهم السلطان : ما تقولون ؟ يستفتيهم في ذلك ، فلم يتكلم أحد ، فجثا الشيخ تقي الدين على ركبتيْه ، وتكلم مع السلطان في ذلك بكلامٍ غليظ ، وردّ على الوزير ما قاله ردًّا عنيفًا ، وجعل يرفع صوته والسلطان يتلافاه ويُسكته برفقٍ وتَؤُدَةٍ وتوقير . وبالغ الشيخ في الكلام ، وقال ما لا يستطيع أحد أن يقوم بمثله ولا بقريبٍ منه ، وبالغ في التَّشنيع على مَنْ يُوافق في ذلك . وقال للسلطان : حاشاك أن يكون أولُ مجلس جلسته في أُبَّهة المُلْك تنصر فيه أهل الذِّمة لأجْل حُطامِ الدنيا الفانية ، فاذكرْ نعمة الله عليك إذْ ردّ مُلْكك إليك ، وكبتَ عدوَّك ، ونصرك على أعدائك . فذكر أن الجاشنكير هو الذي جدّد عليهم ذلك ، فقال : والذي فعله الجاشنكير كان من مراسيمك ؛ لأنه إنما كان نائبًا لك . فأعجب السلطان ذلك واستمر بهم على ذلك . وجرتْ فصول يطولُ ذكْرها . وقد كان السلطان أعلم بالشيخ مِن جميع الحاضرين ، ودينه وقيامه بالحق وشجاعته . وسمعت الشيخ تقي الدين يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام لمَّا انفردا في ذلك الشبّاك الذي جلسا فيه ، وأن السلطان استفتى الشيخ في قتْل بعض القضاة ؛ بسبب ما كانوا تكلّموا فيه ، وأخرج له فتاوى بعضِهم بعزْله مِنَ المُلْك ومُبايعة الجاشنكير ، وأنهم قاموا عليك ، وآذوك أنت أيضًا ، وأخذ يحثُّه بذلك على أن يُفتيه في قَتْل بعضِهم . وإنما كان حَنَقُه عليهم بسبب ما كانوا سَعَوْا فيه من عَزْلِهِ ومبايعة الجاشنكير ،

ففهم الشيخ مُرادَ السلطان ، فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء ، ويُنكر أن يَنال أحدًا منهم بسوءٍ ، وقال له : إذا قتلتَ هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم . فقال له : إنهم قد آذَوْك وأرادوا قتلك مِرارًا . فقال الشيخ : مَنْ آذاني فهو في حِلٍّ ، وَمَن آذى اللهَ ورسولَه فالله ينتقم منه ، وأنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح »[١] .

قال : وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثلَ ابن تيمية حرّضنَا عليه فلم نقدِر عليه ، وقدَر علينا فصفح عنا وحاجَجَ عنا .

لله درُّك يا شيخ الإسلام مِن إمامٍ !

لله درُّك من إمامِ أمة ... لله درُّ أمٍ درتْ عليك .. وأمةٍ فيها مثلك ...

لقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية آيةً من آيات الله في الصَّدْع بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن الفرق . ويكفي ردُّه على فلاسفة الصوفية ، والدجاجلة منهم ، والأشاعرة والمتكلمين ، والشيعة ، والمُقَلِّدة ، والفلاسفة وأهل الاعتزال ، وكان أمَّارًا بالمعروف للسلاطين والأمراء .

قال الحافظ عمر بن علي البزار : « أخبرني مَن لا أتَّهِمُه أن الشيخ رضي الله عنه حين وُشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد بن قلاوون ، أحضره بين يديْهِ ، قال : فكان من جملة كلامه : إنني أُخبرتُ أنك قد أطاعك الناس ، وأنّ في نفسك أخْذ المُلْك . فلم يكترثْ به ، بل قال له بنفسٍ مطمئنةٍ ، وقلب ثابت ، وصوت عالٍ ، سمعَه كثيرٌ ممّن حضَر : أنا أفعل ذلك ؟! والله إنّ مُلْكَك ومُلك المُغل لا يساوي عندي فِلْسَيْن . فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته - بما أوقع الله له في

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٥٣ ، ٥٥ - ٥٦ .

قلبه منَ الهَيْبة العظيمة - : إنك - والله - لصادق ، وإن الذي وشى بك إليّ لكاذب »[١] .

لقد « كان رضي الله عنه من أعظم أهل عصره قوةً ومقامًا وثبوتًا على الحق ، وتقريرًا لتحقيق توحيد الحق ، لا يصدُّه عن ذلك لوْمُ لائم ، ولا قوْل قائل ، ولا يرجع عنه لحُجَّة مُحتجٍّ ، بل كان إذا وضح له الحق يعضُّ عليه بالنواجذ ، ولا يلتفتُ إلى مُباينٍ معاندٍ ، ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا ، ولم يُوَلِّهم دُبُرَه فرارًا ، ولقد قصَد أعداؤه الفتْكَ به مرارًا ، وأوسعُوا حِيَلهم عليه إعلانًا وإسرارًا ، فجعل الله حِفْظَهُ منهم له شعارًا ودِثَارًا . ولقد ظنُّوا أن في حبْسه مشينةً ، فجعله الله له فضيلةً وزينةً ، وظهر له يوم موْته ما لوْ رآه وادُّه أقرّ به عَيْنَيْه ، فإن الله تعالى لعلْمِه بقرْب أَجَله ، ألبسَه الفراغ عن الخلْق ، للقدوم على الحقِّ أجملَ حُلَلِهِ ، كونه حُبِسَ على غير جَريرةٍ ولا جريمة ، بل على قوة في الحق وعزيمة ، هذا مع ما نَشَر الله له من عُلومه في الآفاق ، وبَهَرَ بفنونهِ البصائر والأحداق وملأ بمحاسن مؤلفاته الصُّحُف والأوراق ، كبْتًا ورغْمًا للأعداء ، أهل البدع المُضلّة والأهواء ، وصُنعًا عظيمة من رب السماء ، لعوائده لخاصَّة الأولياء ، أهل المحبة والولاء »[٢].

قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرْسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوْم القيامة »[٣].

---

(١) الأعلام العَلِيَّة صـ ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية صـ ٧٥ - ٧٧ .

(٣) حسن : رواه أحمد ، وابن ماجه ، والبخاري في التاريخ عن أبي عنبة الخولاني وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٦٩٢ .

الطرطوشي وأمير مصر :

« افتحِ البابَ وَسَهِّلِ الحجابَ » :

« قال أبو بكر الطرطوشي : دخلتُ على الأفضل ابن أمير الجيوش وهو أمير على مصر ، فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . فردّ السلام عليّ نحو ما سلّمتُ ردًّا جميلًا ، وأكرمني إكرامًا جزيلًا ، وأمرني بدخول مجلسه ، وأمرني بالجلوس فيه ، فقلتُ : أيُّها المِلك ، إن الله تعالى قد أحلَّك محلًّا عليًّا شامخًا ، وأنزلَك منزلًا شريفًا باذخًا ، وملَّكك طائفةً من مُلْكه ، وأشرَكَك في حكمه ، ولم يرضَ أن يكون أمْر أحدٍ فوق أمرك ، فلا ترضَ أن يكون أحدٌ أولى بالشُّكر منك ، وليس الشكر باللسان ، وإنما هو بالفِعال والإحسان ؛ قال الله تعالى : ﴿ **اعملُوا آلَ دَاودَ شُكْرًا** ﴾ . واعلمْ أن هذا الذي أصبحتَ فيه مِن الملْك إنما صار إليك بموْت مَن كان قبلك ، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك ، فاتَّقِ الله فيما حوْلك من هذه الأمة ، فإن الله تعالى سَائِلُك عن الفتيل والنقير والقِطْمير ، قال الله تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنسألنَّهم أجمعِينَ عمَّا كَانُوا يَعْمَلون** ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ **وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حبَّةٍ مِنْ خَردلٍ أتيْنا بها وكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ ، واعلم أيُّها الملك أنَّ الله تعالى قد آتى مُلْك الدنيا بحذافيرها سليمانَ بنَ داود عليه السلام ، فسخَّر له الإنس والجنَّ والشياطين والطير والوحْش والبهائم ، وسخَّر له الرِّيح تجري بأمره رُخَاءً حيثُ أصابَ ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له : ﴿ **هذا عَطَاؤنا فامْنُنْ أوْ أمْسِكْ بغير حِسابٍ** ﴾ . فوالله ما عدَّها نعمة كما عددتُّموها ، ولا حَسِبها كرامةً كما حسِبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجًا مِنَ الله تعالى ومَكْرًا به ، فقال : ﴿ **هـٰذا مِنْ فَضْلِ ربِّي لِيَبْلُوَني أأَشْكُرُ أمْ أكفُرُ** ﴾ . فافتحِ البابَ ، وسهِّل الحجابَ ، وانصرِ المظلومَ ، وأغثِ الملهوف ، أعانك الله على نصْر المظلوم ، وجعَلك كَهفًا للملهوف وأمانًا

للخائف »[١] .

الشيخ شمس الدين والسلطان بايزيد :

« إنك تاركٌ للصلاة مع الجماعة » :

حضرَ السلطان بايزيد بن محمد[٢] - أحدُ سلاطين العثمانين - إلى المحكمة الشرعية بين يديْ الشيخ شمس الدين محمد بن حمزة الفناري[٣] قاضي القسطنطينية ليشهد أمامه في قضية من القضايا ، فما كان من الشيخ الفناري إلا أن ردّ شهادة السلطان و لم يقبلْها ، وسأل السلطانُ الشيخَ الفناري عن أسباب ردِّ شهادته ، فقال له الشيخ : إنك تاركٌ للصلاة مع الجماعة . وابتسم السلطان ، ثم أمر ببناءِ مسجدٍ أمام دارِه . و لم يترك صلاة الجماعة بعد ذلك[٤] .

الشيخ عبد الحميد الجزائري والمندوب السامي :

استدعى المندوب السامي الفرنسي - في سورية - الشيخ عبد الحميد الجزائري ، وقال له : إما أن تُقلع عن تلقين تلاميذِك هذه الأفكار وإلّا أرسلتُ جنودًا لإغلاق المسجد الذي تنفثُ فيه هذه السموم ضدَّنا ، وإخمادِ أصواتك المنكَرة . فأجاب الشيخ عبد الحميد : أيُّها المسيُو الحاكم ، إنك لا تستطيع ذلك . واستشاط المسيو غضبًا ، وقال : كيف لا أستطيع ؟ قال الشيخ : إذا كنتُ في عرسٍ علّمتُ المحتفلين ، وإذا كنتُ في مأْتمٍ وعظْتُ

---

(١) المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف .

(٢) السلطان بايزيد بن محمد الفاتح .

(٣) هو الشيخ شمس الدين محمد ، ولي القضاء في بروسيا وارتفع قدْره عند السلطان بايزيد ، وهو من عائلة اشتُهرت بالعلم والفقه .

(٤) « أقباس روحانية » لشيث خطاب .

المُعزِّين ، وإنْ جلستُ في قطار علَّمتُ المسافرين ، وإن دخلتُ السجن أرشدتُّ المسجونين ، وإن قتلتموني ألهبتُ مشاعر المواطنين ، وخيرٌ لك أيها المسيو ألا تتعرض للأمة في دينها ولغتها[١] .

أبو غياث الزاهد والأمير[٢] :

رُوي أن أبا غياث الزاهد كان يسكن المقابر ببخارى ، فدخل المدينة ليزورَ أخًا له ، وكان غلمان الأمير نصر بن محمد ، ومعهم المُغَنُّون والملاهي ، يخرجون من داره ، فلما رآهم أبو غياث الزاهد قال : يا نفس ، وقع أمرٌ إن سكتِّ فأنت شريكةٌ . فرفع رأسه إلى السماء واستعان بالله وأخذ العصا ، فَحَمَلَ عليهم حملةً واحدة ، فولُّوا منهزمين مدبرين إلى دار السلطان ، وقصُّوا على الأمير ، فدعا به ، وقال له : أما علمتَ أنه مَن يخرج على السلطان يتغدى في السجن ؟ فقال له أبو غياث : أما علمت أنه من يخرج على الرحمٰن يتعشّى في النيران ؟ فقال له : مَن ولّاك الحسبة ؟ فقال : الذي ولّاك الإمارة . فقال الأمير : ولّاني الخليفةُ . فقال أبو غياث : ولّاني الحسبةَ ربُّ الخليفة . فقال الأمير : ولَّيتُكَ الحسبةَ بسمرقند . فقال : عزلتُ نفسي عنها . فقال الأمير : العجَب في أمْرِك ، تحتسب حين لم تؤْمر ، وتمتنع حيث تؤْمر ؟! قال : لأنك إن وليتني عزلتني ، وإذا ولّاني ربي لم يعزلني أحد . فقال الأمير : سَلْ حاجتَك ؟ فقال : حاجتي أن تردَّ علي شبابيَ ؟ فقال : ليس ذلك إليَّ ، فهل لك حاجة أخرى ؟ قال : أن تكتب إلى مالكٍ خازنِ النار أن لا يعذبني . قال : ليس لي ذلك أيضًا . قال : هل لك حاجة أخرى ؟ قال : أن تكتب إلى رضوان خازن الجنان يدخلني الجنة . قال : ليس ذلك إليّ أيضًا . قال

---

(١) « أقباس روحانية » .

(٢) « تربية الأولاد في الإسلام » لعبد الله ناصح عُلوان .

أبو غياث : فإنها مع الربّ الذي هو مالك الحوائج كلها ، لا أسأله حاجة إلَّا أجابني إليها . فخلّى الأميرُ سبيلَه(١).

الشاطبي(٢) والأمير موسك :

« قُلْ للأمير نصيحةً » :

كان الأمير عزُّ الدين مُوسك مِن أمراء دولة بني أيُّوب - ويُنسب إليه شارع الموسكي بمصر - كان أميرًا يحبّ أهل العلم والصلاح ، فلما قَدِمَ الإمام القاسم الشاطبي المقرئ الضرير ، وكان إمامًا منقطِع القرين ، رأسًا في القراءات ، الذي سارت الرُّكبان بقصيدته (حرز الأماني) فلما قَدِمَ مصر ووُصِفَ للأمير ، طَلَبَهُ ، ولم يتقدم إليه الأميرُ بنفسه . فأخذتِ الشيخَ عِزَّةُ العلم ، وهو الغريب الفقير ، فكتب له رقعةً فيها :

قُـلْ للأمـيرِ نصيحـةً   لا تـركـنَنَّ إلى فقـيهْ
إنَّ الفقـيهَ إذا أتَـى   أبوابَكُـم لا خـيرَ فـيهْ

أحد علماءِ الأزهر والخديوي إسماعيل :

« مِنك يا إسماعيل ، لا منَّا » :

لما وقعتِ الحرب بين مصر والحبشة ، وتوالتِ الهزائم على مصر - لوقوع الخلاف بين قُوّاد جيوشها - ضاق صدر الخديوي لذلك ، فركب

(١) الموعظة مِن كتاب « من أخلاق العلماء » .

(٢) (الشاطبي) : هو القاسم بن فيروه الرعيني ، وهو إمام قُرَّاء عصره . وُلد بشاطبة (الأندلس) ، وتوفي بالقاهرة عام ٥٩٠ هـ . وكان ضريرًا ، رحَل إلى القاهرة وعلَّم فيها. من آثاره: حِرز الأماني؛ وهي قصيدة في القراءات تُعرف بالشاطبية ، وكان عالمًا بالحديث والتفسير واللغة . قال ابن خلكان : كان إذا قُرئ عليه صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ؛ تُصحح النُّسخ مِن حفظه .

يومًا مع شريف باشا ، وهو مُحرج ، فأراد أن يفرِّج عن نفسه ، فقال لشريف باشا : ماذا تصنع حينما تلمُّ بك مُلمَّة تريد أن تدفعها ؟ فقال : يا أفندينا ، إن الله عوَّدني إذا حاق بي شيءٌ من هذا أن ألجأ إلى صحيح البخاري ، يقرؤه لي علماءٌ أطهارُ الأنفاس ، فيفرج الله عني . قال : فكلَّم شيخَ الأزهر ، وكان الشيخ العروسي ، فجمع له من صلحاء العلماء جمعًا ، أخذوا يتلون في البخاري أمام القبلة القديمة في الأزهر . قال : ومع ذلك ، ظلَّتْ أخبار الهزائم تتوالى ، فذهب الخديوي ومعه شريف باشا إلى العلماء ، وقال لهم محنقًا : إمَّا أن هذا الذي تقرءونه ليس بصحيح البخاري ، أو أنكم لستم العلماء الذين نعهدهم من رجال السلف الصالح ؛ فإن الله لم يَدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئًا . فَوَجَم العلماء لذلك . وابتدره شيخٌ من آخر الصفِّ يقول له : منك يا إسماعيل ، فإنا روينا عن النبي ﷺ ، أنه قال : « لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ولَتنهونَّ عن المنكر ، أَوْ لَيُسلِّطنَّ الله عليكم شرارَكم ، فيدعو خيارُكم ، فلا يُستجاب لهم »[1]. وانصرف الخديوي ومعه شريف باشا ، ولم يَنْبِسَا بكلمة . وأخذ العلماء يلومون القائل ويؤنِّبونه . فبينما هم كذلك إذا بشريف باشا قد عاد يسأل : أين الشيخ القائل للخديوي ما قال ؟ فقال : أنا . فأخذه وقام ، وانقلب العلماء بعد أن كانوا يَلُومون الشيخ يُودِّعونه وداعَ مَن لا يأملون أن يرجع . وسار شريف باشا بالشيخ إلى أن دخلا على الخديوي في قصره ، فإذا به قاعد في البهْو وأمامه كرسي ، أجلس عليه الشيخ وقال : أعِدْ يا أستاذ ما قلته لي في الأزهر . فأعاد الشيخ كلمته وردَّد الحديث وشرحه ، فقال له الخديوي : وماذا صنعْنَا حتى ينزل بنا هذا البلاء ؟ قال له : يا أفندينا ، أليست المحاكم المختلطة قد فتِحت بقانون يُبيح الربا ؟! أليس الزنا برخصة ؟! أليس الخمر مباحًا ؟! وعدّد له

---

(١) رواه البزار والطبراني في الأوسط .

منكراتٍ تجري بلا إنكارٍ ، وقال : فكيف تنتظر النصر مِنَ السماء ؟! فقال الخديوي : وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب ، وهذه مدنيَّتهم ؟ قال : إذن ، فما ذنب البخاري ، وما حِيلة العلماء ؟! ففكّر الخديوي مليًّا ، وأطرق طويلًا ، ثم قال : صدقتَ . وأمر ، فرتِّبت له في الرزنامجة ثلاثون جنيهًا[١] .

الشيخ العدوي أمام السلطان :

« ذَكَرَ دينَه ونسيَ دنياه » :

عندما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر في عهد إسماعيل باشا كان إسماعيل حَفِيًّا بالزيارة ؛ لأنها كانت جزءًا من برنامجه للحصول على لقب خديوي ، مع عدَّة امتيازات في نظام الحكم بمصر . وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السَّراي ، ولما كانت للمقابلة السُّنِّية تقاليدُ ، منها أن يَنحني الداخل إلى الأرض ، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام ، فقد كان حتْمًا على رجال السراي أن يدرِّبوا العلماء على طريقة المقابلة عدَّة أيام ؛ كي لا يُخطئوا في حضْرة السلطان . وعندما حان الموعد ، دخل السادة العلماء الأجلَّاء فنسُوا دينهم واشتَروْا به دنياهم ، وانْحَنَوْا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ، وخرجوا مُوجِّهين وجوهَهم إلى الخليفة ، كما أمرهم رجال التشريفات ، إلا عالمًا واحدًا هو الشيخ حسن العدوي ، ذكَر دينَه ونسيَ دنياه ، واستحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله ، ودخل مرفوعَ الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار ، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : السلام عليكم يا أمير المؤمنين . وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالمُ الحاكمَ ، دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذابه ،

---

(١) من كتاب « من أخلاق العلماء » .

والعدل والرحمة بين رعاياه ، فلما انتهى سلَّم ، وخرج مرفوع الرأس . وأُسقط في يَد الخديوي ورجال السراي ، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم ، وأن السلطان لا بدّ غاضبٌ ، فضائعةٌ تلك الجهود التي بذلوا ، والآمال التي نسجوا . ولكنّ كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سُدًى ، فلا بدَّ أن تصدع القلوب قوية حارّة ، كما نبعت من مَكمنها قوية حارّة ، وهكذا كان ، فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم . وخلَع عليه دون سواه[1] .

الشيخ العدوي أمام المحكمة :

« لم يَعُدْ جديرًا بأن يحكمنا » :

كان الشيخ الأزهري حسن العدوي أحدَ الذين شاركوا في الثورة العرابية ، فلما حلَّتِ الهزيمة وقبِض على عرابي والعرابيين ، كان العدوي واحدًا من الذين قُدِّموا للمحاكمة أمام المحكمة التي كانت مؤلَّفة من لفيفٍ مِنَ الباشوات ، ومن رجال الخديوي . ووقف الشيخ - الذي قَارَب سنّ الثمانين - أمام المحكمة ، وسأله رئيسها إسماعيل باشا أيوب بصوتٍ غليظ جافٍّ : هل وقَّعتَ باسمك ، أو ختمتَ بخاتَمك قرارًا يقضي أنّ أفندينا المعظَّم سُمُو الخديوي توفيق باشا يستحقُّ العزْل ؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السِّنّ يستعيد حَمِيَّة الشباب وحماستَه ، فنظر إلى أيوب باشا نظرةً ثابتةً حادَّة ، واتَّكأ بذراعيْه على منضدةٍ أمامه ، وقال : أيُّها الباشا ، إنني لم أرَ الورقة التي تتحدث عنها ، ولهذا فلن أجيب على سؤالك عمّا إذا كنتُ قد وقَّعتُها ، ولكنني أقول لك ما يأتي : إنه إذا أحضرتَ لي الآنَ ورقةً تحتوي على مثلِ هذا المعنى الذي ذكرتَه ، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي وأختمُها بخاتمي في حضورك ،

---

(١) « مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام » ، نقلًا عن « التصوف الإسلامي » لزكي مبارك .

الآن أيُّها الباشا . ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلًا : إذا كنتم مسلمين ، فهل تستطيعون أن تُنكروا أن توفيق باشا - وقد خان بلاده ، وذهب إلى الإنجليز وانضم إليهم - لم يعدْ جديرًا بأن يكون حاكمًا لنا . واصفرَّ وجْه الباشا رئيس المحكمة ، الذي كان يظنُّ أنه يُخيف المحكومين ، ولم ينطق بكلمة واحدة يردُّ بها على الرجل المُسنِّ الجريء ، وأوْمأ إلى حُرَّاس المحكمة أن يأخذوه ويَخرجوا به من قاعة المحكمة ، ثم نقلوه إلى قريته ، واعتقلوه فيها[1] .

أحد علماء الأزهر والسلطان :

« مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يدَه » :

لما قَدِمَ السلطان عبد العزيز مصرَ وزار الجامع الأزهر وصحبَه الخديوي إسماعيل ، فَلَحَظَ الخديوي على شيخ بالجامع كأنه غيرُ مُهتمٍّ ، فهو مسندٌ ظهرَه ، مادٌّ رجلَه ، فأسرع بالسلطان عنه ، ثم كلَّف أحدَ رجاله - وقد أراه الشيخَ - أن يذهب له بصُرَّةٍ ، يريد أن يعرف حاله ، فلما جاء الرسولُ ليعطيه قبضَ الشيخُ عنه يدَه ، وقال له : قل لمن أرسلك : إن مَنْ يمدُّ رجلَه لا يمدُّ يده[2] .

صَاحِبُ الظِّلال أسكَنَه اللهُ ظلالَ الجنة :

سيد قطب ، وله مِن اسمه أوْفَى نصيبٍ - رحمه الله - في صَدْعِهِ بالحقّ ، ونهْيه عن المنكر ...

---

(١) جريدة أخبار اليوم ٨ / ١٩٨١ .

(٢) كتاب : « أخلاق العلماء » . والسلطان عبد العزيز هو ابن السلطان محمود الثاني ابن السلطان سليم الثالث ، وُلد عام ١٨٣٠م وتُوفي عام ١٨٧٦م ، انسلخت على أيامه رومانيا والصرب والبلغار ومصر عن الإمبراطورية العثمانية .

هذا الذي أصدروا الحكْم بإعْدامه ورفض أنْ يكتب الْتماسًا للطاغية بتخفيف الحكْم ..

وكتابُهُ « الظلال » يُنبئ عن لَيْثٍ هَصُورٍ ، وعن رجل أمَّارٍ بالمعروف ، يطلب منه عبد السلام عارف - حاكم العراق - أن يرحل معه حيث الأمن والأمان والمناصب ، فيفضّل البقاءَ في مصر مرابطًا ، آمرًا بالمعروف ، وكفاه شرفًا وفخرًا .. رحمه الله ، وأجزل له المثوبة .

قافلة النور تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فَتُبْتَلَى :

لقد ضرب الربّانيون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر أروعَ الأمثلة في القيام بالحقّ ، وأن لا تأخذهم في الله لومةُ لائمٍ .

« قتل الحجاجُ عبدَ الرحمن بن أبي ليلَى ، وعبدَ الله بن غالب الحدّاني ، وسعيدَ بن جُبير ، وأبا البختري الطائي ، وكميل بن زياد ، وحُطيطًا الزيّات ، وماهان الحنفي ؛ صَلَبه ، وصلَب قبلَه ابن الزبير . وقتَل الواثقُ أحمدَ بن نصر الخزاعي ، وصلَبه .

فأمّا من ضُرِبَ من كبار العلماء :

فعبد الرحمن بن أبي ليلَى : ضربه الحجاج أربعمائة سَوْطٍ ، ثم قتله .

سعيد بن المسيب : ضربه عبدُ الملك بن مروان مائةَ سَوْطٍ ، وصب عليه جَرَّةَ ماءٍ في يوم شاتٍ ، وأُلبس جُبَةَ صوفٍ .

وخُبيب بن عبد الله بن الزبير : ضربه عمر بن عبد العزيز - بأمْر الوليد - مائةَ سَوْطٍ ، فكان عمر إذا قيل له : أبشِرْ . قال : كيف بخبيبٍ على الطريق ؟!

أبو الزِّناد : ضربه بنو أمية .

أبو عمرو بن العلاء : ضربه بنو أمية خمسمائة سَوْطٍ .

ربيعة الرأي : ضربه بنو أمية .
عطية العوفي : ضربه الحجاج أربعمائة سوط .
يزيد الضَّبي : ضربه الحجاج أربعمائة سوط .
ثابت البناني : ضربه ابن الجارود خليفة ابن زياد .
عبد الله بن عون : ضربه بلال بن أبي بُردة سبعين سوطًا .
مالك بن أنس : ضربه المنصور سبعين سوطًا في يَمينِ المُكْرَه ، وكان مالك يقول : لا تلزمُه اليمين .

أبو السّوار العدوي ، وعقبة بن الغافر : ضُرِبا بالسِّياط » .

وضُرب إمام أهل السنة بالسياط في الله ، فقام مَقَامَ الصِّدِّيقين ، في العَشْر الأواخر مِن رمضان سنةَ عشرين ومائتين .

وكمْ للرَّبانيين - على مدار التاريخ - من مواقف أنصعَ من ضَوْءِ النهار ! بَيّضَ الله وجوههم كما بيّضوا وجْه التاريخ .. وكانوا شامةَ الحُسْنِ فيه .

إلى الله نشكو أهلَ الممالك من أهل مِلَّتِنا :

« ماذا يملك أفذاذ الرجال الذين أعطاهم الله البصيرة والنور حينما يَرَوْنَ الحالة الأليمة التي تتردَّى فيها الأمة ؟! إلَّا أن يتوجهوا إلى ربهم بالشكوى ، ثمَّ يُجرِّدوا ألسنتهم وأقلامهم لتبصير الناس وتوجيههم الوِجْهة الصحيحة .

هذا عَالِم فذٌّ من علماء الأندلس يجأرُ بالشكوى إلى الله ، يشكو ملوكَ زمانه ؛ لانشغالهم بالدنيا عن الآخرة ، وبعمارة القصور عن عمارة الشريعة ، وبجمع المال عن حماية الديار .

وفي مثل هذا الجوّ يضعُف الأخيار ويكثر الأشرار ، ويستشرف أعداء الإسلام إلى السِّيادة والسلطان ، وهذا ما حدث ، عندما اتخذ بعضُ الملوك

اليهودَ وزراءً وعمَّالًا سلَّطُوهم على رِقاب المسلمين فاستأسدُوا ، وضَارّوا المسلمين ، وتجرَّأ زعيمُهم على كتابة كتابٍ يتهجم فيه على كتاب الله الكريم ، ويزعم أنه متناقِض . فكتب ابن حزم كتابه هذا[١] ، وبدأه بالشكوى : « اللهمَّ إنَّا نشكو إليك تشاغُل أهل الممالك – من أهل ملتنا – بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصورٍ – يتركونها عمّا قريبٍ – عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادِهم ودار قرارهم ، وبجمْع أموال – ربما كانت سببًا إلى انقراض أعمارهم ، وعوْنًا لأعدائهم عليهم – عن حِياطة مِلَّتهم التي بها عَزُّوا في عاجِلَتهم ، وبها يرجون الفوز في آجلتهم ، حتى استشرف لذلك أهلُ القبلة والذِّمة ، وانطلقت ألسنةُ أهل الكفر والشرك بما لو حقَّق النظرَ أربابُ الدنيا لاهتموا بذلك ضِعفَ هَمِّنَا ؛ لأنهم مُشارِكون لنا فيما يلزم الجميع ، من الامْتِعَاضِ للديانة الزهراء ، والحميَّة للملة الغرَّاء ، ثُمَّ هُم بعدُ مُتردُّون بما يؤول إليه إهمالُ هذه الحال ، من فساد سياستهم والقدح في رياستهم . فللأسباب أسباب ، وللمداخل إلى البلاء أبواب ، والله أعلم بالصواب ، وقد قال علي بن العباس :

لا تَحْقِرنَّ سُبَيْبًا كم جرَّ أمرًا سُبَيْبُ

وقال أبو نصر ابن نباتة :

فَلَا تَحْقِرَنَّ عدوًّا رماكَ وإنْ كَانَ في سَاعِدَيْهِ قِصَرْ
فإنَّ السيوفَ تحزُّ الرقابَ وتعجَزُ عمَّا تَنالُ الإبَرْ

لقد كان في المسلمين بقية خيرٍ ؛ فقد أثَّرت كتابات الأخيار فيهم ، وأثارتْ حميَّتَهم قصائدُ الشعراء الذين بيَّنوا مساوئ اليهود ، ومنها قصيدة

(١) كتاب « الردُّ على ابن النغريلة اليهودي » صـ ٤٥ – ٤٦ تحقيق د . إحسان عباس – نشر مكتبة دار العروبة – القاهرة .

أبي إسحاق الألْبيري التيْ يقول فيها :

وإنِّي احتللتُ بِغِرْنَاطَةَ فكنتُ أراهم بِهَا عابثينْ
وَقَدْ قسَّموها وأعمالَهَا فمنهُمْ بكلِّ مكانٍ لَعِينْ
وَهُمْ يَقْبِضُونَ جِبَاياتِهَا وأنْتُمْ لأوضَاعِهَا لابِسُونْ
وهم أُمَناكم على سِرِّكمْ وكيفَ يكون أمينًا خَؤُونْ

وثار المسلمون وهبُّوا جميعًا في ثورةٍ عارمةٍ أوْدَتْ بحياة أربعمائة مجرمٍ يهودي ، منهم ابن النغريلة ، هذا الذي بلغ مرتبة الوزارة .

ما أشبه الليلةَ بالبارحة ! ومُصابُ اليومِ أعظمُ ، فأهل الممالكِ في زماننا أقاموا لليهود دولة في مَسرَى الرسول ﷺ ، وباعوا الأرض المباركة بِعَرَضٍ حقيرٍ ، واعترف بعض هؤلاء بدولة أبناءِ الخنازير ، واستقبلوهم في ديارهم . تُرى ، لو كان ابن حزم حيًّا ماذا يقول ، وماذا يكتب ؟ وتراه لو كتَب ، أيحرِّك أشجان المسلمين ؟! إلى الله نشكو ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم »[١] .

لا يعلم إلا الله – إن لم يأمرِ الربانيُّون بالمعروف وينهون عن المنكر – ما سيكون ، والوحْل والحضيض الذي تعيش فيه الأمة يُدمي القلوب **والعيون** ، والمسلمون ينحدرون من هاوِيَةٍ إلى هاوية ، ويتقهقرون من نكْسة إلى نكسة ، ويتهافتون من خَرابٍ إلى خرابٍ .

أَلِفَتِ الأمة الآثام ، حتى أمْسَتْ جزءًا من كِيَانِها تتمسَّك به وتدافع عنه ، حالُهم مثلُ حال الأُمم التي قال الله عز وجل فيها : ﴿ **تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا**

(١) « جوْلة في رياض العلماء » صـ ١٠٣ – ١٠٥ للدكتور عمر سليمان الأشقر – طبع دار النفائس ومكتبة الفلاح .

إلى أُمَمٍ مِنْ قبلك فزيَّنَ لهُمُ الشيطانُ أعمالَهمْ فهوَ وَلِيُّهم اليومَ ... ﴾ الآية [النحل : ٦٣] جعل القبيح في عيونهم حَسَنًا ، والمُرّ في مذاقهم حلوًا ، وكرّه لهم الاستقامة وَوَحْيَ السماء ، فهم لا يرتضُون إلا ما ابتدعوا ، ولا يقبلون عنه بَديلًا .

ومثال ذلك الواضح : كان القذَرُ الجنسيّ يتمُّ في خَفَاءٍ ، ثم صار يبدو على استحْيَاءٍ ، ثم تواضَعَ عليه الرِّعَاعُ ، ثم صار قانونًا يُعمل به ، ثم انعقدتْ مؤتمراتٌ عالمية تدعو إليه ولا ترىٰ فيه عِوَجًا فَمَنْ يُعرِّي هؤلاءِ العُراة ويفضحهم إنْ سَكَتَ الربانيُّون ؟!

ناشئةٌ حديثةٌ تكره اللهَ ورسوله ، وتنقِم على الإسلام ووحْيه ، وتريد باسم العلمانية أن تعيدَنا إلى جاهلية عمياء ..

ومَنْ لهؤلاء الأقزام يصدُّهم إلا الجبال الشُّمُّ مِنَ الربانيين الذين ذاقوا حلاوة الأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فاستعذبوا ما يُلاقون ، ابتغاءَ وَجْه ربِّهم الأعلى ؟! يا جيلَ المصاحف · أكلتْ مواسِمَنا الجنادب .. واستبدَّ بنا الحواة ، وغادرتنا آخرُ السُّحُبِ الحميمةِ في السماء .

وأقول يا جيلَ المصاحف .. يا خميرَ الأرض .. يا غَرْسَ الشهادة ، أنت الذي سيبدِّل الأوزان والأحزان ، يزرعُ في العيون نخيلَها، فَلَكَمْ تباطأَ في الرحيل عن القُرىٰ عامُ الرَّماد !!

أبو النصر وعاملٌ للخليفة :

« كتاب الله قبل كتاب الخليفة » :

دخل أبو النصر سالم مولَى عمر بن عبيد الله على عاملٍ للخليفة ، فقال له : يا أبا النصر ، إنه تأتينا كتبٌ مِن عند الخليفة فيها وفيها ، ولا نجد

بُدًّا من إنفاذها ، فما تَرَى ؟ قال أبو النصر : قد أَتاك كتابُ الله قبل كتاب الخليفة ، فأيّهما اتبعتَ كنت من أهله .

أبو سعيد الضبعي ومحمد بن سليمان :

« لِمَ تقولونَ ما لا تفعلون ؟ » :

كان واليَ البصرة : محمدُ بن سليمان ، فكان كلما صعد المنبر أمَرَ بالعدل والإحسان ، فقام أبو سعيد الضبعي ، فقال : يا محمدَ بن سليمان ، إن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **يَاأَيُّهَا الذينَ آمنُوا لِمَ تقولونَ ما لا تَفعلونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقولُوا مَا لا تفعلونَ** ﴾ . يا محمدَ بنِ سليمان ، إنه ليس بيْنَك وبيْنَ أن تتمنَّى أَنْ لم تُخلق إلا أن يَدخل مَلَكُ الموتِ من بابِ بيتك . قال : فخنقَتْ محمدَ بن سليمان العَبْرة ، فلم يقدر أن يتكلم ، فأحبَّه النُسَّاكُ حين خنقته العَبْرة ، وقالوا : مؤمنٌ مذنبٌ .

* * *